

سَمَاحَةُ الْمَرْجُوعِ الَّذِي آيَةُ اللَّهِ الْعُظْمَى الْحَاجُّ
السَّيِّدُ مُحَمَّدٌ تَقِيُّ الدَّرَسِيِّ

بُيُوتُ مَنْ فُقِيَ الْقَدْرُ

دراسة قرآنية تعتمد استنباط السُّنَنِ الإلهية من آيات الذكر الحكيم
(سُورَةُ الذَّارِيَاتِ * سُورَةُ الطُّورِ * سُورَةُ النَّجْمِ)

وَأَنْتَ يَا رَبِّ الْعَالَمِينَ



محفوظات جميع الحقوق

الطبعة الأولى

١٤٣٥هـ / ٢٠١٤م

هوية الكتاب

* الكتاب: بينات من فقه القرآن، دراسة قرآنية تعتمد استنباط السنن الإلهية من آيات الذكر الحكيم (سورة الذاريات، وسورة الطور، وسورة النجم).

* المؤلف: المرجع الديني آية الله العظمى السيد محمد تقي المدرسي.

* الطبعة: الأولى، ١٤٣٥هـ / ٢٠١٤م. (٣٩٩ صفحة).

* تحقيق: مركز العصر للثقافة والنشر - بيروت.

* الناشر: دار المحجة البيضاء.



الرويس - مفرق محلات محفوظ ستورز - بناية رمال

ص.ب: ١٤/٥٤٧٩ - هاتف: ٠٣/٢٨٧١٧٩ - ٠١/٥٤١٢١١

تلفاكس: ٠١/٥٥٢٨٤٧ - E-mail: almahajja@terra.net.lb

www.daralmahaja.com info@daralmahaja.com



سَمَاحَةُ الْمَرْجِعِ الَّذِي آيَةُ اللَّهِ الْعُظْمَى الْحَاجُّ
السَّيِّدُ مُحَمَّدٌ تَقِي الْمُدَرِّسِيُّ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

دَارِسَةُ قُرْآنِيَّةٌ تَعْتَمِدُ اسْتِنْبَاطَ السُّنَنِ . الإِلَهِيَّةِ مِنْ آيَاتِ الذِّكْرِ الْحَكِيمِ

سُورَةُ الدَّارِيَّاتِ * سُورَةُ الطُّورِ * سُورَةُ النِّجْمِ

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾^(١)

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ^(٢)

الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ^(٣)

مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ^(٤)

إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ^(٥)

اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ^(٦)

صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ

غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ^(٧) ﴿



المحتويات

المقدمة ١٣

سورة الذاريات

وإننا لموسعون.....	١٧
لماذا القسم؟.....	٢٠
الوعد الصادق.....	٢٤
والذاريات ذرواً.....	٢٨
إنكم لفي قول مختلف.....	٣٦
قتل الخرأصون.....	٤٣
عقبى التقوى.....	٥٢
السبيل إلى التقوى.....	٥٧
وبالأسحار هم يستغفرون.....	٦٣
قليلاً من الليل ما يهجعون.....	٧٠
آيات للموقنين.....	٧٧
وفي السماء رزقكم وما توعدون.....	٨٤
إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون.....	٨٩

- قالوا كذلك قال ربك ٩٥
- عقبى المسرفين؛ قوم لوط مثلاً ١٠١
- وتركنا فيها آية ١٠٧
- فتولى بركنه فَنُذِّدَ في اليم ١١٤
- وما كانوا متتصرين ١٢١
- المصلحون صمام أمان المجتمع ١٢٩
- وإننا لموسعون ١٣٤
- خلقنا زوجين لعلكم تذكرون ١٤٠
- الفرار إلى الله ١٤٦
- خارطة طريق للفرار إلى الله ١٥١
- تكذيب الرسالات بين التواصي بالباطل والطغيان ١٥٥
- إن الله هو الرزاق ١٦١
- كيف نقاوم شهواتنا ووساوس إبليس؟ ١٦٧
- كيف نتعايش مع الخليقة؟ ١٧٥

سورة الطور

- تمهيد ١٨٣
- قسماً بالطور ١٨٥
- وكتاب مسطور ١٨٧
- والبيت المعمور ١٨٩
- إن عذاب ربك لواقع ١٩٣
- يوم تمور السماء موراً ١٩٥
- فويل يومئذ للمكذبين ١٩٧
- في خوض يلعبون ٢٠٠

أفسح هذا؟.....	٢٠٤
عقبى المتقين جنات النعيم	٢٠٧
لأهل الجنة.....	٢١١
غلمان كأنهم لؤلؤ مكنون.....	٢١٦
إنه هو البر الرحيم	٢١٨
قل تربصوا	٢٢١
فليأتوا بحديث مثله	٢٢٤
بل لا يوقنون	٢٢٧
فليأت مستمعهم بسلطان مبين	٢٣٠
فهم من مغرم مثقلون	٢٣٣
الذين كفروا هم المكيدون.....	٢٣٥
فذرهم حتى يلاقوا يومهم	٢٣٧
وإن للذين ظلموا عذاباً	٢٤٠
واصبر لحكم ربك.....	٢٤٢

سورة النجم

والنجم إذا هوى	٢٤٧
ما ضل صاحبكم	٢٥٢
ما ينطق عن الهوى.....	٢٥٥
علمه شديد القوى	٢٦٢
ذو مرة فاستوى	٢٦٤
وهو بالأفق الأعلى	٢٦٨
ثم دنا فتدلى	٢٧١
فكان قاب قوسين أو أدنى	٢٧٤

- فأوحى إلى عبده ما أوحى ٢٧٧
- ما كذب الفؤاد ما رأى ٢٨٠
- أفتمارونه على ما يرى ٢٨٤
- ولقد رآه نزلة أخرى ٢٨٦
- عندها جنة المأوى ٢٨٨
- لقد رأى من آيات ربه الكبرى ٢٩٢
- زلزلة الضمائر ٢٩٥
- ألكم الذكر وله الأنثى؟ ٢٩٨
- تلك إذاً قسمة ضيزى ٣٠٠
- إن يتبعون إلا الظن ٣٠١
- أم للإنسان ما تمنى؟ ٣٠٦
- فلله الآخرة والأولى ٣٠٩
- لمن الشفاعة؟ ٣١١
- ليسمون الملائكة تسمية الأنثى ٣١٤
- إن الظن لا يغني من الحق شيئاً ٣١٨
- فأعرض عمّن تولى عن ذكرنا ٣٢٢
- ذلك مبلغهم من العلم ٣٢٧
- ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى ٣٣١
- فلا تزكوا أنفسكم ٣٣٤
- أفرأيت الذي تولى؟ ٣٤٢
- أعنده علم الغيب؟ ٣٤٥
- المسؤولية جوهر الرسائل ٣٤٧
- ألا تزرر وزرر أخرى ٣٤٩
- ليس للإنسان إلا ما سعى ٣٥٢

٣٥٤	وأن سعيه سوف يرى
٣٥٦	ثم يجزاه الجزاء الأوفى
٣٥٩	إلى ربك المنتهى
٣٦٢	هو أضحك وأبكى
٣٦٤	هو أمات وأحيا
٣٦٦	خلق الزوجين الذكر والأنثى
٣٦٨	من نقطة إذا تمنى
٣٧٠	وإن عليه النشأة الأخرى
٣٧٢	هو أغنى وأقنى
٣٧٤	هو رب الشعرى
٣٧٦	أهلك عاداً الأولى
٣٧٨	وثمود فما أبقى
٣٧٩	هم أظلم وأطغى
٣٨١	والمؤتفكة أهوى
٣٨٣	فغشاهما ما غشاهما
٣٨٥	فبأي آلاء ربك تتماهى؟
٣٨٧	هذا نذير
٣٨٩	أزفت الآزفة
٣٩١	ليس لها من دون الله كاشفة
٣٩٢	أفمن هذا الحديث تعجبون؟
٣٩٤	وتضحكون ولا تبكون؟
٣٩٥	وأنتم سامدون
٣٩٧	فاسجدوا لله



المقدمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد الأنبياء والمرسلين محمد وآله الطيبين الطاهرين.

تتراكم الأحداث الخطيرة والدائمة أحياناً من حولنا، ويتساءل الكثير: ما هو حل الإسلام لكل هذه المنظومة الواسعة من الأحداث الكارثية؟ هل الإسلام، وهل الحركات الإسلامية المنتمية إليه جزء من الحل، أم - لا سمح الله - جزء من المشكلة؟

كلّا؛ إننا نؤكد - المرة بعد الأخرى - أن الإسلام هو الحل، وإذا تجردت الحركات الإسلامية عن حزبياتها وذاتياتها وأتبعَتْ نهج الأنبياء عليهم السلام في أمورها، في تدبيرها، في أخلاقها، في نكرانها للذات.. فإنها - بإذن الله - ستكون جزءاً من الحل. ولكن كيف؟

إننا كنا نبشر أنفسنا بأن جيلاً قرآنياً سوف يتكوّن ويتنامى ويكافح من أجل ترسيخ بصائر الوحي في المجتمع، حتى يمكّنه الرب

سبحانه في أرضه. أو لم يقل عز من قائل: ﴿إِنْ مَكَّنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾^(١).

ولكن يبدو أنه لا يزال هناك فاصل ضخم بين أمتنا وبين القرآن المجيد، وأن القراءة التي نجدها عند البعض للإسلام هي القراءة الخاطئة التي توارثها المسلمون من حكامهم الظلمة؛ من بني أمية وبني العباس والحكومة العثمانية الطاغية.. وليست القراءة الصافية التي تعتمد العقل، وتلاحظ متغيرات الواقع وتصفى التاريخ من العصبية الجاهلية، التي ظهرت بعد رحيل النبي الأكرم محمد ﷺ، وسببت الحروب الداخلية الدامية التي شنها بنو أمية أعداء الإسلام؛ قبل الفتح وبعده.

إننا نأمل أن نساهم في إعادة الأمة إلى رشدنا من خلال تأملاتنا في آيات الله الكريمة، وتذكير الأمة بضرورة اختراق الحجب التاريخية، والتواصل مباشرة مع القرآن المجيد، واعتماد العقل والواقع في فهم بصائر الوحي؛ أما العقل فلأنه وعاء الوحي، وأما الواقع فلأنه مهد تطبيق الوحي.

ونسأل الله العليّ القدير أن يَمُنَّ علينا بقول الحق، ويَمُنَّ على القارئ الكريم بوعيه، ويُنزل علينا بفضلَه نفحات رحمته التي وعدنا عباده الصالحين.

محمد تقي المدرسي

٥ رمضان المبارك ١٤٣٤ هـ

(١) سورة الحج، آية ٤١.

بَيِّنَاتٌ مِّنْ فَقْهِ الْقُرْآنِ

سُورَةُ الدَّهْلِ





وإنا لموسعون

قبل الشروع في التدبر في أية سورة لا بد من معرفة الهدف منها، وهذه هي المنهجية الصحيحة في التعامل مع القرآن الكريم. فلكل آية غاية، ولكل سورة هدف، كما أن لكل منظومة من السور هدفاً معيناً وغاية مشتركة؛ مثل سورة ق، الطور، الذاريات، النجم.. حيث نستوحي منها هدفاً مشتركاً.

والسؤال الهام الذي يُطرح: ما هي أهمية البحث عن الهدف؟
أو بتعبير آخر: المحور العام في هذه السورة أو تلك؟

في الإجابة نقول: إنَّ الإنسان لو عرف الهدف من كل شيء يسهل عليه التعامل معه. فلو عرف مثلاً هدف وجوده في الحياة فإنه سيسهل عليه الوصول إليه عبر الطرق الموصلة. أما إذا لم يعرف الهدف فإنه سيضل كلما سار ويزداد بُعداً عن الهدف. وكذلك فإن معرفة الهدف من كلام المتكلم تُسهِّل على الإنسان فهم كلامه.

فما هو الهدف والمحور في سورة الذاريات؟

من خلال قراءة عابرة لهذه السورة المباركة نكتشف أن الهدف

الأساس فيها قد بينه الله تعالى في خواتيم السورة، حين يقول تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَيْنَهُمَا بِأَيِّدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾^(١)، حيث نستوحي منه عدم الانتهاء من الخلقة، بل الخلق المستمر والعطاء الإلهي لم يتوقف. ويظهر الهدف من السورة بصورة أجلي في الآيات التالية:

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾^(٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾^(٥٧).

فالرب خلق الناس للعبادة، ولكن دون احتياج منه لعبادتهم؛ فلا يريد الله تعالى منهم رزقاً، ولا يريد أن يطعموه، بل هو الرزاق لهم، وهو ذو القوة المتين.

إذاً لماذا خلقهم وهو في غنى عنهم؟.

إنه تعالى لم يخلقهم ليربح عليهم، بل خلقهم ليربحوا عليه. وقد نُسب إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام أنه قال: «يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: يَا ابْنَ آدَمَ، لَمْ أَخْلُقْكَ لَأَرْبَحَ عَلَيْكَ، إِنَّمَا خَلَقْتُكَ لِتَرْبَحَ عَلَيَّ، فَاتَّخِذْنِي بَدَلًا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، فَإِنِّي نَاصِرٌ لَكَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ»^(٣).

وهو الذي خلقهم ليرحمهم، وهو الذي خلقهم ليعطيهم، فلا يحتاج الله إلى عبادة الناس أبداً، بل جعلها مقدمة لمزيد من عطائه وورقه الذي لا ينتهي، وليكون العبد في مقام رفيع ﴿فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُقْنَدٍ﴾^(٤).

ومن هنا يكون لزماً على الإنسان العاقل أن يهيئ نفسه لهذا

(١) سورة الذاريات، آية ٤٧.

(٢) سورة الذاريات، آية ٥٦-٥٨.

(٣) شرح نهج البلاغة، ج ٢٠، ص ٣١٩.

(٤) سورة القمر، آية ٥٥.

المقام الرفيع. فقد ورد في الحديث القدسي: «يَا ابْنَ آدَمَ، أَنَا غَنِيٌّ لَا أَفْتَقِرُ، أَطْعِمْنِي فِيمَا أَمَرْتُكَ أَجْعَلَكَ غَنِيًّا لَا تَفْتَقِرُ. يَا ابْنَ آدَمَ، أَنَا حَيٌّ لَا أَمُوتُ، أَطْعِمْنِي فِيمَا أَمَرْتُكَ أَجْعَلَكَ حَيًّا لَا تَمُوتُ. يَا ابْنَ آدَمَ، أَنَا أَقُولُ لِلشَّيْءِ كُنْ فَيَكُونُ، أَطْعِمْنِي فِيمَا أَمَرْتُكَ أَجْعَلَكَ تَقُولُ لِشَيْءٍ كُنْ فَيَكُونُ»^(١).

وإذا ما تأمل الإنسان لحظة في هذه المقامات الرفيعة التي يعد الله بها عباده العابدين المطيعين لأمره والمنتهمين عن زجره، فإنه سيحترق كل لذة محرمة تمنعه الوصول إلى هذه المقامات العالية.

يبدو أن هذا هو المحور الأساس لهذه السورة المباركة، ولكن الوصول إليه يحتاج إلى مقدمات ومراحل، أولها ما ابتدأ الله عز وجل به هذه السورة حيث قال: ﴿وَالذَّرِيَّتِ ذُرُوءًا^(١)﴾ فَالْحَمِلَتِ وَقَرَأَ^(٢)﴾ فَالْجَرِيَّتِ يُسْرًا^(٣)﴾ فَالْمَقْسِمَتِ أَمْرًا^(٤)﴾، مما نتدبر فيها لاحقاً بإذن الله تعالى.

بصائر وأحكام

لكي نستفيد من كلمات الذكر الحكيم، علينا أن نتبصر ما فيه من غايات لكل آية وفي كل سورة أو منظومة من السور.

ويبدو أن أبرز غايات سورة الذاريات معرفة الهدف من الخلق الذي يتحقق بالعبادة (والتقرب إلى الله)، ألا وهو اكتساب المزيد من نعمه.

(١) بحار الأنوار، ج ٩٠، ص ٣٧٦.



لماذا القسم؟

لماذا نجد العديد من السور القرآنية تبدأ بالقسم؟ فتارة يكون القسم بالشمس، وأخرى بالقمر، وكذلك بالنهار والليل، والسماء والأرض.. كما قال الله سبحانه: ﴿وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا ۝ (١) وَالْقَمَرُ إِذَا تَلَّهَا ۝ (٢) وَالنَّهَارُ إِذَا جَلَّهَا ۝ (٣) وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَاهَا ۝ (٤) وَالسَّمَاءَ وَمَا بَنَاهَا ۝ (٥) وَالْأَرْضَ وَمَا طَحَّهَا ۝ (٦)﴾^(١)، وتارة يكون القسم بالدين والكعبة والنبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿لَا أَقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ۝ (١) وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ ۝ (٢)﴾^(٢)، وما شابه ذلك من الآيات المباركة؟

حينما يُقسم الإنسان بشيء فذلك يعني -فيما يعنيه- بأن هذا الإنسان يؤمن بقيم ومقدسات، فيقسم بها. وهذه القيم قد تختلف باختلاف الناس، فمنهم من يؤمن بالوطن قيمة، وآخر يؤمن بالأب، وثالث بالدين.. ولكن الجميع يشترك في أصل واحد هو الإيمان بالقيم وتقديسها.

والقسم يكون -عادة- لإثبات شيء يريد فعله أو ينوي الإنسان

(١) سورة الشمس، آية ١-٦.

(٢) سورة البلد، آية ١-٢.

المقسم تركه، وهو يعني أنه يقول: لو كنت كاذباً في كلامي فإن ذلك يعني عدم الالتزام بالمقدسات. ومن هنا نجد القسم يوجد في كل الديانات والقوانين في البلاد كافة، وكل حسب معتقده وقيمه.

كل هذا في إطار المخلوق، حيث يُريد إثبات حقيقةً بالقسم. ولكن لماذا يُقسم الباري عز وجل وهو فوق القيم؟

للإجابة نقول:

أولاً: القرآن هو كلام الله عز وجل، وله مرتبة سامية، ولا يستطيع البشر فهم تلك المرتبة لولا أن الباري عز وجل برحمته أنزله بلساننا، ويسره لنا. وهذا ما نصّت عليه بعض الروايات، وهو معنى كلمة «التنزيل» و«أنزله» و«نزّله». فلا معنى هنا للنزول المادي، حيث لا معنى للرفعة والدنو في كل أمر يتصل بالخالق المحيط بكل شيء والذي لا يخلو منه مكان. فقوله عز وجل: ﴿نَزَّلَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾^(١) يعني إننا نزلناه مرتبة ليكون بمستوى عقول البشر. ويشير إلى هذا المعنى قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لَّدَا﴾^(٢)، كذلك يسّره الرب ليفهمه الناس.

وهكذا ورد عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «لَوْ لَا تَيْسِيرُهُ لَمَّا قَدَرَ أَحَدٌ مِنْ خَلْقِهِ أَنْ يَتَلَفَّظَ بِحَرْفٍ مِنَ الْقُرْآنِ، وَأَتَى لَهُمْ ذَلِكَ وَهُوَ كَلَامٌ مَنْ لَمْ يَزَلْ وَلَا يَزَالُ»^(٣). ولكنه -بجعل من الله- ﴿لِسَانٌ عَكِيفٌ مُبِينٌ﴾^(٤). وكلمة «العربي» هي بمعنى التوضيح، فيقال: أعرب عن

(١) سورة يس، آية ٥.

(٢) سورة مريم، آية ٩٧.

(٣) تفسير روح البيان، ج ٨، ص ٤٣٣.

(٤) سورة النحل، آية ١٠٣.

قصده؛ أي بيّنه ووضّحه وبيّن ما خفي منه. وفي هذه الآية تأكيد أن القرآن «عربي» و«مبين».

ولما كان القَسَم أحد مبتنيات البشر والمتعارف عندهم للتأكيد، فالباري عزّ وجل جاء به في القرآن لتبينه لنا. فليس الباري بحاجة إلى إثبات قوله تعالى بالقسم، وإنما نحن الذين نحتاج إلى القسم لكي نفهم عظمة الأمر.

ثانياً: يكون القسم - في بعض الحالات - لإعطاء قيمة لشيء لا قيمة له. فحين أقسم بأني سأسافر غداً - على سبيل المثال - فليس السفر ذا قيمة، ولكنني بقسمي أجعل له قيمة. هذا فيما يتعارف عند الناس. أما في قول الباري تعالى فإن الأمر مختلف، فإن الله تعالى حينما يُقسم بشيء فإنه يُبيّن أنّ ما يُقسم به ذو قيمة حقاً. فحينما يقسم بالسماء نعرف أن السماء ذات قيمة لذكر الباري إياها بقسمه، ونعرف بعد التدبر أن لها شأنًا رفيعاً. وكذلك الأرض وما فيها من حقائق، إذ إننا نتساءل: لماذا أقسم الباري عزّ وجل بهذه الأمور دون غيرها؟

قد نجد إشارة إلى هذا الأمر في آيات مباركة، كما في قوله تعالى: ﴿فَلَا أَقْسِمُ بِمَوْقِعِ النُّجُومِ ۖ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لِّتَوْعَّلُمُونَ عَظِيمٌ﴾^(١)، أو قوله عزّ وجل: ﴿لَا أَقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ۖ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾^(٢).

ثالثاً: حينما يُقسم الإنسان بشيء، فإنه يُوجد رابطة اعتبارية بين حقيقتين لا علاقة بينهما في الظاهر؛ فمثلاً حين يُقسم المرء بروح والده بأنه سيسافر، فإنه بصدد إنشاء علاقة اعتبارية بين السفر واحترامه لشأن والده. ولكن الأمر في قَسَم القرآن الكريم مختلف، فحينما يُقسم

(١) سورة الواقعة، آية ٧٥-٧٦.

(٢) سورة البلد، آية ١-٢.

الباري تعالى بشيء فإننا نعرف من ذلك أن هناك صلة حقيقية بينهما؛ أي بين المُقسَم به والمُقَسَم عليه.

وبعد هذه المقدمات الثلاث، نفتح بها سورة الذاريات، حيث تبدأ هذه السورة بالقَسَم بالذاريات، وبالحاملات، والجاريات، والمقسمات. ومؤدَّى كل ذلك القسم قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ۝٥﴾ ^(١). فينبغي أن نفهم العلاقة الواقعية بين القسم ومؤداه.

بصائر وأحكام

حقيقة القَسَم عند البشر إنشاء صلة بين أمر ذات قيمة عنده وبين ما يريد التأكيد عليه، بينما عند الرب بيان لتلك الصلة وإظهار لمدى أهمية ما يقسم به. وبما أن القسم من ركائز اللغة المتعارف بين الناس، فإننا نراه في القرآن الكريم، لأنه كتاب قد يُسرُّ لنا نحن البشر.

(١) سورة الذاريات، آية ٥-٦



الوعد الصادق

﴿وَالَّذِينَ ذَرَوْا ﴿١﴾ فَأَلْحَمْتُ وَقَرَأَ ﴿٢﴾ فَالْجَرِيَتْ يُسْرًا
﴿٣﴾ فَأَلْمَقْسَمَتْ أَمْرًا ﴿٤﴾ إِنَّمَا تُوْعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾﴾.

تفصيل القول

١ - ﴿وَالَّذِينَ ذَرَوْا﴾

قد نجد في القرآن الكريم كلمة واحدة هي بحاجة إلى كتاب لدراستها، وهذا من بلاغة القرآن؛ ومنها كلمة (الذاريات). فإن أصل كلمة (الذاريات) من (ذراه ذرواً)؛ بمعنى أنه قسّمه أو قطّعه إلى أجزاء كثيرة، ثم وزّعه ونثره. وإنما استُخدم الجمع هنا (الذاريات) لبيان أنها ليست واحدة، بل أكثر من نوع، لأن كلمة (الذارية) كانت تفيد الجمع أيضاً إن كانت من نوع واحد، ولا حاجة لصيغة الجمع عندها.

في تفسير هذه الآية رُوي أن ابن الكوا سأل أمير المؤمنين عليه السلام

وهو يخطب على المنبر، فقال: «ما الذاريات ذروا؟ قَالَ: الرِّيحُ. قال: ﴿فَالْحَمَلَتِ وَفَرَ﴾؟ قَالَ: السَّحَابُ. قال: ﴿فَالْجَرِيدَتِ يُسْرًا﴾؟ قَالَ: السُّفُنُ. قال: ﴿فَالْمُقَسَّسَتِ أَمْرًا﴾؟ قَالَ: المَلَأَيْكَةُ»^(١).

ولكن الإمام عليه السلام كان يُحدِّث كلاً على قدر عقله. فقد بين الإمام عليه السلام مصداقاً من مصاديق هذه الآية، وهو ما سنتحدث عنه. وهناك مصاديق أخرى يجب التعمُّق بها، قد نُوفِّق للبحث فيها فيما بعد، إن شاء الله تعالى.

فحينما تُشرق الشمس على منطقة يتمدّد هواؤها بفعل الحرارة، وعبر حركة الأرض حول الشمس، تحدث حالات التمدّد والانقباض في الهواء مما يسبب حركة الرياح. هذا في إطار الكرة الأرضية. ولكن هنالك رياح أخرى هي نتاج حركة الكرة الأرضية، ولأن الحركة سريعة فهي تولّد الرياح العاتية. وحسب ما أفهمه من بعض الروايات والآيات المباركة أن قوم عاد الذين أخذتهم الرياح قد أصيبوا بواحدة من هذه الرياح العظيمة، وسنفضّل الحديث عن ذلك عندما نصل إلى الآيات المتعلقة بالموضوع إن شاء الله تعالى.

والرياح طاقة كبيرة، ونلاحظ اليوم -بل على مر التاريخ- كيف كان الإنسان يستفيد من هذه الطاقة في إبحار السفن وإنتاج الطاقة وغيرهما.

وهكذا ينبغي أن نتأمل في هذه الظاهرة التي تذرّو الغلال، كما تحمل السحب وتنقل إلينا الكثير مما نحتاجه. وهذه الذاريات هي واحدة من القوى الإلهية المحيطة بنا.

(١) تفسير مجمع البيان، ج ٩، ص ٢٥٣.

وهكذا تشير الآية المباركة إلى أن هذه الرياح قوية جداً، بحيث لا شيء يستطيع أن يقف أمامها، فهي تطحن وتنتشر كل شيء.

٢- ﴿فَالْحَيَلَاتِ وَفَرًّا﴾

وكما فسر الإمام أمير المؤمنين عليه السلام فإن الحاملات هي السحب. والوقر بمعنى الشيء الثقيل، وهو الماء الذي تحمله هذه السحب، فهي تحمل ملايين الأطنان من المياه إلى مسافات بعيدة.

٣- ﴿فَالْجُرَيْتِ يُسْرًا﴾

ويستمر القسم الإلهي بالغيوم، وكيف أنها تجري بيسر ومن دون أي صوت أو ضوضاء. ترى هل جلست في يوم تنظر إلى الغيوم؟ تحسبها واقفة ولكنها تمر سريعاً، فإذا بها تنتقل ولكنك لا تشعر بها.

٤- ﴿فَالْمَقْسَمَتِ أَمْرًا﴾

بعد أن يقسم الباري بهذه الأمور الثلاثة يقول تعالى: ﴿فَالْمَقْسَمَتِ أَمْرًا﴾. فكل هذه هي مأمورة؛ فالقطرات لا تنزل إلا بأمر إلهي، وقد روي عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام أنه قال: «فَلَيْسَ مِنْ قَطْرَةٍ تَقْطُرُ إِلَّا وَمَعَهَا مَلَكٌ حَتَّى يَضَعَهَا مَوْضِعَهَا»^(١).

و(الأمر) لغة بمعنى الشيء المهم.

مؤدى القسم

٥- ﴿إِنَّمَا تَوَعَّدُونَ لصَادِقٌ﴾

فالقسم الإلهي بهذا النظام المحكم الذي لا يتعلّق به كل وجود

(١) الكافي، الشيخ الكليني، ج ٨، ص ٢٣٩.

الناس، ماذا يريد الباري أن يؤكده به؟

يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ﴾. فكل ما جاء به الأنبياء حق، فنحن الذين أرسلنا هذه الذاريات، والجاريات، والحاملات، ونحن الذين قسمناها لكم، ونحن قادرون على أن نسلبها منكم، كما قد فعلنا ذلك في أمم سبقت. فاحذروا أيها الناس، فلتعلموا أنه الحق.

وكلمة ﴿تُوعَدُونَ﴾ لغة تُشير إلى جانب العذاب والعقاب؛ أي الجانب السلبي. وبعكسها كلمة (وعدكم). فالوعد يكون تبشيراً، والوعيد يكون إنذاراً.

ولكن لماذا ذكر الإنذار هنا؟.

لأن مشكلة البشر أنه يخادع نفسه حين يستمع إلى آيات العذاب والعقاب فيقول في نفسه: الله أرحم الراحمين، هل يعذبني؟ فيأتي الجواب الإلهي واضحاً في سياق الآيات المباركة، ويأتي بالمثل بعد الآخر لكيلا يخادع الإنسان نفسه، فيقول تعالى: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ﴾.

يبقى أن لهذه الآيات عمقاً، فيجب البحث فيها أكثر إن وفّقنا الله تعالى إلى ذلك.

بصائر وأحكام

ما في الآفاق من آيات كالرياح التي تذرّو، والسحب التي تحمل المياه، وكما السفن التي تجري في أعالي البحار، هي جميعاً تُقدّر للبشر رزقه حسب حكمة بالغة. وعلينا أن نعرف أن وعد الله ووعيده حق.



والذاريات ذرواً

﴿وَالذَّارِيَاتِ ذُرَّوۡا۟ ۝۱ فَالْحَمَلَاتِ وُقَرَّا ۝۲ فَالْجَارِيَتِ يُسَّرَّا ۝۳
فَالْمَقْسِمَتِ أَمَرًا ۝۴ إِنَّمَا تُوْعَدُونَ لَصَادِقٌ ۝۵ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَفِّعُ ۝۶﴾.

تفصيل القول

الارتباط بين المخلوقات

يعتمد الإنسان في معرفته للأشياء على معرفة العلاقة بين العلة والمعلول، وهذه الطريقة هي الطريقة المعتادة في جميع العلوم، الطبيعية منها والاجتماعية. فإذا كان الإنسان جاهلاً بالارتباط بين العلة ومعلولها يكون جاهلاً بالحقائق؛ فلو رأى إنسانٌ بدائي - لم يطلع على الكهرباء في حياته - مصباحاً مضيئاً لظنَّ أن الضوء من ذات المصباح، دون معرفة منه بأنه يعتمد على التيار الذي يجري في الأسلاك. ولكن هذا التيار بدوره لم يأت من فراغ، بل من المحطة الكهربائية، وكذلك المحطة لم تأت من فراغ، وهكذا وصولاً إلى التوربينات الهوائية أو المائية أو التي تعمل بالغاز أو النفط أو حتى بالطاقة النووية. والماء والهواء متكونان

من الذرات. وتتوقف معرفة الإنسان عند الذرة، حيث نجد الإنسان يصل بالتالي إلى طريق مغلق عند بحثه عن سلسلة العلل والمعلولات.

فحتى لو بحث في ذات الذرة من بروتون وإلكترونات متحركة حول النواة، فإنه سيصل إلى طريق مسدود حين لا يعرف المحرك الأساس للإلكترونات. والسبب في هذا التوقف هو أن الإنسان يحاول معرفة الأشياء مفصولة بعضها عن بعض، دون معرفة العلاقة بين بعضها بعضاً. فالشمس تُبحث كجرم سماوي يبعث بالحرارة والضوء إلى الكرات المحيطة به، ويمثل محور المنظومة الشمسية، ولكن ما هي علاقة الشمس بالقمر؟ وما هي علاقتها بسائر المخلوقات؟ وما هي علاقتها بالإنسان؟ فهذا الأمر مغفول عنه عند الإنسان.

بينما المعارف الإلهية، وتعريفات القرآن للخليقة تختلف عما هي عليه عند البشر، فلو أخذنا الشمس - في المثال السابق - لوجدنا حديث القرآن عنها يكون بالنحو التالي: ﴿وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا ۝١ وَالْقَمَرُ إِذَا تَلَّهَا ۝٢ وَالنَّهَارُ إِذَا جَلَّهَا ۝٣ وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَاهَا ۝٤ وَالسَّمَاءُ وَمَا بَنَاهَا ۝٥ وَالْأَرْضُ وَمَا طَحَاهَا ۝٦ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ۝٩﴾.

إنك تجد بوضوح كيف أن الحديث يبدأ من الشمس، ويستمر وصولاً إلى نفس الإنسان وفجورها وتقواها، فهي متصلة بعضها ببعض اتصال الحلقات في السلسلة الواحدة.

وهكذا في سورة الذاريات فإن تلك الرياح التي تذر الأشياء وتنشرها ليست منفصلة عن سائر المخلوقات الإلهية؛ فهي المأمورة من قبل الرب عز وجل، وهي التي تنقل السحب من مكان إلى آخر، وهي التي تنشر البذور وتُلْقِ النباتات...و.. كل ذلك ضمن دورة حياتية محاطة بتقدير وتدبير حكيم.

(١) سورة الشمس، آية ١٩.

الذاريات بين الغيب والشهود

فما هي إذاً حقيقة الذاريات التي يُقسم بها الرب تعالى؟.

قبل الإجابة عن هذا السؤال، لا بد من بيان أن لكل ظاهرة في العالم غيباً وشهوداً، وقد يُسمّى غيبها بالملائكة. فإن لكل شيء في هذا العالم ملائكة وُكّلوا به؛ فالشمس تسير بملائكة موكّلين بها، وهي تجري لمستقر لها. كذلك للقمر ملائكة موكّلون به، وللإنسان ملكان موكّلان به يشهدان عليه، وكذلك ملائكة يحفظونه من أمر الله.. وكل قطرة تنزل من السماء قد وُكّل الله بها ملكين يُنزّلانها إلى مستقرها.

وهذه الحقيقة نقرأها في أحاديث شريفة وردت عن النبي ﷺ وأهل بيته ، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر ما روي عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ، إذ قال: «إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ عَبْدٍ إِلَّا وَلَهُ مِنَ اللَّهِ حَافِظٌ وَوَاقِيَةٌ، مَعَهُ مَلَكَانِ يَحْفَظَانِهِ مِنْ أَنْ يَسْقُطَ مِنْ رَأْسِ جَبَلٍ أَوْ يَقَعَ فِي بئرٍ، فَإِذَا نَزَلَ الْقَضَاءُ خَلِيَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ كُلِّ شَيْءٍ»^(١). وروي عن أمير المؤمنين : «فَلَيْسَ مِنْ قَطْرَةٍ تَقْطُرُ إِلَّا وَمَعَهَا مَلَكٌ حَتَّى يَضَعَهَا مَوْضِعَهَا»^(٢).

كما روي عن الإمام محمد الباقر  في حديث: «إِنَّ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ جُنُوداً مِنْ رِيَّاحٍ، يُعَذِّبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عَصَاهُ، وَلِكُلِّ رِيحٍ مِنْهَا مَلَكٌ مُوَكَّلٌ بِهَا»^(٣).

ولعل ذلك هو المراد مما جاء في الدعاء: «أَعْضَادٌ وَأَشْهَادٌ وَمُنَادٍ وَأَدْوَادٌ وَحَفَظَةٌ وَرَوَادٌ فِيهِمْ مَلَائِكَةُ سَمَاءِكَ وَأَرْضِكَ حَتَّى ظَهَرَ أَنَّ لَا إِلَهَ

(١) الكافي، ج ٢، ص ٥٩.

(٢) الكافي، ج ٨، ص ٢٣٩.

(٣) الكافي، ج ٨، ص ٩١.

إِلَّا أَنْتَ»^(١).

وكل ملك موكل بشيء معين، وربما وُكِّل الملك بجانب هامّ ووُكِّل معه مجموعة كبيرة من الملائكة يأتمرون بأمره، كما نجد أن ميكائيل مثلاً هو ملك الرحمة، وعزرائيل ملك الموت بيده أرواح الخلائق، وجبرئيل هو ملك الوحي، وإسرافيل هو الملك الموكل بالصور المنتظر لأمر الجبار لإعلان يوم القيامة.. هذا الجانب من الحقائق خفي علينا، وهو غيب الظواهر التي نشاهدها. وهكذا يبدو أن الذاريات التي يُقسَم بها الله عز وجل هي الملائكة الموكلون بالرياح، وهكذا الحاملات هم الملائكة الموكلون بالسحاب، وكذلك الجاريات هم الملائكة الذين يحفظون ما يجري في البحار.

الأمر الإلهي

في العالم منهجان فكريان: الأول يتمثل في منهج الإيمان بالله تعالى، والثاني في منهج الكفر به.

ونحن المؤمنون نعتقد بأن الله قد خلق الخلق في أحسن صورة، وأحسن نظام، وأقوم السُنن، ولم يتركهم بعد الخلق، بل كان تدبيرهم بيده، ولم تكن الأنظمة والسُنن الإلهية جامدة لا تتغير، بل إن الله الذي جعلها هو الذي يُغيّر فيها متى ما شاء وكيفما شاء.

وهكذا نعتقد أن الله سبحانه على العرش استوى، يُدبّر الأمر يوماً بيوم، ساعة بساعة، ولحظة بلحظة.

أما منهج الكفار، فإنهم يعترفون بالخالق عادة دون أن يعرفوا أسماءه. فهم لا يؤمنون بأية حال بالرب المدبّر للأمور في كل آن. وهنا

(١) مصباح التهجد، ص ٨٠٣.

تجدد الإشارة إلى أن مراتب كفرهم بهذا الأمر مختلفة، في حين أن الأنبياء والمرسلين صدعوا ببيان أن كل شيء بيد الله عز وجل: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَىٰ أَيْلُ النَّهَارِ يَطْلُبُهُ حَيْثُ شَاءَ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۝﴾^(١).

ويمكننا من خلال هذه السورة المباركة أن نعرف ربوبية الله عز وجل وما فيها من أبعاد مختلفة؛ منها اتساع نطاق الخلق. ألم يقل الرب تعالى في أواخر هذه السورة: ﴿وَالسَّمَاءَ بَيْنَهُمَا بِإَيِّدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ۝﴾^(٢)؟

ومنها أن الربوبية الإلهية على هذا العالم دائمة في كل آن من آتاتها، وليست كما قال اليهود بأن الله خلق الخلق ثم ذهب ليستريح ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يُدْعَى اللَّهُ مَغْلُولَةً ۝﴾^(٣)، بل ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ۝﴾^(٤).

وإذا ما تأملنا الأدلة التي سنوردها فيما يلي، سنكتشف عمق خطأ اليهود وكل الذين فصلوا ربوبية الله عن الخلق وقالوا بأن قلم التقدير قد جف، فلا شيء يتغير في عالم التقدير والتدبير. فما هي تلك الأدلة؟

العقل يحكم

أما الأدلة العقلية:

أولاً: دعنا نتساءل: ماذا يعني الخلق؟ وهل يعني أن المعدوم ذاتاً يصبح بالخلق موجوداً بالذات؟.

وهل الذاتي يتغير؟ فهل الظلام ذاته يكون نوراً، أو أن هناك

(١) سورة الأعراف، آية ٥٤.

(٢) سورة الذاريات، آية ٤٧.

(٣) سورة المائدة، آية ٦٤.

(٤) سورة الرحمن، آية ٢٩.

نوراً يطرأ على موقعه من الخارج ويُنير الغرفة - مثلاً -؟ وإن ذهب النور منها عاد الظلام، أليس كذلك؟.

وهكذا المخلوقات هي عدمية الأصل، ولا يعني خلقها أن هناك تغيراً ذاتياً حصل فيها، لأن الذات لا يمكن حدوث التغير فيها. إذاً ماذا يعني الخلق؟.

إنما يعني إفاضة نور التحقق عليه من الرب سبحانه في كل لحظة وفي كل آن، ليكون قائماً بالله عز وجل. فوجودها متقوم بإفاضة الرب عز وجل لنور التحقق عليه في كل آن.

ثانياً: أما عن خالقية الخالق تعالى، أَوَلَيْست من أسماؤه الحسنى (وبتعبيرنا أنها من ذاته)، فهل من المعقول أن تتغير أو تقل؟.

كلاً؛ إن قدرته مطلقة. وهكذا فهي لا تنتهي. وما دامت الخالقية من عنده والقدرة مطلقة لديه، فبأي دليل يُقال بنفاذ هذه القدرة وتوقف تلك الهيمنة؟.

كلاً؛ إن الذي خلق السماوات والأرض، أليس بقادر على أن يُهيمن عليها، أو يخلق غيرها، أو حتى يُنهي هذه التي خلقها؟.

بلى؛ إنه على كل شيء قدير. وربنا سبحانه يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمَسِّكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾^(١).

ثالثاً: وإن الإنسان ليجد - في قرارة نفسه - مع أدنى تأمل بأنه يجأر إلى الله عز وجل بالدعاء حين يكون في مشكلة صعبة، وحتى الكافر بالله عز وجل يكون مؤمناً به، عندما تلم به الصعاب. ولولا

(١) سورة فاطر، آية ٤١.

علم الإنسان بأن الله مهيمن على الخلق، وأنه نافذة فيه قدرته ومشيتته، لم يكن ليجار إليه. يقول الله تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾^(١).

لماذا غلت أيدي اليهود؟

ومن هنا نعرف أن اليهود حين قالوا بأن يد الله مغلولة قد سدّوا على أنفسهم باب الدعاء، وهو طريق الاتصال بين الإنسان وربّه، وحين تركوا الدعاء بقوا في مهانة وذل أكثر من أربعة آلاف سنة.

ولكن الإنسان المؤمن يدعوره في كل لحظة، لأنه يعرف أن الرب هو المهيمن على الخليقة، وهو القادر على إنقاذه مما هو فيه. فلنستمع إلى الحديث التالي:

قال رجل لجعفر بن محمد عليه السلام: مَا الدَّلِيلُ عَلَى اللَّهِ، وَلَا تَذَكُّرِي الْعَالَمَ وَالْعَرَضَ وَالْجَوْهَرَ؟

فَقَالَ لَهُ: هَلْ رَكَبْتَ الْبَحْرَ؟ قَالَ: نَعَمْ.

قَالَ: هَلْ عَصَفْتَ بِكُمْ الرِّيحُ حَتَّى خِفْتُمُ الْعَرَقَ؟ قَالَ: نَعَمْ.

قَالَ: فَهَلْ انْقَطَعَ رَجَاؤُكَ مِنَ الْمَرْكَبِ وَالْمَلَّاحِينَ؟ قَالَ: نَعَمْ.

قَالَ: فَهَلْ تَتَبَعْتَ نَفْسَكَ مَنْ يُنْجِيكَ؟ قَالَ: نَعَمْ.

قَالَ: فَإِنَّ ذَلِكَ هُوَ اللَّهُ^(٢).

(١) سورة العنكبوت، آية ٦٥.

(٢) شرح إحقاق الحق، السيد المرعشي النجفي، ج ٢٨، ص ٣٧١، عن كتاب دلائل التوحيد، جمال الدين محمد بن سعيد القاسمي، ص ١٣٧.

بصائر وأحكام

١- وراء القوى الظاهرة التي تُحيط بنا قوى غيبية تتمثل في الملائكة الموكلين من عند الله بنا.

٢- للبشر منهجان؛ مؤمن وكافر. فبينما يرى المؤمن أن ربنا سبحانه حين خلق الأشياء استوى على عرش تدبيرها، يزعم الكافرون أنه قد فرغ من الأمر ولا يملك فيما خلق تأثيراً.

٣- والكافر لم يعرف حقيقة الخلق، وأن ربنا يفيض على المخلوق من رحمته كل لحظة، وأن خالقيته لا تحد، وقدرته واسعة؛ فهو قادر على الخلق دائماً، وهو مهيمن على ما خلق، فله أمره وهو ممسك به لكيلا يزول. ودعاء الإنسان في الملهمات دليل وجداني على أن فطرته تناديه بأن الله هو المهيمن عليه وعلى الخلق أجمعين.



إنكم لفي قول مختلف

﴿وَالسَّمَاءَ ذَاتِ الْحُبُكِ﴾ (٧) إِنْكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ يُؤَفِّكُ عَنْهُ
مَنْ أُولَئِكَ ﴿٩﴾ .

تفصيل القول

قبل أن نبدأ الحديث عن هذه الآيات لا بد من وصية، وهي أن على المؤمن أن يسعى جاهداً في تقليل المسافة بينه وبين خالقه وكلام خالقه؛ بينه وبين نبيه ﷺ وأحاديثه؛ بينه وبين الأئمة الأطهار عليهم السلام وكلماتهم. ويكون سعيه هذا حثيثاً ويومياً ليقرب إلى الهدى وإلى الرشاد أكثر فأكثر.

ومن هنا فإن مطالعته للكتب، واستماعه للمحاضرات والخطب، تكون بمثابة مُذَكِّرات وتنبهات وليس أكثر، إنها الأساس هو نور عقله الذي وهبه الله إياه ليستفيد منه في اكتساب الجنان بإذن الله المنان.

ذات الحبك

١ - ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ﴾

بعد الحديث عن الرياح، والسحب، والسفن، والملائكة، والقسم بها على أن الدين لصادق، وأن ما يوعد الناس لواقع، يأتي قَسَمٌ آخر وبصيغة أخرى في قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ﴾، فماذا تعني كلمة الحبك؟.

للحُبُك معانٍ مختلفة بينها المفسرون في طيات كتبهم، فمنهم من ذكر أنها بمعنى الجمال الجميلة، ومنهم من قال بأن معناها البناء الجميل، ومنهم من قال بأنها البناء المستحكم، وكذلك قيل بأن معنى الحُبُك هو الطرق التي تكون في السماء والمياه...

ولكن يبدو لي أن المعنى الأقرب في المقام، والذي يكون متناسباً مع قَسَمِ القرآن الكريم به هو (الدرع الذي أجيد نسجه). والسماء محيطة بالأرض وتحميها من الأخطار والآفات؛ فالسماء بالرغم من أنها درع منيعة تحافظ على الأرض من الأخطار، فهي أيضاً في الوقت نفسه جميلة تريح الناظر إليها، خصوصاً إذا جَنَّ الليل وامتألت السماء بالنجوم.

القول المختلف

٢ - ﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُتَخَلَفٍ﴾

قبل الحديث عن هذه الآية، لا بد من معرفة أمر مهم، وهو أن الله يُقسم بسماء ذات حُبُك، وجواب القَسَم هو أن الناس في قول

مختلف، فما العلاقة بين المقسّم به والمقسّم لأجله، بحيث يكون الأول دليلاً على الثاني (كما مر ذكره في الآيات الماضية من ضرورة الصلة بينهما)؟.

حقائق شتى

الأولى: كما أن الدرع يتكوّن من حلقات كثيرة تنسج بعضها ببعض، فإن السماء أيضاً تتكون من كثير من الكواكب والنجوم.
الثانية: إن للنجوم وأشعتها تأثيراً مباشراً على الأرض، وما فيها من نبات وأحياء وأحجار ومعادن.

الثالثة: للنجوم تأثير في حياة الإنسان، وفي بعض الجهات في شخصية الإنسان. وهذا العلم الذي يتداول بين الناس اليوم بما يسمى علم النجوم، قد دخلت فيه الكثير من الخرافات، إلا أن جذوره صحيحة. فقد روي عن سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ قَالَ: «اسْتَقْبَلَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ دِهْقَانٌ مِنْ دَهَاقِينَ الْفُرسِ، فَقَالَ لَهُ بَعْدَ التَّهْنِئَةِ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، تَنَاحَسَتِ النُّجُومُ الطَّالِعَاتُ، وَتَنَاحَسَتِ السُّعُودُ بِالنُّحُوسِ، وَإِذَا كَانَ مِثْلُ هَذَا الْيَوْمِ وَجَبَ عَلَى الْحَكِيمِ الْإِخْتِفَاءُ، وَيَوْمَكَ هَذَا صَعْبٌ قَدْ اتَّصَلَتْ فِيهِ كَوَكَبَانِ وَأَنْقَدَحَ مِنْ بُرْجِكَ النَّيرَانُ، وَلَيْسَ لَكَ الْحَرْبُ بِمَكَانٍ. فَقَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: وَمِنْكَ يَا دِهْقَانُ، الْمُنْبِيُّ بِالْأَنَارِ وَالْمُحَذَّرُ مِنَ الْأَقْدَارِ؟ مَا قِصَّةُ صَاحِبِ الْمِيزَانِ؟ وَقِصَّةُ صَاحِبِ السَّرَطَانِ؟ وَكَمْ الْمُطَالِئُ مِنَ الْأَسَدِ؟ وَالسَّاعَاتُ فِي الْمَحَرَّكَاتِ؟ وَكَمْ بَيْنَ السَّرَارِيِّ وَالذَّرَارِيِّ؟.

قَالَ: سَأَنْظُرُ، وَأَوْمَى بِيَدِهِ إِلَى كُمِّهِ وَأَخْرَجَ مِنْهُ أَصْطَرُلاً بَاباً يَنْظُرُ

فِيهِ، فَتَبَسَّمَ عَلَيَّ ﷺ وَقَالَ: أَتَدْرِي مَا حَدَّثَ الْبَارِحَةَ؟ وَقَعَ بَيْتُ
بِالصَّيْنِ، وَانْفَرَجَ بُرْجُ مَاجِينَ، وَسَقَطَ سُورُ سَرَنْدِيبٍ، وَانْهَزَمَ بِطَرِيقِ
الرُّومِ بِأَرْمِينِيَّةَ، وَفَقِدَ دَيَّانُ الْيَهُودِ بِأَيْلَةَ، وَهَاجَ التَّمْلُ بِوَادِي التَّمْلِ،
وَهَلَكَ مَلِكَ إِفْرِيقِيَّةَ، أَكُنْتَ عَالِمًا بِهَذَا؟ قَالَ: لَا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ. فَقَالَ:
الْبَارِحَةَ سَعِدَ سَبْعُونَ أَلْفَ عَالَمٍ وَوُلِدَ فِي كُلِّ عَالَمٍ سَبْعُونَ أَلْفًا، وَاللَّيْلَةَ
يَمُوتُ مِثْلُهُمْ وَهَذَا مِنْهُمْ، وَأَوْمَى بِيَدِهِ إِلَى سَعْدِ بْنِ مَسْعَدَةَ الْحَارِثِيِّ
لَعَنَهُ اللَّهُ وَكَانَ جَاسُوسًا لِلْخَوَارِجِ فِي عَسْكَرِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ﷺ، فَظَنَّ
الْمُلُوعُونَ أَنَّهُ يَقُولُ: خُذُوهُ، فَأَخَذَ بِنَفْسِهِ قِمَاتٍ، فَخَرَّ الدَّهْقَانُ سَاجِدًا.
فَقَالَ لَهُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ ﷺ: أَلَمْ أُرْوِكَ مِنْ عَيْنِ التَّوْفِيقِ؟

قَالَ: بَلَى يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ. فَقَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ ﷺ: أَنَا وَأَصْحَابِي
لَا شَرْقِيُّونَ وَلَا غَرْبِيُّونَ. نَحْنُ نَاشِئَةُ الْقُطْبِ وَأَعْلَامُ الْفَلَكَ وَأَمَّا قَوْلُكَ:
انْقَدَحَ مِنْ بُرْجِكَ النَّيرَانُ، فَكَانَ الْوَاجِبُ عَلَيْكَ أَنْ تَحْكُمَ لِي بِهِ لَا عَلَيَّ.
أَمَّا نُورُهُ وَضِيَاؤُهُ فَعِنْدِي وَأَمَّا حَرِيقُهُ وَلَهْبُهُ فَذَاهِبٌ عَنِّي، وَهَذِهِ مَسْأَلَةٌ
عَمِيقَةٌ أَحْسِبُهَا إِنْ كُنْتُ حَاسِبًا^(١).

وهناك روايات أخرى تؤكد هذه الحقيقة، فقد اكتفينا بهذه
وحدها لأنها تنفي بالمطلب.

وظهر مما مضى أن الناس مختلفون كما النجوم مختلفة، وهم
مختلفون في الألوان (العواطف) والألسنة (العقول؛ شدة وضعفاً)
ومختلفون في الطباع و..

وبهذا الاختلاف يتكاملون إن استثمروه في الطريق الصحيح.
وقد ذكر المفسرون في المقام أن قوله تعالى: ﴿إِنْكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ﴾ قد
قصد به الكفار حين اختلفوا في النبي ﷺ، وتناقضت أقوالهم حين

(١) الاحتجاج، الشيخ الطبرسي، ج ١، ص ٣٥٦.

قالوا ساحرٌ، مجنون، شاعر، ..

ولكن سياق الآيات الكريمة لا يتحدث عن الكفار، وسيظهر لك المعنى الأدق لهذه الآية فيما بعد.

أقسام الناس

٣- ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾

ماذا تعني كلمة ﴿يُؤْفَكُ﴾؟.

الكذب نوعان؛ كذبٌ عادي، وكذب ممنهج. ويسمى الثاني إفكاً، كما في حادثة الإفك التي يتحدث عنها القرآن الكريم في سورة النور، التي حدثت لمارية القبطية، زوجة النبي ﷺ. ومن هنا نفهم أن المقصود بهذه الكلمة في هذه الآية، أن هناك مخططات لخداع الناس عن الصراط المستقيم، وكثير من الناس يُؤفكون عن الحق بسببها ويُخدعون بها.

ومن هنا علينا أن نحذر حبائل إبليس ومكائده ومصائده، فإن خطواته مأكرة، ووساوسه خطيرة. فعلى الإنسان أن يحذره، وكما يقول الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «إِنْ كَانَ الشَّيْطَانُ عَدُوًّا فَالْغَفْلَةُ لِمَاذَا؟»^(١). وكان أحد المراجع الكبار يوصي ابنه بقوله: «يا بني؛ إن الشيطان الذي يحاربك قد حارب من قبلك الأنبياء، وصارع الأولياء والصالحين، وصرع الكثير من الناس من أمثالك، فاحذره».

بقي سؤال واحد في هذه الآية، وهو: إلى أين يرجع ضمير في

(١) من لا يحضره الفقيه، الشيخ الصدوق، ج ٤، ص ٣٩٣.

كلمة ﴿عَنْهُ؟﴾.

فقد اختلف المفسرون في الإجابة عن هذا السؤال اختلافاً كبيراً؛ فمنهم من قال: إنه عائد إلى القيامة، ومنهم من قال: إلى القرآن، ومنهم من قال: إلى النبي ﷺ.

ولكن ما يبدو هو أن الحديث القرآني هاهنا دقيقٌ، وهو في الوقت نفسه صريح جداً، فالضمير عائد إلى (القول) في الآية السابقة، ليكون المعنى على النحو التالي:

قسماً بالسماء ذات الحبك، فأنتم البشر مختلفون بالنسبة إلى الدين إلى ثلاثة تيارات:

- ١- تيار انصرفوا عن يوم الدين بسبب الشيطان ومكائده ووساوسه، وهؤلاء قد أفكوا عن الطريق.
- ٢- تيار يعيشون في الشك والشبهات، وهم الخراصون الذين سيأتي ذكرهم في الآيات التالية.
- ٣- المتقون، الذين صدّقوا بالدين وآمنوا به.

الدين الحقيقي

ما هو الدين الحقيقي الذي نتحدث عنه الآيات المباركة؟.

فعن أبي جعفر عليه السلام في قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ﴾، يعني: قول النبي ﷺ فيما أوحى الله تعالى إليه عن ولاية علي عليه السلام. وفي قوله: ﴿يُؤَفِّكُ عَنْهُ مَن أُولَئِكَ﴾ عنى: من خالف ما أمر الله تعالى به أدخله النار^(١).

(١) غرر الأخبار ودرر الآثار في مناقب الأئمة الأطهار، ص ٣٥١

وقال الإمام محمد الباقر عليه السلام في حديث: وأما قوله: ﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ﴾ فَإِنَّهُ عَلِيٌّ؛ يَعْنِي أَنَّهُ لَمْ يُخْتَلَفْ عَلَيْهِ، وَقَدْ اخْتَلَفَتْ هَذِهِ الْأُمَّةُ فِي وَلَايَتِهِ؛ فَمَنْ اسْتَقَامَ عَلَى وَلَايَتِهِ دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ خَالَفَ وَلَايَتَهُ دَخَلَ النَّارَ»^(١).

وعن أَبِي جَعْفَرٍ عليه السلام فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ﴾ فِي أَمْرِ الْوَلَايَةِ. ﴿يُؤْفِكُ عَنْهُ مَنْ أَفَكَ﴾ قَالَ: مَنْ أَفَكَ عَنِ الْوَلَايَةِ أَفَكَ عَنِ الْجَنَّةِ»^(٢).

بصائر وأحكام

كما السماء قد حُبِكَت بحلقات تتكامل بينها بجمال أخاذ، كذلك البشر في قولٍ مختلف؛ فمنهم من أُفِكَ عن ذلك القول بشبهات الشيطان، ومنهم من صدَّق به، ومنهم الخراصون الذين لا يزالون في ريبهم يترددون.

(١) بصائر الدرجات، الشيخ محمد بن الحسن الصفار، ص ٩٧.

(٢) الكافي، الشيخ الكليني، ج ١، ص ٤٢٢.



قتل الخراصون

﴿قُلِ الْخَرَّاصُونَ ۝١٠ الَّذِينَ هُمْ فِي عَمَرِهِمْ سَاهُونَ ۝١١ يَسْأَلُونَ
أَيَّانَ يَوْمَ الدِّينِ ۝١٢ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفَنُّونَ ۝١٣ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا
الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ۝١٤﴾.

تفصيل القول

كلمة الخراصون لم تذكر في القرآن الكريم إلا في هذه الآية المباركة، ولفهم أبعادها يجب أن نُنَبِّه إلى أن الله سبحانه وتعالى خلق جميع الخلائق، وقدر لهم التكامل بشكل منظم ومتناسق؛ فكل واحد من المخلوقات في هذا العالم مرتبط بالآخر، ولكل مخلوق انجذاب إلى سائر المخلوقات، وهنالك أنظمة في داخل كل مخلوق تنظم هذه العلاقة بينه وبين سائر المخلوقات.

فالجاذبية تربط الجسيمات مع بعضها، وأما النباتات ففي كل

واحدة منها مئات الأنظمة لتنظيم حياتها ضمن المحيط الموجودة فيه. أما البشر، وهو أكمل المخلوقات، فهو لا يشذ عن هذه القاعدة أيضاً. ففي داخل كل واحد منا، العشرات من الأنظمة التي تنظم علاقاتنا مع سائر الناس، ومع المحيط الذي نعيش فيه. وإذا ما اختلت تلك الأنظمة، ينقطع ارتباط البشر بمحيطه.

وإذا أردنا أن نضرب مثلاً لذلك، فالعين - مثلاً - ترى حجم الأمور وأبعادها وألوانها، وتميّز بين الظلمة والنور.. وكل هذه الأمور تكون في طرفة عين، ومن ثم تنسّق البشر مع محيطه بعد أن يبصر ما فيه، لكي يتجنب المخاطر.

أنظمة الروح

والسؤال هنا هو: إن الذي جعل في جسم الإنسان أنظمة للتعايش مع محيطه، مثل معرفة الطريق، أو الاهتداء إلى الحقائق عبر السماع، ألم يجعل نظاماً في فطرته وعقله لمعرفة طريق الجنة؟

بلى؛ كما أن البشر يتمتع بأنظمة مادية للعيش مع محيطه، كذلك جعل الله فيه أنظمة عقلية وروحية، للاهتداء إلى طريق الجنة، والشاهد على هذه الأنظمة الآيات المباركة.

الاستفادة من هذه الأنظم

هل يجوز لي - وأنا أملك عينين باصرتين بفضل الله تعالى - أن أغمضهما وأسير بلا هدى؟.

هل يجوز لي -وقد رزقني الله تعالى السمع- أن أصم سمعي ولا أستفيد منه؟.

لا يجوز لي كبشر أن أترك الأنظمة الإلهية التي جعلها ربي لهدايتي وأسير فيما يرتبط بديني وعقائدي وآخرتي بالظن والتخمين. فكما لا يجوز أن نعمل بالظن في أمور مادية عابرة وحياة زائلة، كذلك لا يمكننا أن نعمل بالظنيات فيما يرتبط بالحياة الأبدية في الآخرة.

البعض يريد أن يعيش كما يشاء، ويحصل على الجنة بما يشتهي هو، لا بما يأمر به الله فيعمل، ولكن حسب هواه. لذا تجده يجرأ حتى على الكذب على الله العزيز المتعال. وقد روي عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنه قال: «إِذَا قَالَ الْعَبْدُ: (عَلِمَ اللَّهُ)، وَكَانَ كَاذِبًا، قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: أَمَا وَجَدْتُ أَحَدًا تَكْذِبُ عَلَيْهِ غَيْرِي؟»^(١).

فالمصوِّبة مثلاً، والذين خطب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام عنهم وعن أخطائهم خطبة كاملة مدوَّنة في نهج البلاغة، والذين قالوا: إن الله يُصَحِّح كل ما نقول، تراهم يعتمدون هذا الأسلوب، فيقولون: إننا نقرّر المسير، ثم يُصَوِّب الله تعالى ما قرّرناه. سبحان الله! ١ - ﴿قِيلَ الْخَرَّاصُونَ﴾

هنا ربنا سبحانه وتعالى يتكلّم عن هؤلاء بشدة فيخاطبهم بعبارة ﴿قِيلَ﴾. والسؤال: ما معنى كلمة ﴿قِيلَ﴾ هنا؟.

قال البعض: إن هذا نوع من اللعنة، فهم بفعلهم هذا استحقوا اللعنة من الله تعالى والطرد من رحمته.

لكن ماذا تعني اللعنة من الله تعالى؟ فاللعنة من البشر هو الدعاء

(١) الكافي، الشيخ الكليني، ج ٧، ص ٤٣٧.

باللعن، ولكن ماذا لو كان اللعن من الله؟.

هنالك أكثر من احتمال:

الأول: قد يكون من باب (خذ الغايات واترك المبادي)، حيث يجب أن نترك المبادي فيما يرتبط بالله سبحانه وتعالى، فنقول: إن اللعن هنا هو نتيجة اللعن؛ أي الطرد من الرحمة، كما أن الله سبحانه وتعالى حينما يُصَلِّي على أحد فصلاته تعني تحوّل رحمته له.

الثاني: ليس هذا لعناً وإنما هذا بيان حقيقة. فكما أن من يغلق عينه الباصرة سيصطدم بجدار، أو يقع في بئر.. وهذا السقوط أو الاصطدام هو نتيجة طبيعية لفعله، كذلك فإن من يُغلق منافذ بصيرته دون الهداية فهو مقتول بالتأكيد. فهذا إخبار عن حقيقة موجودة، وهو إنذار بأنهم سوف يخسرون. وكلمة (القتل) في اللغة العربية ليست الموت وإزهاق الروح فقط، فلها معنى أشمل من إزهاق الروح.

فكأن الباري عز وجل يريد أن يقول: إن من يريد أن يسير بالظن في أمور الدين فسوف يكون من المقتولين. فهو من يقتل نفسه، لأنه يخالف السنن الإلهية التي أجراها في خلقه.

من هم الخراصون؟

٢- ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ﴾

الصفة الأولى التي يُبَيِّنُها ربنا سبحانه وتعالى لهؤلاء، والتي قد تعد من أبرز صفاتهم، هي أنهم قد غرقوا في السهو والغفلة؛ فمثلهم كمثل رجل أحاط به الماء العميق من كل مكان ولا يستطيع أن يخلص نفسه، ولكن الفرق بينهما أنه في الماء وهم في السهو والغفلة.

السهو يعني أنه يستطيع إدراك الأمور ولكنه لا يدركها. فهو لا يفقد القدرة على الدرك، وإنما يغلق منافذ الإدراك تعمداً وعن سابق عزم.

غمرة: أي الماء الكثير، ولكنها هنا تعني غمرة السهو.

ولعل الخِصَصَات ليسوا كل من يعمل بالظن، وإنما الذين بنوا حياتهم على الخرص والظنون الفارغة، فكان ذلك منهجهم في التعامل مع الحقائق.

٣- ﴿يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ﴾

الصفة الثانية لهؤلاء أنهم ليسوا على يقين من أمر الآخرة، بل إنهم يستهزئون بها.

فكلمة ﴿أَيَّانَ﴾ تدل على استهزائهم بيوم الدين، فلم يكن تساؤلهم عن الزمن أو المكان خالياً من الاستهزاء. ولفظة ﴿أَيَّانَ﴾ أشمل معنى من (أين)؛ إذ إن كثرة المباني دليل على كثرة المعاني، فتعني أنهم كانوا يستهزئون فيسألون (أين) و (متى) تكون الآخرة.

الحذر من وسواس الشيطان

احذروا أيها الأخوة! فنحن وهؤلاء سواء في هذه الصفة. فأول ما يُلقِي الشيطان في روعنا، ونحن نستمع إلى نصيحة مؤمن يذكرنا بالآخرة، هو أن يقول الشيطان لنا: ﴿أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ﴾، ونحن نستمع إليه في مقالته فنقول بألسنتنا ما لا تعتقده قلوبنا الصاغية لأبواق إبليس.

لماذا يُؤجِّل البعض حقوق الله وحقوق الناس من الحول إلى

الحول؟ ولماذا لا تُؤدي ما علينا من الحقوق والواجبات الشرعية؟
أليس كل ذلك بفعل الشيطان حين يقول لنا: ﴿أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ﴾؟.

اختيار طريق الجنة

كان أحد العلماء يقول: حينما يرى الإنسان نفسه بين الدنيا والآخرة، بين الجنة والنار، ويكون على مفترق طريق، فليسرع في اختيار طريق الجنة، وليقدّم الآخرة على الدنيا، لأنه إذا سوّف - لا سمح الله - سيوكله الله إلى نفسه، فتكون عاقبته الخسران وسيطرة وساوس الشيطان عليه.

فيجب أن نجابه الباطل رأساً ونقول له: (كَلَّا) وبقوة، ولا ندع الأمر ولا نتساهل معه أو نسترسل مع الحرام. فعمر بن سعد حينما عُرِضت عليه قيادة جيش الباطل، لم يخالف بادئ الأمر، بل أجل الموضوع لغد وقال بأنه يفكر في الأمر، وانتهى به الأمر إلى قوله: ﴿أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ﴾ حين انشد قائلاً:

يقولون: إن الله خالق جنة ونار وتعذيب وغل يدين
فإن صدقوا فيما يقولون فإني أتوب إلى الرحمن من سنتين

عاقبة (الخراصون)

٤ - ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾

لم يجب ربنا سبحانه عن تساؤلهم ذلك، ولم يؤقت لهم وقتاً معلوماً لإدخالهم النار، بل يذكر النتيجة مباشرة، فيقول: إن اليوم الذي يتساءلون عنه هو اليوم الذي يُفتنون فيه على النار.

ويُفتنون هنا بمعنى يُحرقون.

٥ - ﴿ذُوقُوا فَنَتَكُمُ هَذَا الَّذِي كُنتُمْ بِهِ سَتَعِجُلُونَ﴾

أنتم فتنتم أنفسكم في الحياة الدنيا، وكنتم تريدون أن تكون الساعة قريباً، فهذا هو ما كنتم تريدونه.

النتيجة

حينما نريد أن نختار طبيباً لأنفسنا نبحت جيداً عن الطبيب الحاذق حتى لا نقع في الخطأ، وحينما نريد أن نبني داراً نبحت عن أفضل مهندس في البلد لكيلا تنهدم الدار على ساكنيها. هذا فيما يرتبط بأمور الدنيا، وهي زائلة كما سبق، فكيف بأمر الدين وأمر الآخرة؟.

أولاً: لا نكن ممن يبيع دينه بثمان بخس، كسمرة بن جندب الذي باع دينه مقابل مبلغ من المال أخذه من معاوية ليقول حديثاً يؤفك فيه على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام في تفسير آية مباركة.

ثانياً: يجب أن يبحث الإنسان بشكل جيد عمّن يأخذ معالم دينه، وعقائده، وما هي تلك العقائد التي يؤمن بها، فلا تكن - لا سمح الله - ضعيفة ورخوة ومستندة إلى الظن، لأن الظن لا يغني من الحق شيئاً.

ثالثاً: يجب أن نتبه ونحذر السهو واللهو؛ فغفلة ساعة قد تجلب ندامة عمر، فيجب دائماً أن يستفيد المرء من عقله. فنحن لم نأت إلى هذه الدنيا لنسهو ونلهو، بل جئنا لنُمتحن.

رابعاً: الناس بعد الموت ثلاثة أقسام:

القسم الأول: يدخل نار جهنم قبل أن يرى قبراً أو حساباً فيه،

بل يكون دخوله إلى النار مباشرة، كما يذكر القرآن الكريم عن قوم النبي نوح عليه السلام حيث إتهم: ﴿مَمَّا خَطِيئَتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا...﴾^(١).

القسم الثاني: من يذهب إلى الجنة مباشرة، وربما يشعر بعضهم بالجنة قبل أن يفارق الدنيا، فيرى الملائكة والحرور، كأصحاب الإمام الحسين عليه السلام بعد امتحان الإمام لهم ليلة عاشوراء، فأراهم الإمام عليه السلام منازلهم في الجنة، فكانوا يوم عاشوراء في الجنة مع أن أبدانهم كانت لا تزال في الدنيا.

القسم الثالث: مَنْ عليه بعد الموت حساب وكتاب ومنكر ونكير، ثم يُغفل عنه إلى يوم القيامة، فبنفخة الصور يقوم، ﴿فَإِذَا هُمْ مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾^(٢) وهناك يبدأ الحساب. وكلامنا هنا عن القسم الثالث.

أرأيت حينما يُغمى على أحد، هل يحس بالوقت؟.

كلّا؛ حتى لو مرت عليه سنة كاملة. كذلك هؤلاء، فحين يُغفل عنهم لا يحسون بالزمن، والزمن يكون معدوماً عندهم، وفجأة ينفخ في الصور: ﴿ثُمَّ نُفِخُ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ فِي يَوْمٍ نَّظُرُونَ﴾^(٣). فلا يتصور أحدنا أن يوم الدين يكون بعيداً، فيقول: ﴿أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ﴾، بل المسافة هي خطوة واحدة، هي الموت والغفلة إلى ذلك اليوم الوقت المعلوم. أعاذنا الله من شروره.

(١) سورة نوح، آية ٢٥.

(٢) سورة يس، آية ٥١.

(٣) سورة الزمر، آية ٦٨.

بصائر وأحكام

١ - كما للجسم أنظمة بها يتكامل مع البيئة؛ كذلك الروح، فمن اتبعها اهتدى إلى الجنة والرضوان.

٢ - وعلى الإنسان أن يهتدي بما جعل الله في فطرته وعقله من نظام للاهتداء إلى سبيل السلام ولا يتبع هواه، كما يفعل الخراصون الذين في جُحَّة الغفلة ساهون، إنهم ملعونون، وكما فتنوا أنفسهم في الدنيا، فإنهم في الآخرة في النار يُفْتَنُونَ، حيث تتحول ظنونهم إلى نيران مستعرة تحرقهم.

٣ - وعلى الإنسان أن يعتمد في دينه على أسس راسخة، حتى لا تزعزعه الوسوس والشبهات.



عقبى التقوى

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۖ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ﴾ (١٦)

تفصيل القول

ما هي التقوى؟ وكيف يكون الإنسان متقياً؟ وما هي صفات المتقين؟.

التقوى درع منيع، وحصن حريز، ودوحة نضرة دائمة الخضرة ووافرة الثمار.

كيف كانت التقوى كذلك؟

طريق الله، طريق سهل لسالكه، فمن يسير عبره، فإن السُنن الإلهية تسير معه، وملائكة الله يرافقونه، وكل ما في الخلق يتوافق معه، فيكون مثله مثل من يسبح مع التيار، حيث يسهل عليه الوصول،

بينما الانحراف عن الله عز وجل، يعني الانحراف عن الشُّنن الإلهية، والانحراف عن الفطرة المودعة في النفس. كيف يكون كذلك؟.

بإمكان الإنسان أن يسأل مَنْ يعده متقياً في حياته، يسأله عن كيفية وصوله إلى ما هو عليه، هل كان صعباً عليه أم سهلاً. فسيجيب أنه كان سهلاً ميسوراً بتوفيق من الله عز وجل.

دعني أتساءل: مَنْ كان عند بئر يحاول عدم الوقوع فيها، هل هو أيسر أمراً، أم من يسقط فيها ثم يحاول الخروج منها؟ من يقي نفسه من المرض أيسر حالاً، أم ذلك المبتلى بالمرض ويحاول جاهداً الحصول على العلاج؟ من يتقي دخول السجن أفضل حالاً، أم السجين الذي يحاول أيسراً الخروج من السجن؟.

التقوى هي الوقاية من السقوط في المهالك. بلى؛ الوقاية من غضب الرب، الوقاية من عذاب الرب، والوقاية من مكائد إبليس وأهواء النفس.

فالتقوى تقوم على أساسين هما: الرؤية المستقبلية، والوقاية من الوقوع في الأخطاء.

فما دامت الطريق معبّدة، وسالكوها كثيرين من أولياء الله الصالحين ممن عايشناهم أو سمعنا أخبارهم؛ ما دام الأمر كذلك، فلماذا لا يسير الآخرون في هذه الطريق؟.

نقول: لأن هناك شيطاناً قد أقسم بعزة الله تعالى بأن يسعى في غواية البشر. يقول الله تعالى عنه: ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾^(١). فهو عدوٌّ للإنسان، وقد حذّر الله تعالى عباده من الانجرار وراء حبائله،

(١) سورة ص، آية ٨٢.

فقال تعالى: ﴿لَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَبْنَىءَ آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾^(١).

فالشيطان يحاول جاهداً أن يجرَّ الناس نحو الهاوية، بمكائده ووساوسه؛ المباشرة منها، وغير المباشرة (عبر شياطين الجن والإنس). ومن هنا نجد أن القرآن الكريم يتدبَّر بالتوجَّه إلى الله عز وجل عبر البسمة، ويختتم بالاستعاذة بالله من شياطين الجن والإنس في سورة الناس.

وهنا تظهر أهمية التواصي فيما بين الأتقياء، حيث يتواصون بالحق والصبر والمرحمة - كما ورد في القرآن الكريم - فيحذِّر الواحد أخاه من الشيطان الرجيم.

وربما يتوهم البعض أن الطريق عادت صعبة عسيرة مع غواية إبليس، لا كما تصورناه سهلاً ميسوراً.

بلى؛ لا يمكننا أن نتصوَّر حركة في الحياة إلَّا ومعها قدر من المشقة، ولكن كون الإنسان مع الحق يسهل عليه المسير، بالمقارنة مع كونه مع الباطل. لماذا؟ لأن الذي يكون مع الحق يعينه ربه عند توكله عليه وتُدلِّل له صعوبة الطريق، وتسهِّل عليه حزنه، بل نجد أن الكثير من الأعمال الشاقة تصير سهلة عليه.

التقوى درع

ذكرنا أن التقوى درعٌ منيع، لماذا؟.

أوليس يحيط الدرع بالإنسان فيمنعه من جراحات السُّنان،

(١) سورة يس، آية ٦٠.

كذلك التقوى تُحيط بالإنسان لئلا تمنعه من ويلات المعاصي والآثام. فمن كان متقياً، فإنه لا يسقط في شرك المعاصي؛ فيمتنع الموظف المتقي من أخذ الرشاوي، ويمتنع الشاب المتقي من السقوط في غواية فتيات الهوى.. بينما يلج الآخرون في أبواب المحرمات بكل سرعة، ومن دون أي وازع أو رادع. يقول الله تعالى: ﴿يَبْنِيْٓءَادَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ لِبَاسًا يُؤَرِّى سَوْءَ نَفْسِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾^(١).

التقوى حصن

كيف يكون التقوى حصناً حريزاً للإنسان؟.

لأن المتقي لا يكون وحده، بل يعيش مع سائر المتقين، ولذلك يكون في كهف أصحابه الصالحين، وحصنهم المنيع؛ فهم يقوّمونه إذا ما انحرف، ويتواصون معه بالحق والصبر. ولذلك فإننا لا نجد الحديث في القرآن الكريم عن أهل التقوى -عادة- فردياً، بل بصيغة جمعية، مثل قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرٌ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعَمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾^(٢).

التقوى دوحة

كما الدوحة الوارفة الظلال، دائمة الخضرة، يهنا بها الإنسان، ويرغد فيها عيشه.. كذلك التقوى، يعيش المتقي الرفاهية، ويستفيد

(١) سورة الأعراف، آية ٢٦.

(٢) سورة النحل، آية ٣٠.

من تقواه لآخرته ودنياه.

ففي الآخرة قد وُعد بجنات وعيون، وزروع ومقام كريم.. وفي الدنيا أيضاً تجد التفاف الناس حوله، ومحاولة الناس الوصول إليه بشتى الطرق؛ ففي التجارة يحاولون التعامل مع المتقي، ويحاول كل الناس إيداع أماناتهم عنده، بل إن أصحاب المال والسلطة يخضعون للمتقين. فليس العيش الرغيد أن تمتلك ثروة كبيرة، بل الأجل أن يخضع لك أهل الثروة. وليس العيش الهنيء أن تكون سلطاناً، بل أن يخضع لك أهل السلطة.. ولا يكون ذلك إلا لمن كان يعيش في روضة التقوى، يتزود من خيراتها لدنياه وآخرته. يقول ربنا عز وجل: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَةٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ النَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ﴾ (١).

حقاً إنها زاد الطريق؛ طريق الحياة في الدنيا وإلى الآخرة.

بصائر وأحكام

التقوى درع وحصن وزاد؛ فإنها درع، لأن من تلبس بالتقوى صانه ربه من الوقوع في أشرار الشيطان، ومنعه من المعاصي التي هي عوامل شقاه.. وإنها حصن، لأن المتقي يتحصن بالمؤمنين الذين يتواصون معه بالحق والصبر.. وإنها زاد، لأن الناس - كل الناس - يحبون المتقين، لما فيهم من الكفاءة والنزاهة وحسن السلوك.

(١) سورة البقرة، آية ١٩٧



السبيل إلى التقوى

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۖ ﴿١٥﴾ ءَالِحِينَ مَا أُنْزِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ شَرِّ حَالٍ ۚ ﴿١٦﴾﴾
﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ۖ﴾

تفصيل القول

بين الجنة والنار

من مناهج القرآن الكريم في البيان هو منهج التقابل؛ مثل تقابل الليل والنهار، والعذاب والمغفرة، والجنة والنار. فحين لا يمكن تصور عذاب النار، فضلاً عن تحمله، يذكر القرآن الكريم الجنة ونعيمها، وكيف أن الرب الكريم يهبهم من النعم ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

وإنما يستخدم القرآن هذا المنهج للتدليل على عدم وجود منطقة وسطى بين الجنة والنار. فالإنسان خُلِقَ حين خُلِقَ بين نار ونور،

وذراته أمشاج بينهما، فإذا غلب نوره على ناره كان مصيره إلى الجنة، وإن كان العكس والعياذ بالله فسيكون من أهل النار.

من هنا نحن في هذه الحياة في امتحان صعب، يؤدي بنا إما إلى جنة ونعيمها المقيم، وإما إلى نار (أعاذنا الله منها) وعذابها الأليم. ولذلك كان علينا السعي الجاد لاجتياز هذا الامتحان، وألاً نختار على الجنة شيئاً أبداً.

الغفلة

ورُبَّ سائل يقول: لماذا يُذكر القرآن الكريم في الكثير من آياته بالجنة والنار؟ فهل هي للمؤمنين بهما، فهو تحصيل حاصل، أم لغيرهم؟ فماذا تنفعهم التذكرة مع كفرهم؟

وللإجابة نقول: إن كل إنسان يعلم -بفطرته ووجدانه، كما عبر سائر الحجب الإلهية- أنّ يوم القيامة حق، كذلك الوعد بالجنة، والوعيد بالنار، والعذاب والنعيم، كما أنه مسلّم في كل الديانات والمذاهب وإن اختلفت فيما بينها التفاصيل. ولكن قلب الإنسان محجوب بالغفلات والشهوات، وهي تحول دون الإيمان بهذه الحقيقة إيماناً يدعو إلى توافق سلوكه معها. ولكي يرفع القرآن تلك الحجب، يذكر المرة بعد الأخرى بها ويبيّن الكثير من تفاصيلها.

ثم إن هذه الآيات تخصنا قبل غيرنا. لماذا؟.

لأنه لا أحد منا يستطيع الجزم بأنه من أهل الجنة، أو أنه من المتقين. ولذلك فإن القرآن الكريم قد ذكرنا بصفات المتقين، لكي نطابق صفاتنا مع صفاتهم.

وهكذا روي عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام، أنه قال: جاء

رَجُلٌ إِلَى أَبِي ذَرٍّ (إلى أن قال): قَالَ: فَكَيْفَ تَرَى حَالَنَا عِنْدَ اللَّهِ؟ قَالَ: اغْرَضُوا أَعْمَالَكُمْ عَلَى الْكِتَابِ، إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ (١٣) وَإِنَّ الْفَجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ (١).

المتقون

الآخرة محيطة بالدنيا كما الأمواج التي تحيط بنا، وحياتنا محاطة بالموت، فما مضى مات وما سيأتي كذلك. وهكذا يحيط الموت بالحياة والظلمة بالنور. يقول ربنا سبحانه: ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلِإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ (٢).

وبالتدبر في آيات الذكر الحكيم نجد أن الحديث عن الجنة والنار لا يكون في إطار الزمن. ففي سورة الذاريات يقول ربنا: ﴿إِنَّكَ

الْمُنْتَقِنَ فِي جَنَّتٍ وَعُيُونٍ﴾ ولم يقل متى؟ ثم إن الجنات والعيون والثمار والخور هي ليست كل شيء، وإنما تلك الروح التي تعيش أبداً في رضوان الله، وتنعم بعرفان الله، هي ذاتها تتنعم في الدنيا أيضاً. فالمتقون يعيشون في جنات النعيم وهم في الدنيا، فتلك الروح التي لا تحشى إلا الله، والتي فوضت أمرها إلى الله هي روح من الجنة وهي تعيش الآن في الجنة.

هذه هي جنة المتقين في الدنيا، والعيون هي نفحات الإيمان التي تأتي إلى قلب الإنسان من الرحمة الإلهية. وهكذا المؤمن يعيش النعيم أينما كان، وفي أي ظرف وزمان. ألا ترى الإمام موسى بن جعفر عليه السلام وهو في السجن يدعو ربه قائلاً: «اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنِّي كُنْتُ أَسْأَلُكَ أَنْ

(١) الكافي، الشيخ الكليني، ج ٢، ص ٤٥٨.

(٢) سورة العنكبوت، آية ٥٤.

تُفَرِّغَنِي لِعِبَادَتِكَ، اللَّهُمَّ وَقَدْ فَعَلْتُ، فَلَكَ الْحَمْدُ»^(١).

وهكذا كلمات الإمام زين العابدين وسيد الساجدين علي بن الحسين عليه السلام في دعائه: «يَا نَعِيمِي وَجَّتِي، وَيَا دُنْيَايَ وَآخِرَتِي»^(٢).

١ - ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾

فذلك نعيم في الدنيا والآخرة، وكل واحد متاً عليه أن يسعى للوصول إلى تلك الدرجة من الكمال، وذلك بالترفع عن الدنيا وما فيها. وهكذا يعيش المتقون في جنات.

وإنما استخدم الجنات بصيغة الجمع، إما لاختلاف الدرجات، أو لأنهم يسرون إلى التكامل دائماً فتتضاعف عليهم النعم الإلهية. وكذلك العيون تختلف من تسنيم وسلسيل وسائر العيون.

٢ - ﴿ءَاخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ﴾

يُتَّصَرُّ لِهَذِهِ الْآيَةِ تَفْسِيرَانِ:

قال بعض المفسرين: إن الآية تتحقق يوم القيامة، حيث يأخذون النعم من الله سبحانه وتعالى باستمرار. ولكن هناك تفسيراً آخر وهو أن لهذه الآية بُعداً دنيوياً أيضاً، فقد كانوا راضين بما قسم الله لهم في الدنيا، وشكروا الله على ما أعطاهم، وكان ذلك سبباً لنيلهم الجنان، بل وجنتهم هي قناعتهم.

وهذا ما يمكن أن نستلهمه من قول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «مَنْ رَضِيَ مِنَ اللَّهِ بِالْيُسْرِ مِنَ الْمَعَاشِ رَضِيَ اللَّهُ مِنْهُ

(١) الإرشاد، الشيخ المفيد، ج ٢، ص ٢٤٠.

(٢) الصحيفة السجادية، مناجاة المريدين.

بِالْيُسْرِ مِنَ الْعَمَلِ»^(١).

وكذلك قول الإمام علي بن الحسين عليه السلام: «وَمَنْ صَبَرَ وَرَضِيَ
عَنِ اللَّهِ فِيمَا قَضَى عَلَيْهِ فِيمَا أَحَبَّ أَوْ كَرِهَ، لَمْ يَقْضِ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ فِيمَا
أَحَبَّ أَوْ كَرِهَ إِلَّا مَا هُوَ خَيْرٌ لَهُ»^(٢).

سبيل الوصول إلى الإحسان

والشخص الذي يستطيع أن يغلب هواه، هو المحسن. ذلك أن
الله سبحانه وتعالى أعطى كل إنسان أكثر من حاجته، وعلينا أن نرسل
الزيادة للأخرة عبر الإحسان. وفي أكثر من موضع نجد القرآن يؤكد
على صفة الإحسان، وكيف أنها كانت سبباً لنيل الحكم والعلم للأنبياء
العظام. يقول ربنا تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ
نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾^(٣). وهذه الآية وردت في قصة النبي يوسف عليه السلام،
وذلك لأنه كان في السجن يُوسِّع للآخرين في المجالس، و كان يُقرض
الآخرين مما لديه.. لذلك حينما جاءه الفتيان وأرادا منه تفسير الرؤيا،
قالا: ﴿إِنَّا نَرْنَكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾^(٤).

والكلمة الطيبة إحسان، وإمالة الأذى عن الطريق صدقة،
والنظرة إلى الوالدين رحمة بهما حسنة، والنظر إلى باب بيت العالم عبادة،
وكل ذلك إحسان، وبالإحسان ينال المرء الجنان.

(١) تحف العقول، الشيخ ابن شعبة الحراني، ص ٦٠.

(٢) الكافي، الشيخ الكليني، ج ٢، ص ٦٠.

(٣) سورة يوسف، آية ٢٢.

(٤) سورة يوسف، آية ٣٦.

بصائر وأحكام

بالرغم من أن الساعة حقيقة وجدانية، إلا أن البشر محبوب عنها بالغفلة والشهوة. وبالتذكرة بآفاقها تنجلي الحجب. ونحن بالرغم من إيماننا بها، بحاجة إلى تلك التذكرة.

ومن آفاق الإيمان بالآخرة الإحسان إلى الآخرين، لأنه زاد البشر في مسيره إلى الله. وإنما المحسن هو الذي يخرج من إطار ذاته ويعيش هموم الناس.



وبالأسحار هم يستغفرون

﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ الَّذِينَ مَا يَهْتَجُونَ﴾ (١٧) وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ .

تفصيل القول

القوانين بين السنن والفطرة

في عالمنا اليوم هناك خبراء قانون، متخصصون في تشريع القوانين ووضع الدساتير المرتبطة بالحياة اليومية للإنسان، ولوضع الدساتير قد جعلوا لأنفسهم معياراً أساسياً يسرون لتحقيقه، وهو عبارة عن (القانون الطبيعي). فهم يقولون: إن في الطبيعة أنظمة لا بد من تطبيقها في الدساتير والأنظمة التي يعيش عليها الناس.

ولا فرق في هذا الرأي بين خبراء الشرق والغرب، ولا فرق في أديانهم، ولكن ما يسمونه بـ(قوانين الطبيعة) ليست تسمية دقيقة. فليست الطبيعة تمتلك عقلاً تسير به لتُنظَّم لنفسها هذه الأنظمة اللطيفة

والدقيقة، وما جرّهم إلى إطلاق هذه التسمية هو عدم إيمانهم بخالق للطبيعة ومدبّر لها، وهو الرب الذي أعطى للطبيعة قوانينها وأنظمتها. وبدل (قانون الطبيعة) فإننا نقول: إن الرب تبارك وتعالى قد خلق الطبيعة وأعطاهها أنظمة وقوانين، وهي التي نسميها (بالسنن الإلهية في الخليفة) وفيما يتصل بها تُسمّى بالفطرة، إيماناً منا بالإله الحكيم اللطيف الخبير.

ومن هنا نجد أن ديباجة الدساتير (المقدمة التي تحدد فيها الخطوط العامة للدستور) عند أي دستور كان، سواء شرّقنا أو غرّبنا، كثيرة التشابه بعضها ببعض، كما أنها متشابهة إلى حد كبير مع القوانين والسنن الإلهية في الخليفة. وعلى سبيل المثال؛ فإن كل ديباجة دستور لا بد أن تكون لها محاور خمسة تعدّ أسس الدستور، وهي: العدل، والأمن، والرفاه، والتطور، والحرية. وها هي الطبيعة التي خلقها الله عز وجل تتجلى فيها هذه القيم والمبادئ بشكل جلي.

وفي هذه الديباجة نوع اعتراف من قبل خبراء القانون بأن هناك ربّاً لهذا العالم دون إفصاح منهم برأيهم. ولكننا حيث نؤمن بالله تعالى، فإننا نُعلنها دون خشية أو خوف، بأن السنن الإلهية في الطبيعة هي أفضل السنن.

الإنسان والطبيعة

وبالرغم من ذلك فإننا نجد -ومع شديد الأسف- أن حركة البشر خلال القرنين الأخيرين كانت معاكسة للسنن الإلهية أولاً، وللفطرة التي خلق الله الخلق عليها ثانياً. ولا نستثني بقولنا هذا شعباً دون آخر، فالمستكبر والمستضعف فيه سواء.

١ - فكثرة إنتاج الغازات السامة من قبل الدول الصناعية واستخدامها في الدول النامية أدى إلى التسبب في ثقب آخذ بالتوسع في غلاف الأرض وهي طبقة الأوزون، مما أدى إلى تسرّب الأشعة الضارة إلى الأرض، مما تسبب في إصابة الآلاف بأمراض جلدية خطيرة. كما تسبب في ارتفاع درجة حرارة الكرة الأرضية، وإلى عدم انتظام الدورات الحياتية، مما تسبب في الفيضانات من جهة، والجفاف من جهات أخرى.

٢ - من جهة أخرى نجد أن البحار والمحيطات قد تلوّث بشكل كبير بما جنته يد البشرية.

٣ - وغابات الأمزون قد أخذت بالتناقص، مما سيؤدي إلى انخفاض إنتاج الأوكسيجين في العالم، باعتبارها تنتج المزيد من أوكسيجين الأرض.

٤ - الأدوية الكيماوية التي استخدمت وتستخدم لعلاج الأمراض، باتت تشكّل خطراً كبيراً على الصحة العامة للإنسان.

وغير ما ذكرنا من كوارث لا تعد ولا تحصى قام بها البشر لتدمير حياتهم، وذلك عبر مخالفتهم للسنن الإلهية في الطبيعة. وحتى الحكماء من جميع الأديان بدؤوا يحذّرون ويصدعون بأن الطريق هذه، طريق خاطئة.

فلا بد من العودة إلى التعايش مع السنن الإلهية، والتكيّف معها، لا مقابلتها.

وها هنا أوصي المؤمنين بأن نسعى في السير مع السنن الإلهية ولا العكس، وأن نُكيّف أنفسنا مع خليفة الله عز وجل. فالمؤمنون كانوا

يتعايشون مع الطبيعة دوماً؛ فيوتهم متناسقة معها، ومعيشتهم متكيفة مع قوانينها، من منامهم ويقظتهم؛ ففي الليل كانوا يريحون أبدانهم، بينما كانوا في أوج نشاطهم إذا أصبح الصباح، انطلاقاً من قول الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا﴾^(١).

وإذا ما تأملنا أوقات الصلوات المفروضة، لوجدنا أن في تحديدها بهذه الأوقات حكمة بالغة، ليكون الإنسان متكيفاً مع الطبيعة، لا أن ينام النهار ويقضي الليل بالسهر والسمر، ولا يأكل الطعام في الأوقات المحددة المفيدة للجسم، بل يأكله في أوقات يصعب للمعدة هضمه مما يؤدي به إلى أمراض سوء التغذية.

صلاة الليل

ومن الأمور المرتبطة بالتكيف مع الطبيعة، هو صلاة الليل. كيف؟ صحيح أن الليل وقت استراحة، لكن ليس للجسم وحده، بل للروح أيضاً. وإراحة الروح أهم من إراحة الجسم. فالليل وقتٌ للمناجاة، وقت إراحة الروح، وقت إزاحة الهموم عن النفس، وهو وقت تطهير القلب من الأدران.

تقول الإحصائيات العلمية: إن أكثر الأمراض المنتشرة في العالم منشؤها توتر الأعصاب، مثل أمراض ضغط الدم والسكري والذبحات الصدرية ..

ودليل توتر الأعصاب هو تراكم شحنات من الضغوط النفسية على الإنسان، مما يؤدي إلى انفجارها في لحظة ما. فلو كان للإنسان وسيلة لتفريغ هذه الشحنات، لسهل عليه التخلص من الأمراض.

(١) سورة الفرقان، آية ٤٧.

وصلاة الليل هي أفضل فرصة لهذا الأمر؛ لأن المؤمن حين يستيقظ من منامه فإنه يكون مفعماً بالإيجابية، وتمتلئ روحه شكراً لأنعم الله. ألا ترى أنه يتدبّر صباحه قائلاً: «يَا مَنْ أَرْقَدَنِي فِي مَهَادِ أَمْنِهِ وَأَمَانِهِ، وَأَيَقِظَنِي إِلَى مَا مَنَحَنِي بِهِ مِنْ مَنِّهِ وَإِحْسَانِهِ، وَكَفَّ أَكُفَّ السُّوءِ عَنِّي بِيَدِهِ وَسُلْطَانِهِ»^(١).

ويتوجّه المؤمن إلى الله عبر نعمه، ألا ترى كيف أن نظره للنجوم هو نظرة اعتبار حين استيقاظه للصلاة قائلاً: إن هذا ليس بباطل. يقول الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾^(٢).

وبعد ذلك تجده يستغفر الله تعالى من ظلمه للعباد، بل ويستغفر لمن ظلمه من عباد الله ليكون وسيلة لغفران ظلمه. أليس في هذا الفعل إراحة للروح من الضغينة والحقد والبغضاء؟ أليس الإنسان يعود نقي الروح بعد الصلاة والدعاء؟.

ومن هنا، يكون العمر الطويل والهنئ من نصيب المصلي بالليل، ذلك لأن روحه تخلو من منغصات العيش ومكدراتها؛ فعمره الطويل ملازمٌ لراحة روحية، وهذه هي الحياة الطيبة والسعيدة.

قيام الليل

وليس بالضرورة أن يكون الإنسان مصلياً ليله لله عز وجل، بل هناك عناوين ثلاث تشترك في الفائدة مع التفاوت في الدرجة:

(١) بحار الأنوار، ج ٨٤، ص ٣٤٠، من دعاء الصباح لأمر المؤمنين عليه السلام.

(٢) سورة آل عمران، آية ١٩١.

فـ(صلاة الليل) عنوانٌ، و(قيام الليل) عنوان آخر، بينما (الاستغفار في الليل) عنوان ثالث.

١- المستغفر في السحر يحصل على ثواب عظيم، وربما ينتبه المؤمن من نومته للحظة فيذكر الله في تلك اللحظة ويستغفر من ذنوبه استغفار نادم، ويرجع ويخلد إلى النوم، فيكون من المستغفرين بالأسحار.

٢- الدعاء في الليل، وقراءة القرآن؛ والطلب من الله الرحمة في آيات الرحمة، والتعوذ من العذاب عند المرور بآيات العذاب.. هذا قيام الليل.

٣- وصلاة الليل أيضاً، بأن يصلي الإنسان لربه في جوف الليل، ولو بركتين خفيفتين، ولو قبل منامه؛ المهم أن يصلي لله النافلة. وقد كان النبي الأكرم ﷺ يقسم ليله إلى ثلاثة أثلاث، يصلي في كل ثلث بعض الركعات ثم يعود للراحة، وإذا ما قام في الثلث الأخير لم يكن ينام حتى تطلع الشمس وكان ينشغل بالصلاة والدعاء.

لا بد للمؤمنين في كل مكان أن يعملوا على تعويد أنفسهم على أداء صلاة الليل، وسائر صلوات النوافل. فالنوافل مكملاتٌ للفرائض الناقصة. فقد قال الإمام علي بن الحسين عليه السلام لأحد أصحابه: «أَتَعْلَمُ أَنَّهُ لَا يَقْبَلُ مِنْ صَلَاةِ الْعَبْدِ إِلَّا مَا أَقْبَلَ عَلَيْهِ؟ فَقَالَ لَهُ: يَا ابْنَ رَسُولِ اللَّهِ؛ قَدْ هَلَكْنَا إِذَا. قَالَ: كَلَّا؛ إِنَّ اللَّهَ يُتِمُّ ذَلِكَ بِالنَّوَافِلِ»^(١).

وكلنا يعرف أن من صفات المؤمن الحقيقي هي صلاة إحدى وخمسين، فلنجتهد في القيام بهذه الصلوات وخصوصاً صلاة الليل.

(١) مستدرک الوسائل، الميرزا النوري، ج ٣، ص ٥٦.

بصائر وأحكام

١ - الأنظمة التي يُسميها علماء الدستور (قوانين الطبيعة) ويستلهمون منها دساتيرهم جزء مما أركزه الرب في طبيعة خلقه وفي فطرة البشر من سنن ثابتة، وعلينا أن نسعى للتوافق معها، لأن في مخالفتها المزيد من العناء.

٢ - وصلاة الليل والاستغفار يساهمان في عودة الإنسان إلى فطرته، وإلى أحضان الطبيعة.. وذلك عبر تفريغ شحنات أعصابه، وتطهير أدران قلبه، ومقاربته مع النظام السائد على العالم، والتقرب إلى ربه زلفى.



قليلاً من الليل ما يهجعون

﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَيَا لَأَشْحَارٍ هُمَّ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُورِ ﴿١٩﴾﴾

تفصيل القول

نافلة أشبه بالفريضة

بالرغم من أن (صلاة الليل) أو (قيام الليل) من المندوبات في الشريعة الإسلامية، إلا أننا من خلال التأكيدات الموجودة في الآيات والروايات تجاه هذه النافلة، يمكننا أن نعدّها من المندوبات المتأخّرة للواجبات، بل كانت من الصلوات المكتوبة على المسلمين في بداية عهد الإسلام، إلا أن الله تعالى خفّف عنهم وجعلها مندوبة، وأبقى الوجوب مختصّاً بالنبي الأكرم ﷺ. فما الحكمة في صلاة الليل، أو قيام الليل؟

وكما قلنا: إننا نفرّق بين العنوانين؛ فالأول يختص بالصلاة، والثاني يشملها ويشمل الدعاء وقراءة القرآن وقضاء حاجات المؤمنين (إذ إن الكثير من المؤمنين يسعون في قضاء حوائج المحتاجين في ظلمة الليل لكيلا يكتشف أحدٌ فعلهم) ...

لماذا التأكيد على قيام الليل؟

لماذا هذا التأكيد الكبير في الروايات على هذه النافلة؟

لكل إنسان قيم وأهداف مقدّسة يريد الوصول إليها، وهذا سر اختلاف البشر عن سائر الأحياء، حيث إن مما أودعه الله في الإنسان هو حب التكامل، ومن أهداف الإنسان في هذه الحياة أن يعيش محبوباً بين الناس، ومن أهدافه أن يكون عيشه هنيئاً، ومن أهدافه أن يسمو نحو الكمالات.

إن الصلاة في الليل أو قيام الليل يساعد الإنسان في هذا المسير، فيحصل على همة عالية وعزم شديد للوصول إلى الأهداف السامية. يقول ربنا عز وجل: ﴿وَمَنْ أَلَّيْلٍ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾^(١).

وكما نعلم «نَزَلَ الْقُرْآنُ بِإِيَّاكَ أَغْنِيْ وَأَسْمِعِي يَا جَارَةٌ»^(٢) وهو حديث مروي عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام، ولذلك فإن الآية هذه لا تخص النبي ﷺ، ودليل ذلك أن صلاة الليل كانت فريضة على النبي ﷺ دون غيره من المسلمين كما ذكرنا.

وقد جاءت لفظة التهجد في هذه الآية، فماذا تعني هذه الكلمة؟

(١) سورة الإسراء، آية ٧٩.

(٢) الكافي، الشيخ الكليني، ج ٢، ص ٦٣١.

الهجود يعني النوم، ولكن التهجد - وهو من المصدر نفسه -
يعني محاربة النوم ومقاومته مع شدة الميل إليه.

والنافلة بمعنى الزيادة، فيمكننا أن نستفيد من هذه الكلمة، أن
صلاة الليل تُعلي شأن مصلّيها، وتوصله إلى المقام المحمود، حيث إنه
يضيف إلى الفريضة عبادة غير واجبة عليه، فيرزقه الله المزيد من الرفعة.

المقام المحمود

إن المقام المحمود هو من المقامات العالية في القيامة، التي يمكن
للإنسان أن يصل إليه عبر صلاة الليل، ليكون محموداً عند الرب تعالى
أولاً، وعند خلقه ثانياً.

امتطاء الليل

يقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَرْمِلُ (١) قِرْ آلِيلَ إِلا قَلِيلاً (٢) نِصْفَهُ أَوْ انْقُصْ
مِنْهُ قَلِيلاً (٣) أَوْزِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً (٤) إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلاً (٥) إِنَّ
نَاشِئَةَ آلِيلٍ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلاً (٦)﴾ (١).

وهذا الخطاب أيضاً ليس مخصوصاً بالنبى ﷺ، فلماذا القيام

في الليل؟

تُجيب آيات سورة المزمل عن هذا التساؤل. فقيام الليل يكون
لترتيل القرآن الكريم ترتيلاً؛ فتلاوة القرآن الكريم في آناء الليل تختلف
عنها في الأوقات الأخرى من اليوم. ففي الليل يكون الإنسان مستعداً
لتلقي الأوامر الإلهية وتحمل المسؤولية تجاهها؛ لأن ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ آلِيلٍ هِيَ
أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلاً﴾.

(١) سورة المزمل، آية ١-٦.

العلم الحقيقي

والعلم الحقيقي الذي يتطلّع الإنسان للحصول عليه، يمكنه الحصول عليه عبر امتطاء صهوة الليل والتضرّع إلى الله عز وجل فيه. فإذا كان الإنسان يكتسب المزيد من المعلومات نهاراً، فإنه في الليل يكتسب ذات العلم. أليس العلم هو نورٌ يقذفه الله في قلب من يشاء؟ وإني أوصي طلاب العلم دوماً، بأن يطلبوا المعرفة بالنهار وبالليل؛ أما في النهار فعبر الدرس والمطالعة والبحث، وأما في الليل فعبر التضرّع إلى الله عز وجل. ففي النهار يقرأ الإنسان الأسطر السوداء على الأوراق البيضاء، وفي الليل يُنقي قلبه من سواد المعصية والعصية، وذلك عبر الانقطاع إلى الله عز وجل، حتى إذا صفى قلبه استنار بالعرفان.

وكم من العلماء كانوا يطلبون العلم في الليل عبر تلاوة القرآن والتضرّع إلى الله عز وجل والمسألة إليه. يقول الله عز وجل عن أمثالهم: ﴿أَمْ مَنْ هُوَ قَنِيذٌ ءَاتَاءَ الْبَيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾^(١).

فمن أراد العلم والتقوى والخلق الحسن والمقام المحمود.. فعليه بالمداومة على قيام الليل؛ إما بالصلاة، أو بترتيل القرآن، أو الاستغفار، أو حتى التفكّر في خلق الله تعالى. ألم يقل ربنا عز وجل: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلاً سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾^(٢).

(١) سورة الزمر، آية ٩.

(٢) سورة آل عمران، آية ١٩١.

قلة النوم

١ - ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾

قال بعض المفسرين في بيان معنى هذه الآية: ليس المعنى هو أنهم ينامون جزءاً من الليل، بل يعني أنهم قليلاً ما كانت تفوتهم عبادة الله في الليل، بسبب المرض أو أي شيء آخر. وهذا المعنى يتناسب مع الروايات الواردة عن النبي ﷺ وأهل البيت . فقد روي عن الإمام جعفر الصادق ، أنه سئل عن قول الله تعالى: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ قَالَ: «كَانُوا أَقَلَّ اللَّيَالِي تَفُوتُهُمْ لَا يَقُومُونَ فِيهَا»^(١).

ولهذه الآية معنى آخر، وهو أنهم كانوا ينامون الليل، ولكن لم تكن قلوبهم تنام، بل كانوا يهجعون. فكان نومهم خفيفاً، فتأخذهم السُّنات لا النوم العميق، فتنام عيونهم ولا تنام قلوبهم. وهذا المعنى يتناسب مع قوله تعالى: ﴿فِرُّوا لَيْلًا إِلَّا قَلِيلًا﴾^(٢).

الاستغفار

٢ - ﴿وَبِأَلْسَانِهِمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾

فهم يطلبون من الله المغفرة. والاستغفار الحقيقي هو أن يستغفر الإنسان من ذنب يعترف به، لا أن يستغفر الله ثم إذا سُئِلَ عن ذنبه أجاب بأن لا ذنب له، بل يعترف بذنبه ويستغفر الله منه، فيغفر الله له.

والاستغفار يفتح طريق وصول النعم الإلهية للإنسان، الطريق الذي أغلقه الإنسان بذنوبه ومعاصيه وانحرافه عن الجادة. قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب : «وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ الْإِسْتِغْفَارَ

(١) الكافي، الشيخ الكليني، ج ٣، ص ٤٤٦.

(٢) سورة المزمل، آية ٢.

سَبَباً لِدُرُورِ الرِّزْقِ وَرَحْمَةِ الْخَلْقِ»^(١). وقال ﷺ أيضاً: «عَجِبْتُ لِمَنْ يَقْنُطُ وَمَعَهُ الاسْتِغْفَارُ»^(٢).

الحق المعلوم

٣- ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾

الحقوق الشرعية من خمس وزكاة وكفارة ونذر وما أشبهه، ليست من مال الإنسان، فهي ليست ملكاً له، فهي حقوق الله والناس عنده. فلا يُسمَّى الخمس مالاً للشخص، لأنه لا يملكه.

أما بعد الحقوق الشرعية، فينفق الإنسان المتقي من أمواله للسائل والمحروم. فالسائل قد أذل نفسه بسؤاله، وبذل ماء وجهه في سؤاله، فينبغي على المؤمن ألا يرد السائل ولو باليسير، ولو بالطيب من القول، فإن لماء الوجه قيمة.

يُنْقَلُ أَنْ تَاجِرًا مِنْ الْهِنْدِ قَدْ شَكَا إِلَى الْمِيرْزَا حَسَنِ الشَّيرَازِيِّ رِضْوَانَ اللَّهِ عَلَيْهِ كَثْرَةُ تَوَافُدِ الْمَسَاكِينِ عَلَى بَابِ بَيْتِهِ، فِي لَيْلَةِ إِقَامَتِهِ فِي سَامَرَاءَ. فَقَالَ لَهُ الْمِيرْزَا: أَحْمَدُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ جَعَلَكَ غَنِيًّا يَسْأَلُكَ النَّاسُ فَتُنْفِقَ عَلَيْهِمْ، وَلَمْ يَجْعَلَكَ فَقِيرًا تَطْرُقُ أَبْوَابَ الْأَغْنِيَاءِ.

هذا هو المسكين، أما المحروم فهو ذلك الذي لا يسأل الناس تعففاً، بل يتعرف الإنسان على حالته فيُعِينُهُ ويُنفِقُ عَلَيْهِ. وقيل: إن المحروم هو من يعمل ويكد، ولكنه لا يحصل على الرزق الكافي له ولعِيَالِهِ.

(١) نهج البلاغة، خطبة رقم ١٤٣.

(٢) نهج البلاغة، حكمة رقم ٨٧.

بصائر وأحكام

١ - بالرغم من أن قيام الليل نافلة، إلا أنها أشبه بالفريضة، لمزيد من التأكيد عليها. أو ليس لكل من البشر تطلعات، ولتحقيقها لا بد من عزم شديد؟ بلى؛ وإنه في الليل يشتد العزم، وهكذا بالتهجد فيه يُرجى للإنسان التسامي إلى المقام المحمود.

٢ - وفي الليل يصفو القلب ويتلقى المؤمن نور المعرفة من ربه؛ فإذا كان في النهار يزداد معلومات، فإنه في الليل يزداد علماً.

٣ - وفي الليل يحاسب المؤمن نفسه، ويتبصر بفضل الله على مواطن الضعف والخطأ من نفسه، فيستغفر الله ليتقرب إليه ويعود إلى جادة الصلاح.

٤ - والمؤمنون يجعلون في أموالهم حقاً معلوماً، ولعله يتجاوز ما فُرض عليهم من الحقوق العامة.



آيات للموقنين

﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ﴾.

تفصيل القول

الله تعالى في خليقته آيات كثيرة، فما حقيقة الآية، وما الحكمة منها؟.

إن الله تعالى يجعل لكل حقيقة من الحقائق آية تدل عليها، بل مجموعة من الآيات والدلائل التي تشير إليها، كما أنه سبحانه يجعل لكل باطن ظاهراً يدل عليه، وقد أحكم الله تعالى الخليفة في هذا الجانب إلى درجة عدم إمكان إخفاء الحقائق لما لها من دلائل.

خذ مثلاً من المرض الذي قد يُبتلى به الإنسان، فإن لكل نوع من أنواعه الكثير من العلامات التي تدل عليه. ولذلك فإن الأطباء لا يُحدّدون نوعية المرض إلاّ بعد أن يُعاينوا المريض مباشرة، ويُدقّقوا

النظر في الأعراض التي تطرأ على الفرد. وكذلك فإن المهندس يستطيع أن يُحدّد البناء الجيد ويُميّزه عن الرديء من خلال معايير شتى تدل عليه.

ولذلك فإن معرفة الحقائق تكون عبر العلامات الدالة عليها، ولكن مع ذلك فإن هناك شروطاً موضوعية لهذا الأمر، للوصول إلى الحقيقة أئى كانت، هي:

١ - أن تكون لدى الإنسان إرادة حقيقية للوصول إلى الحقائق.

٢ - معرفة الإنسان العلاقة بين الدال والمدلول؛ أي بين العلامة والحقيقة. فمعرفة اصفرار وجه المريض لا تكفي لتشخيص أنه مريض، بل لا بد من معرفة العلاقة بين الأمرين، وهذه المعرفة ضرورية وإن كانت مجمّلة. ويبدو أن القرآن الكريم يُسمّي علائم الحقائق بالآيات، ويُوليها الكثير من الاهتمام.

آيات الحقائق

وبالرغم من أن لهذا الأمر أهمية كبيرة، إلّا أنني لم أجد بحثاً جامعاً قد حوى بين دفتيه هذا الموضوع. بلى؛ إن آيات الله على ثلاث درجات:

١ - آياته في كتابه، التي يجب أن يؤمن بها الإنسان جميعاً، ولا يجوز أن يؤمن ببعض ويكفر ببعض.

٢ - آياته الدالة عليه في آفاق الخلق.

٣ - الآيات الإلهية المتجلية في الأنبياء ﷺ، والأئمة الطاهرين ﷺ.

وبالنسبة إلى كل هذه الآيات لا يستفيد منها إلا من توافرت فيه صفات معينة، من أبرزها اليقين، حيث يقول ربنا سبحانه: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ﴾

قال بعض المفسرين في تفسير هذه الآية: إن في الأرض آيات لطالبي اليقين، فمن أراد الوصول إلى اليقين فإن في الأرض له آيات. ولكن هذا التفسير لا يتناسب مع سياق القرآن الكريم هنا؛ فالكلام أن الآيات للموقن، لا لمن يريد الحصول على اليقين مستقبلاً. والسؤال: ما هو اليقين، وكيف نحصل عليه؟

طريق اليقين

ليس الله سبحانه بعيداً عنا، فما من نجوى بين اثنين إلا وكان الله ثالثهما، وإنه أقرب إلينا من حبل الوريد. أليس الله هو الذي يُفيض علينا الحياة والكينونة؟ فوجودنا قائم بالله عز وجل، وهو أقرب إلينا منا، فلماذا نغفل عنه مع كل ذلك؟ وما هو السر في غفلتنا عنه؟

بلى؛ إنه قريب منا، بينما نحن الذين حجبنا أنفسنا عنه. وكما جاء في دعاء الإمام علي بن الحسين عليه السلام: «وَأَنَّ الرَّاحِلَ إِلَيْكَ قَرِيبٌ الْمَسَافَةِ، وَأَنْتَ لَا تَحْجُبُ عَنْ خَلْقِكَ إِلَّا أَنْ تَحْجُبَهُمُ الْأَعْمَالُ دُونَكَ»^(١).

فأعمالنا هي التي تحجبنا عن ربنا. السبيل إذاً إليه يمر عبر خرق الحجب والحصول على اليقين. فمن أين نأتي باليقين؟ وما هو اليقين أساساً؟

(١) مصباح المتهجد، الشيخ الطوسي، ص ٥٨٢.

في الإجابة نقول: إن اليقين هو أقل شيء قسمه الله على عباده. فَنِعَمَ اللهُ عز وجل على عباده كثيرة ومتنوعة ومتعددة لا يمكن للناس عدّها وإحصاؤها، إلّا أن هناك نعمة لم يُنعم بها الله إلّا على قليل من الخلق، وهي نعمة اليقين. وقد روي عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام أنه قال: «الإيمان فوق الإسلام بدرجة، والتّقوى فوق الإيمان بدرجة، واليقين فوق التّقوى بدرجة، ولم يُقسم بين العباد شيء أقلّ من اليقين»^(١).

فاليقين قليل جداً، وهو خطرات. قال الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «الإيمان في القلب، واليقين خطرات»^(٢).

فربما يحضر الإنسان مجالس الإحياء في ليالي القدر، ويلبث فيها ساعات، ولكنه لا يحصل على يقين إلّا لثانيتين أو ثلاث، ثم ينتهي كل شيء، ولكنه يستلذ طويلاً بلحظات يقينه التي هي بمثابة الشراب الطهور من الله لعبده.

والحاج يطوف حول البيت، ويسعى بين الصفا والمروة، ويقف بعرفات... ولكنه لا يحصل على اليقين إلّا لحظات. بلى؛ إنه يتذوق حلاوة تلك اللحظات ربما إلى آخر عمره، ولعله لذلك يحاول جاهداً العودة إلى الحج للحصول على مثله مرة أخرى.

ومن هنا نجد أن هذه الحالة العالية من الإيمان، تتوق روح المؤمن إليها دوماً، ويطلبها من ربه ملتمساً. ففي المناجاة الشعبانية لأُمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام نقرأ: «هَبْ لِي كَمَالَ الْإِنْقِطَاعِ إِلَيْكَ، وَأَنْزِرْ أَبْصَارَ قُلُوبِنَا بِضِيَاءِ نَظَرِهَا إِلَيْكَ، حَتَّى تَحْرِقَ أَبْصَارَ

(١) الكافي، الشيخ الكليني، ج ٢، ص ٥٨٢

(٢) المحاسن، الشيخ أحمد بن محمد البرقي، ج ١، ص ٢٥٠

الْقُلُوبِ حُجْبَ النُّورِ فَتَصِلَ إِلَى مَعْدِنِ الْعَظَمَةِ، وَتَصِيرَ أَرْوَاحُنَا مُعَلَّقَةً بِعِزِّ قُدْسِكَ»^(١).

وبرأيي أن هذه الفقرة هي قلب هذه المناجاة الرائعة من أمير المؤمنين عليه السلام، حيث يطلب المؤمن من ربه الانقطاع إليه، ويطلب من ربه أن ترتفع عنه حُجْبُ النور التي تفصل بينه وبين خالقه، ناهيك عن حُجْبِ الظلمة؛ فحجب الظلمة هي المعاصي والجهالات والغفلة، وحجب النور هي العبادات والعلم .. فيطلب المؤمن ألا تكون حتى عباداته وقرباته حُجْباً تحجبه عن ربه.

فهذا ما علمنا أئمتنا عليهم السلام، ولكن أين نحن من هذه التعاليم؟ لماذا لسنا موقنين؟ نصلي ونصوم ونزكي .. ولكننا لا نصل إلى الله عز وجل، فلماذا ذلك؟

لأننا أخطأنا الطريق الموصل إلى الله عز وجل وإلى اليقين، لأننا أردنا أن نعرف الله عز وجل من خلال تصوّره؛ لأن البشر إذا ما أراد معرفة حقيقة خافية عليه، فإنه لا يفتأ يقيسها بغيرها من الحقائق التي يعرفها. فلو قيل لشخص: إن هناك مدينة في الصين، فإنه سوف يتصوّر تلك المدينة كسائر المدن التي يعرفها. ولو قيل: إن هناك كوكباً يبعد عن كوكبنا بسنين نورية، لتصورنا ذلك الكوكب بما نعرفه من الكواكب المعروفة وقسناه بها. ولكن هذا منهج خاطئ فيما يتصل بمعرفة الرب؛ لأن الخالق لا يُقاس بخلقه سبحانه. وإن أول خطوة في طريق العودة إلى الله تتمثل في تنزيه الله عمّا تصورناه في أذهاننا؛ لأن ما تصورناه هو مخلوق لنا، مردود إلينا. أما الله عز وجل فلا يُمكننا أن نتصوّره، أو نتخيله، أو نُمثّله، أو نقيسه بشيء آخر أبداً.

(١) إقبال الأعمال، السيد ابن طاووس، ج ٣، ص ٢٩٩.

ومن هنا فإن أعظم ذكر هو تسييح الله عز وجل حين نقول: (سُبَّوح، قَدُّوس، رَبُّ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحِ)، وحين نكرر قولنا: (سبحان ربي الأعلى) و(سبحان ربي العظيم).. وذلك يعني أننا نُنْزِّه الله تعالى عَمَّا نتخيله. فالله أعلى وأسمى من أن نعرفه كنه المعرفة. بلى؛ يمكننا معرفة الله من خلال الآيات التي بثّها في العالم، ومن خلال أفعاله اللطيفة، ومن خلال نعمه المتواترة علينا.

ومن هنا نجد أن من شروط استجابة الدعاء، الشناء على الله سبحانه قبل الابتداء بالدعاء. وهذا الأمر جليٌّ لمن يقرأ الأدعية الماثورة عن النبي ﷺ وأهل البيت عليه السلام، ثم تذكر النعم التي أنعمها الرب على الداعي، وكيف أنه كان في غمرة من مشاكل فأنقذه الله تعالى منها؛ عليه أن يتذكرها ليزداد معرفة بالله.

المهم أن يصل الإنسان إلى مرحلة يعيش فيها مع الله عز وجل وكأنه يراه.

روي عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنه قال: «بَيْنَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام يَخْطُبُ عَلَى مِنْبَرِ الْكُوفَةِ، إِذْ قَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ يَقَالُ لَهُ ذِعْلَبُ، ذُو لِسَانٍ بَلِيعٍ فِي الْخُطْبِ، شُجَاعُ الْقَلْبِ، فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؛ هَلْ رَأَيْتَ رَبَّكَ؟

قَالَ: وَيْلَكَ يَا ذِعْلَبُ؛ مَا كُنْتُ أَعْبُدُ رَبًّا لَمْ أَرَهُ.

فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؛ كَيْفَ رَأَيْتَهُ؟

قَالَ: وَيْلَكَ يَا ذِعْلَبُ؛ لَمْ تَرَهُ الْعُمُونَ بِمُشَاهَدَةِ الْأَبْصَارِ، وَلَكِنْ رَأَتْهُ الْقُلُوبُ بِحَقَائِقِ الْإِيمَانِ»^(١).

(١) الكافي، الشيخ الكليني، ج ١، ص ١٣٨.

لنسعى للوصول إلى هذه الحالة، بأن نصير أرواحنا معلقة بعز قدسه. وإذا وصلنا إلى هذه الحالة في لحظة من لحظات، فأفضل دعاء عندها ندعو به ربنا، هو أن يُيقننا عليها ولا يسلبنا ما نحن فيه. وكلمة أخيرة:

لماذا جاءت هذه الآيات للموقنين وخصّصت لهم؟

لعل السبب أن الموقن يحظى بدرجة عالية من الإيمان بالله تعالى، فيستوعب آيات الله المبتوثة في هذه السورة، التي لا يمكن أن يصل إليها إلا الكُمَّلون من البشر، وهم أهل اليقين. ومن هذه الآيات حكمة الخلق، وهيمنة تدبير الرب عز وجل في الخليقة.

بصائر وأحكام

١ - الآية هي الدليل على الحقائق، وآيات الله ثلاثة: آية تقرأها في كتاب ربك، وآية تُبصرها في آفاق الخلق، وآية تراها في عباد الله المصطفين.

٢ - واليقين خطرات، وهو أقل ما يقسم بين العباد، والمؤمن يسعى إليه باجتهاده في العبادات. وعلينا تجاوز أكبر عقبة دون معرفة ربنا، هي تنزيه الرب من التشبيه بعباده.



وفي السماء رزقكم وما توعدون

﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿١١﴾ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿١٢﴾﴾.



تفصيل القول

١ - ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾

هنا يُذكرنا القرآن بما يتجلى في حياتنا من الآيات التي تهدينا إلى معرفة الخالق سبحانه، وهي على نوعين:

١- جوارحك تذكرك بالله

فهذه العين التي بها يبصر الإنسان، كم هي عظيمة؟!، وكم من الخلايا المتناهية في الصغر والدقة تشترك فيما بينها لتنتقل للإنسان ما يحدث حوله إلى دماغه ليتصرف حسبما يقتضيه صلاحه؟!.

وقلب الإنسان، هذا الجسم المخروطي الذي يضخ الدم إلى كل الجسد، وبه تنبض الحياة للإنسان، كيف أنه يُشكّل عالماً مستقلاً في الإنسان، وقد توصل الخبراء اليوم إلى أن له حياة مستقلة، حيث تختزن فيه بعض المشاعر والمعارف، وشبكة الدماغ المبتوثة عبر الأعصاب في الجسم، التي عجز الإنسان عن معرفة الكثير من أسرارها بالرغم من جهوده الكبيرة في ذلك، ومنظومة الأجهزة الهاضمة والكلية والكبد وسلسلة الغدد التي كل واحدة منها عالم بذاته. أليست كل هذه آيات تدل على الصانع الخبير؟.

وفي كل شيء له آيةٌ تدل على أنه واحد

٢- روح الإنسان آفاق لا تحد

ما هذا الخلق العظيم الدال على قدرة الله عز وجل، وهو الروح التي تضم عدة نعم إلهية هي:

ألف: الحياة؛ الحقيقة التي لم يصل إلى كنهها الإنسان لحد اليوم مهما حاول، حتى أن بعض العلماء صنعوا حبة عدس تشبه العدس الطبيعي في كل مقوماته، ولكنهم حين زرعوها لم تنبت، لأنها تفتقر إلى الحياة. وقوام الجسد بالحياة الموجودة في هذه الروح.

باء: العقل؛ خَلَقَ خلقه الله عز وجل وأودعه في الإنسان، فكرم الإنسان به؛ فبه يكتسب الجنان، وبه يعبد الرحمن، وبه يسخر ما في الخلق، وبه يتسامى إلى ما وراء الطبيعة.

تاء: الإرادة؛ فبالإرادة يختار الإنسان الطريق، وفيها تكمن حرية الإنسان في الاختيار، ويعيش حرّاً أبياً. ولعل هذه النعمة هي

أعظم النعم في الروح.

أليست هذه النعم كلها موجودة في الإنسان؟ ألا يتدبر فيها قليلاً ليصل بها إلى خالقه الجبار؟.

بلى؛ بإمكان الإنسان الوصول إلى باريه من خلال الآيات الموجودة في نفسه، إلا أن ذلك يحتاج إلى البصيرة، كي يتمكن من هذا الأمر.

لكن مشكلة الإنسان تكمن في أن نظرتة للحياة ليست نظرة العبور من الآية إلى ما وراءها؛ من الظاهر المشهود إلى غيب الباطن. وبكلمة؛ ليست نظرتة ذات اعتبار؛ إنه يكتفي بما هو مشهود أمامه دون الوصول من خلاله إلى الحقائق. وكما قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام): «مَا أَكْثَرَ الْعَبْرَ وَأَقَلَّ الْإِعْتِبَارَ»^(١).

ألا ترى إلى الإنسان العادي الذي يرى طفلاً يعدو أمام عينه فيسقط، يتعامل مع هذا الموقف تعاملًا عاديًا، بينما أولو الألباب يعبرون من هذه الحادثة إلى حقائق عدة، منها مثلاً أن والدي الطفل لم يتصدّقاً ليدفعا عن ابنهما البلاء، وإنهما لم يبذلا له العناية الكافية والرعاية المناسبة، وأن الشارع ليس معبداً، وما أشبه.

وينقل عن أحد العلماء أنه رأى خطأ من ولده، فعاد إلى البيت مسرعاً، فسأل زوجته هل أكلت ما لا حراماً حين كنت حامله بالطفل؟ لأنه (أي العالم) راجع نفسه فلم يجد ما لا أو طعاماً محرماً دخل جوفه، وبالتالي فإن نطفة الطفل طاهرة ونقية. فأجابت الأم بأنها ثقبت رمانة الجار من دون إذنه وشربت من مائها حين كانت حامله بالطفل. فقال العالم: هذا من ذاك.

نعم؛ إن أولياء الله يجعلون الحياة مدرسة لأنفسهم، يتعلّمون

(١) نهج البلاغة، حكمة رقم ٢٩٧.

في كل لحظاتها، ويتقربون إلى الله عز وجل. فعن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: «كَانَ أَكْثَرُ عِبَادَةِ أَبِي ذَرٍّ - رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِ - خَصْلَتَيْنِ: التَّفَكُّرُ وَالْإِعْتِبَارُ»^(١). فكان يمر على الدار الخربة، فيخاطبها قائلاً: أين بانوك، أين ساكنوك؟ فيتعظ بها.

نعم، هذه هي البصيرة التي يحتاج إليها الإنسان للعبور من الدلائل إلى مدلولاتها.

الوعد والوعيد

٢ - ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾

من أين يأتي رزق الإنسان؟.

الآية تُجيب عن هذا التساؤل بأن رزق الإنسان يأتي من السماء. فالماء وهو مصدر الرزق الأساس، يأتي من السماء فيستقر في الأرض. وكان يظن الناس أن المصدر الأساس للمياه هو من الأرض حتى تبين لهم العكس، وكذلك الطاقة بأنواعها المختلفة نازلة من السماء.

وكما أن الرزق يأتي من السماء، فكذلك العذاب الإلهي ينزل من السماء أيضاً، لماذا؟.

لأن الإنسان يفرّ من العذاب في حال كونه من الأرض، فيأوي إلى جبل، أو كهف، أو.. لكن إذا كان العذاب نازلاً من السماء، فإنه لن يكون له عاصم منه، ذلك لأن السماء محيطة بالأرض.

ومن هنا نجد المؤمن حينما يدعو ربه يرفع يده إلى السماء؛ فلا يرفعها

(١) الخصال، الشيخ الصدوق، ص ٤٢.

لأن الله في السماء؛ تعالى الله من أن يحويه مكان، بل لأن النعم الإلهية التي يرجوها تنزل من السماء، وكذلك العذاب الذي يخشاها ينزل منها.

وفي هذه الآية تبيان للناس، أنكم أيها البشر تعيشون في بحبوحة رحمة الله ونعمه، وفي الوقت نفسه فإن معيشتكم وحياتكم تحت هيمنة الرب عز وجل؛ فإياكم أن تعصوه، لأنكم لا تقدرون على الخروج من مملكته، ولا تقدرون على مقاومة سطوته.

يروى أن رجلاً جاء إلى الامام علي بن الحسين عليه السلام، وقال: «أنا رجلٌ عاصٍ، ولا أَصبرُ عن المعصية، فَعِظْني بِمَوْعِظَةٍ. قَالَ عليه السلام: افْعَلْ خَمْسَةَ أَشْيَاءَ وَأَذِيبْ مَا شِئْتَ، فَأَوَّلُ ذَلِكَ: لَا تَأْكُلْ رِزْقَ اللَّهِ وَأَذِيبْ مَا شِئْتَ، وَالثَّانِي: اخْرُجْ مِنْ وَلَايَةِ اللَّهِ وَأَذِيبْ مَا شِئْتَ، وَالثَّالِثُ: اطْلُبْ مَوْضِعاً لَا يَرَاكَ اللَّهُ وَأَذِيبْ مَا شِئْتَ، وَالرَّابِعُ: إِذَا جَاءَ مَلَكُ الْمَوْتِ لِيَقْبِضَ رُوحَكَ فَادْفَعْهُ عَنْ نَفْسِكَ وَأَذِيبْ مَا شِئْتَ، وَالْخَامِسُ: إِذَا أَدْخَلَكَ مَالِكٌ فِي النَّارِ فَلَا تَدْخُلْ فِي النَّارِ وَأَذِيبْ مَا شِئْتَ»^(١).

بصائر وأحكام

لكي يتَّخذ المؤمن الحياة مدرسة يتكامل عبرها إلى ربه، عليه أن يتأمل في نعم الله المحيطة به؛ في جسمه الذي هو خزانة نعم الرب، وفي روحه التي هي أعظم آية فيها حياةً وعقلاً وإرادةً، وفي السماء التي منها ينزل رزقه وقد تكون مصدر العذاب.

(١) جامع الأخبار، ص ١٣١.



إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون

﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقُّ مِثْلَ مَا أَنْتُمْ نَظْفُونَ﴾ (٢٣)
هَلْ أَنْتَ حَدِيثٌ ضَيْفٌ إِبْرَاهِيمَ الْمُكَرَّمِ (٢٤) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ
فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ (٢٥) فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ
سَمِينٍ (٢٦) فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (٢٧) فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ
خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشِّرُوهُ بِعَلْمِهِ (٢٨) ﴿﴾

تفصيل القول

١ - ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقُّ مِثْلَ مَا أَنْتُمْ نَظْفُونَ﴾
ذكر الباري عز وجل الآيات الدالة عليه في الأرض وفي أنفسنا،
ثم بعد ذلك يُقسِم بربوبيته أنه لحق؛ فأَي شيء هو الحق؟
في بداية السورة قسّم الرب عز وجل الناس إلى ثلاثة اتجاهات،
بالنسبة للإيمان بالله واليوم الآخر: فمنهم من أفك عن الحق، ومنهم

من هو في شك مريب، ومنهم من آمن بالله إيماناً صادقاً، وهم المتقون. وبعد بيان الآيات المبثوثة في الأرض والسماء ونفس الإنسان، يُقسّم الرب بعظمته أنه لحق؛ أي القول الذي فيه كان اختلاف البشر، حق.

بصائر

وفي هذه الآية عدة بصائر:

البصيرة الأولى: قد ذكرنا فيما مضى أن القَسَم الإلهي يُبين العلاقة الموجودة بين المُقسَم به والمُقَسَم لأجله. فهنا كان القَسَم برب السماوات والأرض، لبيان أن القول حق، وحقية الدين والإيمان نابعة من ارتباطهما بالله عز وجل، وهو الحق. فالحق يستمد قيمته من صلته برب السماوات والأرض.

البصيرة الثانية: ورد القَسَم بلفظة (الرب)، لأن الاختلاف الأساس بين المشركين والموحدين إنما هو في هذه النقطة، حيث إن المشركين على اختلاف مدارسهم يؤمنون مجماً بوجود خالق، ولكنهم يُنكرون هيمنته المستمرة، وسيطرته الدائمة على الخليقة، وقدرته على التأثير فيها. ولكنّ الموحدين يؤمنون بقدرة الله عز وجل على إبدال ما في الخليقة في كل لحظة، بل الله هو الذي يفيض على العالم بنور التحقق في كل لحظة وأن.

البصيرة الثالثة: قال تعالى: ﴿مَثَلُ مَا أَنْتُمْ نَظْفُونَ﴾. فلماذا جاء التذكير بنعمة النطق لدى الإنسان، دون سائر النعم، كالرؤية والسمع و...؟.

لأن عمل حواس الإنسان تكون في حالة الانفعال. فالبصر هو انعكاس الأشعة من الخارج إلى الداخل، فهو منفعل بالمحيط، والسمع يستقطب الأمواج الصوتية الموجودة في الخارج، وهكذا سائر النعم.. بينما النطق هو الحاسة الوحيدة الفاعلة؛ فحين ينطق الإنسان يكون ناطقاً بمحض إرادته، وكامل اختياره، وتمام قراره.

فربما يسمع الإنسان أصواتاً لا يعيها، أو ينظر إلى أمور تشبه عليه، أو.. لكن حينما يتحدّث فلا يتحدّث إلّا بما يُمليه عليه عقله، إلّا في حالات نادرة.

فالرب يُبيّن هذه الحقيقة، لأن الإنسان يجد في داخله القدرة على أن يتكلّم متى ما شاء ويُمسك عنه متى ما أراد. وهكذا فالوضوح بذاته يتعرّف البشر إلى الحق.

البصيرة الرابعة: النطق ليس بالأمر اليسير جدّاً، فقد قيل: إن ساعة من التكلم بوعي كامل، تصرف من الإنسان مجهوداً كما لو عمل بجسمه لمدة ثماني ساعات. فالتحدث نعمة هامة لدى الإنسان؛ فمثلاً، يتحدّث الإنسان وهي نعمة من نعم الباري عز وجل العظيمة عليه، كذلك عليه أن يحصل على نعمة الهداية والإيمان.

حديث ضيف إبراهيم عليه السلام

ولبيان ما مضى يذكر لنا القرآن الكريم قصة ضيوف النبي إبراهيم على نبينا وآله وعليه السلام.

ولكن قبل الخوض في القصة، لا بد من بيان السبب في تكرار هذا الحديث في الذكر الحكيم المرة بعد الأخرى.

هدف القرآن الكريم ليس فقط تبيان الحقائق، وإنما أيضاً هداية البشر. وهكذا فلكي تنكشف الحقيقة للإنسان فإن القرآن الكريم يكرر الفكرة المرة بعد الأخرى، تارة بالألفاظ نفسها، وأخرى بألفاظ مختلفة. فالقصص التي يذكرها القرآن نراها تتكرر، وربما بألفاظ مختلفة، وعبر بيان جوانب متعددة منها.

ومن هنا علينا أن نقرأ كل قصة من جانب معين، لتأملها ونفكر في معطياتها وحقائقها، لا أن نمر على القصة مروراً سريعاً.

كان الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام يختم القرآن في كل ثلاثة أيام، وكان يقول: «لَوْ أَرَدْتُ أَنْ أَخْتِمَهُ فِي أَقَلِّ مِنْ ثَلَاثٍ لَخَتَمْتُ، وَلَكِنْ مَا مَرَرْتُ بِآيَةٍ قَطُّ إِلَّا فَكَّرْتُ فِيهَا وَفِي أَيِّ شَيْءٍ نَزَلَتْ وَفِي أَيِّ وَقْتٍ، فَلِذَلِكَ صِرْتُ أَخْتِمُ فِي ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ»^(١).

وهذا درسٌ لنا لكي نستفيد من آيات القرآن أكبر استفادة.

٢ - ﴿هَلْ أُنَبِّئُكَ حَدِيثَ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾

كانت عادة النبي إبراهيم عليه السلام ألا يأكل الطعام إلا مع الضيف، وكانت هذه العادة الحسنة فيه حتى نهاية عمره الشريف.

ومن هنا نجد أن القصة تتحدث عن ضيوف إبراهيم عليه السلام، فلم يكن من غير الطبيعي أن يزور النبي ضيوف، ولكن كانت لهؤلاء الضيوف كرامة خاصة.

لنتأمل قليلاً كلمات هذه الآية المباركة:

كلمة ﴿حَدِيثٌ﴾ هنا تعني القصة؛ أي ما حدث في السابق.

(١) الأمالي، الشيخ الصدوق، ص ٧٥٨.

﴿الْمُكْرَمِينَ﴾ من خلال هذه الكلمة نعرف أن الضيوف كانوا يتميزون عن الآخرين، فلماذا كانوا مُكرّمين؟

الضيف له كرامة خاصة، فهو قادم على صاحب الدار، وكان للضيوف هؤلاء كرامة أخرى وهي من خلال أدبهم وهيئتهم ...

فكان ضيوف النبي إبراهيم عليه السلام في العادة من المستطرقين والفقراء والمساكين، ولكن يبدو أن هؤلاء كانت لهم هيئة مختلفة عن الآخرين، وسلامهم وأدبهم كان دليلاً على مكانتهم.

٣- ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾

أجاب النبي سلامهم، ولكنه أنكرهم؛ بمعنى أنهم ضيوف من نوع جديد، فلم يعرفهم النبي عليه السلام، وربما قوله أنهم منكرون، كان في قلبه دون أن يظهره.

٤- ﴿فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ (١٦) فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (١٧) فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ.

وبعدها تحرك النبي تحركاً سريعاً نحو أهله ليأتيهم بعجل سمين، وكان في ذلك دلالة على جود يده في العطاء، فقدّم الطعام لهم. وكما العادة توقّع النبي منهم أن يبدؤوا بالأكل، حيث إن ضيوفه في العادة كانوا من الجائعين، ولكن هؤلاء لم يمددوا أيديهم إلى الطعام، ولذلك أوجس النبي منهم خيفة. لماذا؟

قيل: إنه كان من العادة في ذلك المجتمع أن من لا يأكل الطعام عند المضيف، فإن معنى ذلك أنه قد تابّط شراً للصاحب الدار، ولذلك أوجس النبي منهم خيفة. ولكن هذا مردود بقولهم في البدء: ﴿سَلَامًا﴾.

فمن يُسَلِّم يُعلن السلم وعدم المعادة.

وقيل أيضاً: إنّ من كانت لديه حاجة هامة، لم يكن يطعم الطعام حتى تُقضى حاجته.

ولكنهم سارعوا إلى إذهاب الرّوع من النبي حين أعلنوا أنهم ملائكة الرحمن، قد جاؤوه يحملون معهم البشارة له.

ولقصة النبي إبراهيم عليه السلام مع ضيوفه تمة، سوف نُبينها إن شاء الله تعالى.

بصائر وأحكام

١ - لأن ما في الكتاب من رب السماوات والأرض، فإنه حق؛ كما هو حق نُطق الإنسان بما أوتي من وعي وعزم.

٢ - وفي قصة ضيف إبراهيم عليه السلام مثلاً للحق الذي ينزل من السماء، فإنهم جاؤوا ببشرى لأهل بيت الرسالة وإنذار للكافرين.



قالوا كذلك قال ربك

﴿فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ (٢٧) فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً
قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشِّرُوهُ بَعْلَمَ عَلِيمٍ (٢٨) فَأَقْبَلَتْ أَمْرَأَتُهُ فِي صَرَقٍ
فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ (٢٩) قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ
إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾

تفصيل القول

من العبر التي نستفيدها من خلال قراءة قصص القرآن الكريم،
هي أن يعيش المؤمن مؤملاً رحمة ربه في المستقبل؛ فحين تُغلق جميع
الأبواب أمامه لا ييأس، بل يلجأ إلى ربه ويتوجه إليه بالدعاء والتضرع،
ويعلم نفسه طريقة الاستجداء من الله عز وجل.

ففي الحديث عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام أنه قال:
«عِنْدَ أَسْدَادِ الْفُرَجِ تَبْدُو مَطَالِعُ الْفُرَجِ»^(١). ولكن لماذا الدعاء، ولماذا لا

(١) غرر الحكم ودرر الكلم، حديث رقم ١٧٦٨.

تُستجاب دعواتنا في بعض الأوقات؟.

ليست المشكلة من عطاء الله عز وجل وَجُودِهِ وكرمه، بل الخلل منا نحن البشر. فنحن الذين ضيّعنا بوصلة الوصول إلى الله، وغفلنا عن ربنا، حيث نعيش المشاكل والويلات.. ولكننا لا ندعوه، وإذا دعوانه وأعطانا سؤالنا نسيناه بسرعة، وتناسينا نعمه علينا.

أما المؤمن فإنه يعيش في بحبوحة الرحمة الإلهية؛ فهو يناجي ربه ليل نهار، ويلهج لسانه بذكر الله، ويفوض الأمر إلى القادر، فيريح بذلك قلبه. نقرأ في دعاء الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام الذي علمه لأبي حمزة الثمالي: «مَوْلَايَ يَذْكُرْكَ عَاشَ قَلْبِي، وَبِمُنَاجَاتِكَ بَرَدْتُ أَلَمَ الْخَوْفِ عَنِّي»^(١).

عالم الأمر

تحدثنا في مناسبة أخرى عن عالمي الخلق والأمر؛ فالأول يعني عالم السنن الإلهية التي تسير الخليفة ضمنها، والثاني يعني هيمنة الرب على العالم، وتدبيره لأموره طوراً بعد طور، ومن ثم إجراء السنن الثابتة فيه أو تغيير بعضها عندما تقتضي مشيئته المطلقة. من هنا فإذا لم يصل الإنسان إلى أهدافه عبر الطرق الطبيعية، (أي عبر السنن العامة التي جعلها الله لخلقه)، فلا بد له أن يتضرّع إلى الله تعالى، لكي يوصله إليها عبر قدرته في إطار عالم الأمر المحيط بعالم السنن.

فالمريض الذي يعجز الطب عن معرفة مرضه، فضلاً عن علاجه، يشفى بفضل مقدار حمصة أو أقل من تربة الإمام الحسين عليه السلام. وهذه

(١) مصباح المتهجد، ص ٥٩٢.

الطريق، طريق مباشرة بين العبد وربّه. وهذا يتصل بعالم الأمر، بينما شفاؤه عبر الأدوية يعتمد عالم الخلق (الأنظمة الطبيعية والسنن العامة).

وحدثنا هنا عن موضوع الدعاء، لتعلم طريقة الطلب من الله، ولنهيّ أنفسنا لليالي الدعاء وهي ليالي القدر^(١).

ف«الدَّعَاءُ مُنْحُ الْعِبَادَةِ»^(٢)، كما في الحديث عن النبي ﷺ؛ بمعنى أن الدعاء جوهر العبادة وأصلها.

ويروى عن معاوية بن عمار قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: «رَجُلَيْنِ افْتَتَحَا الصَّلَاةَ فِي سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ، فَتَلَا هَذَا الْقُرْآنَ فَكَانَتْ تِلَاوَتُهُ أَكْثَرَ مِنْ دُعَائِهِ، وَدَعَا هَذَا أَكْثَرَ فَكَانَ دُعَاؤُهُ أَكْثَرَ مِنْ تِلَاوَتِهِ، ثُمَّ انْصَرَفَا فِي سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ أَيُّهُمَا أَفْضَلُ؟»

قَالَ: كُلُّ فِيهِ فَضْلٌ؛ كُلُّ حَسَنٌ.

قُلْتُ: إِنِّي قَدْ عَلِمْتُ أَنَّ كُلًّا حَسَنٌ، وَأَنَّ كُلًّا فِيهِ فَضْلٌ.

فَقَالَ: الدَّعَاءُ أَفْضَلُ. أَمَا سَمِعْتَ قَوْلَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾^(٣)؟ هِيَ وَاللَّهِ الْعِبَادَةُ، هِيَ وَاللَّهُ أَفْضَلُ، هِيَ وَاللَّهُ أَفْضَلُ. أَلَيْسَتْ هِيَ الْعِبَادَةُ؟ هِيَ وَاللَّهِ الْعِبَادَةُ، هِيَ وَاللَّهُ أَفْضَلُ. أَلَيْسَتْ هِيَ أَشْهَنُ؟ هِيَ وَاللَّهُ أَشْهَنُ، هِيَ وَاللَّهُ أَشْهَنُ»^(٤).

إن الله أنزل علينا القرآن لنقرأ كلامه، فربما يقرأ الإنسان القرآن

(١) في الأصل هذه الدروس القيت في ليالي شهر رمضان المبارك.

(٢) وسائل الشيعة، الشيخ الحر العاملي، ج ٧، ص ٢٧.

(٣) سورة غافر، آية ٦٠.

(٤) تهذيب الأحكام، الشيخ الطوسي، ج ٢، ص ١٠٤.

وقلبه ساه، ولكن الدعاء يخرج من قلب محترق، محتاج، مسكين، مستكين.. والرب تعالى قد يستجيب دعاءه ويسمع مناجاته وكلامه.

ادع الله بقلبك

لندعو ربنا بقلوب واعية، وبألسن صادقة. ناج ربك ولو بكلمات غير بليغة أو بأدعية غير مأثورة، فإن الله تعالى ينظر إلى قلبك ويستمع إلى نداء فؤادك قبل ألفاظ لسانك. ثم اقرأ الأدعية المأثورة، واطلب من الله حاجتك واسأله ما تريد، حتى وإن كان دعاؤك بغير اللغة الفصحى، بل وإن كان بغير اللغة العربية. وقد قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْخَرُ لَهُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَفَّتْ كُلُّ قَدِّ عِلْمَ صَلَاتِهِ وَسَبِيحِهِ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾^(١). كما وإننا نقرأ في دعاء يوم عرفة المروي عن الإمام الحسين عليه السلام: «فَاِلَيْكَ عَجَّتِ الْأَصْوَاتُ بِصُنُوفِ اللِّغَاتِ»^(٢).

فللنمل لغة يخاطبون بها ربهم، وللطير كذلك، وهكذا سائر الأحياء، بل وسائر المخلوقات.

وعلىنا الإكثار من الدعاء، خصوصاً إذا علمنا بأن «اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يُحِبُّ أَنْ يُسْأَلَ وَيُطْلَبَ مَا عِنْدَهُ»^(٣).

وقال الإمام محمد الباقر عليه السلام: «وَاللَّهِ لَا يُلِحُّ عَبْدٌ مُؤْمِنٌ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي حَاجَتِهِ إِلَّا قَضَاهَا لَهُ»^(٤).

(١) سورة النور، آية ٤١.

(٢) بحار الأنوار، الشيخ محمد باقر المجلسي، ج ٩٥، ص ٢٢٣.

(٣) الكافي، الشيخ الكليني، ج ٢، ص ٤٧٥.

(٤) الكافي، ج ٢، ص ٥٧٥.

مقام النبي إبراهيم

لا ندرى هل أن النبي إبراهيم عليه السلام طلب من ربه الذرية، أو أنه فوّض أمره إلى الله، حيث إنه عليه السلام كان قد وصل إلى مرحلة عالية من تفويض الأمر إلى الله عز وجل، حتى إنه لم يتشبث بالملائكة عندما عرضوا عليه مساعدته حين كان في المنجنيق لإلقائه في النار، بل قال: «حَسْبِيَ مِنْ سُؤَالِي عِلْمُهُ بِحَالِي»^(١).

بينما دعا النبي زكريا عليه السلام ربه ليرزقه الذرية. ففي سورة آل عمران (وهي سورة القيادات الربانية في الأرض حسباً يبدو) يذكر لنا ربنا قصة النبي زكريا مع مريم عليها السلام، فكلما كان يدخل عليها المحراب كان يجد عندها رزقاً، وحين تساءل عن الرزق الذي كان يأتي إليها، قالت: هو من عند الله، وهنالك طلب زكريا من ربه الذرية. نقرأ ذلك في قول الله تعالى: ﴿فَنَقَبَلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأُنْبِتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَمْرِئُ أَنَّى لَكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٨﴾﴾^(٢).

وحين جاءه الملائكة، وحصل ما حصل معهم، وأذهبوا منه روعه، وبشروه بغلام، يقول الله تعالى:

١ - ﴿فَأَوْحَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشِّرُوهُ بِغُلَامٍ عَليمٍ﴾

كانت البشارة بغلام عليم، لا بصبي؛ مما يعني أن في هذا البيان ضماناً لسلامة الصبي من الأخطار المحدقة بالأطفال فترة طفولتهم

(١) بحار الأنوار، ج ٦٨، ص ١٥٦.

(٢) سورة آل عمران، آية ٣٧-٣٨.

وصباوتهم. كما تشير الآية إلى أنَّ لهذا الغلام ميزة أخرى، وهي علمه الغزير. وجاءت الكلمة بصيغة المبالغة، وكان الغلام عليماً، وصار فيما بعد أباً لبني إسرائيل.

٢ - ﴿فَأَقْبَلَتْ أَمْرَاتُهُ فِي صَرَفٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ۖ﴾ (٢١) قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ۖ

وتعني الصَّرة، الحركة السريعة. ويبدو أنها كانت قريبة تستمع إلى كلام الملائكة، فجاءت وضربت وجهها من شدة تعجبها، وقالت: ﴿عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾.

فأيام شبابها لم تُرزق بالولد لعقمها، والآن بعد أن صارت عجوزاً يرزقها الله الولد، وقد ساورها العجب في الأمر.

ولكنهم بينوا لها أن الأمر من عند الله، فلا يجوز التعجب منه. فالله هو الرازق، ورزقه بالولد لحكمة يعرفها، فهو الحكيم العليم.

بصائر وأحكام

١ - على المؤمن أن يعيش أبداً الرجاء، وإذا لم يستجب الله دعاءه يتَّهم نفسه ثم يفوض إلى الله خالقه أمره؛ وليعلم أن عالم الأمر محيط بعالم الخلق، وأن الرب الذي قدَّر السنن (الأنظمة) قادر على تغييرها وفق حكمته البالغة.

٢ - على الإنسان أن يدعو ربه بقلبه، حتى ولو لم تحضره كلمات بليغة، وبأية لغة شاء، وينتظر الإجابة من ربه.



عقبي المسرفين؛ قوم لوط مثلاً

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ (٣١) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ
﴿لَنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ جِبَارَةً مِنْ طِينٍ﴾ (٣٢) مُّسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿﴾ (٣٤).



تفصيل القول

إن الله تعالى حكيم في رزقه، عليم في عطيته، فيرزق من عباده من يشاء، ما يشاء، وكيف يشاء؛ ويمنع عن عباده من يشاء، ما يشاء، وكيف يشاء.. ولأنه حكيم في فعله فلا يجوز الاعتراض على حكمه، أو الاقتراح عليه؛ لأن الإنسان لا يعرف مكن مصلحته، فبجهله يسأل الله ما لا ينفعه، بل ما يضره. وكما نقرأ في دعاء كل ليلة من شهر رمضان المبارك: «فَإِنْ أَبْطَأَ عَنِّي عَتَبْتُ بِجَهْلِي عَلَيْكَ، وَلَعَلَّ الَّذِي أَبْطَأَ عَنِّي هُوَ خَيْرٌ لِّي، لِعِلْمِكَ بِعَاقِبَةِ»^(١).

(١) مصباح المتهجد، الشيخ الطوسي، ص ٥٧٧.

روي عن سدير قال: «سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام يَقُولُ: إِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَتَوْا مُوسَى عليه السلام فَسَأَلُوهُ أَنْ يَسْأَلَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يُمَطِّرَ السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ إِذَا أَرَادُوا، وَيَجْبَسَهَا إِذَا أَرَادُوا. فَسَأَلَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ ذَلِكَ لَهُمْ، فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ذَلِكَ لَهُمْ يَا مُوسَى. فَأَخْبَرَهُمْ مُوسَى، فَحَرَّثُوا وَلَمْ يَتْرَكُوا شَيْئًا إِلَّا زَرَعُوهُ، ثُمَّ اسْتَنْزَلُوا الْمَطَرَ عَلَى إِرَادَتِهِمْ، وَحَبَسُوهُ عَلَى إِرَادَتِهِمْ، فَصَارَتْ زُرُوعُهُمْ كَأَنَّمَا الْحَبَالُ وَالْأَجَامُ، ثُمَّ حَصَدُوا وَدَاسُوا وَذَرَّوْا، فَلَمْ يَجِدُوا شَيْئًا. فَضَجُّوا إِلَى مُوسَى عليه السلام، وَقَالُوا: إِنَّمَا سَأَلْنَاكَ أَنْ تَسْأَلَ اللَّهَ أَنْ يُمَطِّرَ السَّمَاءَ عَلَيْنَا إِذَا أَرَدْنَا فَأَجَابَنَا، ثُمَّ صَيَّرَهَا عَلَيْنَا ضَرَرًا. فَقَالَ: يَا رَبِّ؛ إِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ ضَجُّوا بِمَا صَنَعْتَ بِهِمْ. فَقَالَ: وَمِمَّ ذَاكَ يَا مُوسَى؟ قَالَ: سَأَلُونِي أَنْ أَسْأَلَكَ أَنْ تُمَطِّرَ السَّمَاءَ إِذَا أَرَادُوا وَتَجْبَسَهَا إِذَا أَرَادُوا، فَأَجَبْتُهُمْ، ثُمَّ صَيَّرْتَهَا عَلَيْهِمْ ضَرَرًا. فَقَالَ: يَا مُوسَى؛ أَنَا كُنْتُ الْمُقَدَّرُ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ فَلَمْ يَرْضَوْا بِتَقْدِيرِي فَأَجَبْتُهُمْ إِلَى إِرَادَتِهِمْ، فَكَانَ مَا رَأَيْتَ»^(١).

من هنا نجد أن الخير هو فيما يختاره الله عز وجل لخليقته، وعلى الإنسان ألا يعترض على فعل الله تعالى، وهذا ما يُسمى بالتفويض.

وكان النبي إبراهيم عليه وعلى نبينا وآله السلام من المفوضين، بل كان في أعلى مراتب التفويض؛ ولذلك فإنه حين بُشِّرَ بالغلام، لم يهتم كثيراً، وانتقل مباشرة ليتساءل عن خطب المرسلين.

١ - ﴿قَالَ فَاخْطَبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾

حينما رأى النبي إبراهيم عليه السلام هيئة الملائكة المكرمين وعددهم، وربما كان جبرئيل عليه السلام معهم، عرف أنهم لم يأتوا فقط للبشارة،

(١) الكافي، الشيخ الكليني، ج ٥، ص ٢٦٢.

ولذلك تساءل عن خطبهم.

والخُطْب، هو الأمر الهامّ جدًّا. وهذا دليل آخر على إحساس النبي إبراهيم عليه السلام بعدم كون مهمة هؤلاء الملائكة مهمة تبشيرية فقط.

٢ - ﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾

كانت مهمتهم الأخرى إنزال العذاب على قوم مجرمين، وذلك لإجرامهم وتعديهم الحدود الإلهية.

وفي هذه الآيات درسٌ لكل معترٍ، لكيلا يفعل شيئاً يغضب الرب الرحيم أصلاً على الإنسان. فالمعاصي التي يرتكبها المرء تغضب ربه، ويصل الأمر أحياناً بأن يملي الله له، فيظن أن معصيته حسنة، فبعد المعصية يرزقه المال الوافر، أو يحبه لدى الناس، فيظن العاصي أن هذا الأمر جيد، ولكنه لا يعلم أن الله يُملي له ليزداد إثماً على إثمه.

أما المؤمن، فينبهه الله على المعصية بمجرد أن يقترفها، وذلك عبر طريقتين:

الأولى: أن يجعل له ناصحاً أو يوفر له جواً ليكتشف خطأه، فيستغفر الله تعالى على ما ارتكبه من الإثم.

الثانية: أن يتليّه بالمرض أو الفقر أو شيء آخر، ليمحو ذنبه ويغفره له، ويعرف من خلال ذلك أن عمله كان خاطئاً.

وبالرغم من أن الطريقة الثانية صعبة قياساً إلى الطريقة الأولى، إلا أنها أفضل من الإملاء ليزداد الإنسان إثماً وابتعاداً عن الله عز وجل.

ولذلك فإن المؤمن يقرأ في أدعية سحر شهر رمضان ما ورد عن الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام: «إِلَهِي لَا تُؤَدِّبْنِي

بِعُقُوبَتِكَ»^(١). وهذه العبارة من العبارات العجيبة التي لم ترد إلا قليلاً جداً في الأدعية الماثورة.

إذا؛ علينا ألا نتكئ بشكل مطلق على رحمة الله تعالى، ونجعلها ذريعة لارتكاب المعاصي والموبقات.

الإسراف

تأملوا في كل مخلوق من مخلوقات الله تعالى؛ صغيراً أو كبيراً، فستجدون أن هناك حدوداً دقيقة لكل شيء، لا يتعداها. فالشمس والقمر لا يتعديان حدودهما في الشروق والغروب، والقرب والبعد.. ومثل الشمس والقمر، السمكة الصغيرة في عمق المحيطات، لها حدود لا تتعداها أيضاً.

وكذلك البشر، فإن له حدوداً ينبغي أن يلتزم بها، ولا يتعداها. فالإكثار من الطعام مثلاً سبب لهلاك الإنسان في بعض الأحيان، ولمرضه في أكثر الأحيان.. فعلى الإنسان ألا يسرف في الطعام.

وهكذا فإنّ للأمر الجنسية حدود، ينبغي ألا يتعداها الإنسان. ففي الحديث المروي عن رسول الله ﷺ، أنه قال: «مَنْ أَرَادَ الْبَقَاءَ وَلَا بَقَاءَ، فَلْيُيَاكِرِ الْعَدَاءَ، وَلْيُجَوِّدِ الْحَدَاءَ، وَلْيُخَفِّفِ الرِّدَاءَ، وَلْيَقِلِّ مُجَامَعَةَ النِّسَاءِ»^(٢). فالإكثار من إشباع الرغبة الجنسية سبيل لهلاك الإنسان، وإصابته بالأمراض.

وللتكسب حدود أيضاً؛ فعلى الإنسان أن يُجمل في الطلب، لا

(١) مصباح المتهجد، الشيخ الطوسي، ص ٥٨٢.

(٢) من لا يحضره الفقيه، الشيخ الصدوق، ج ٣، ص ٥٥٥.

أن يكون حريصاً على تكديس الثروة والأموال.

وتعدي الحدود المرسومة يسمى إسرافاً، والله لا يحب الإسراف والمسرfin، بل يعتبر الإسراف جرمًا، أو طريقاً إلى السقوط في أحوال الجريمة. يقول الله تعالى:

٣- ﴿لُرْسَلْ عَلَيْهِمْ حِجَارَةٌ مِنْ طِينٍ﴾.

فكان المجرمون مسرفين، فأرسل الله عليهم حجارة من طين لإسرافهم.

وفُسرّت كلمة مسومة بمعانٍ عديدة، ربما المعنى الأدق هو: أن لكل شخص من المسرفين في تلك البلدة، كانت حجارة محدّدة، وذلك لأن المسرفين لم يكونوا في مستوى واحد، ولا من نوع واحد... فكل مسرف يُعاقب على قدر إسرافه.

وفي بعض الروايات نجد أن الله أوحى لجبرئيل أن يرفع قري قوم لوط إلى السماء وألاً ينزلها حتى يأذن الله بذلك.

فرفعها جبرئيل عليه السلام بجناحيه إلى السماء، من الليل إلى الصباح، حتى أذن له الله فقلبها على أهلها.

ولكن في هذه الآية نجد أن عذابهم كان بحجارة من طين، مسومة للمسرفين. فأيهما كان العذاب؟.

٤- ﴿مُسَوَّمَةٌ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾.

يبدو أن الله جمع عليهم العذابين، فأرسل عليهم الحجارة أولاً، ثم قلب قراهم لتكون عبرة لمن يريد الاعتبار من بعدهم.

وقد اكتشف أخيراً بعض علماء الآثار آثاراً في قعر البحر الميت،

يُظَنُّ أنها لساكني هذه البلدان؛ فالرب أبقى فيها آيات لمن يخاف العذاب الأليم.

فأي مسرف لا بد وأن يواجه العقوبة على إسرافه، وبدرجة إسرافه. ولذلك يجب على المؤمنين أن يحذروا من الإسراف في أفعالهم ومصاريفهم .. فربما يعذبهم الله تعالى.

قد يقال: إن عذاب الاستئصال مرفوع عن هذه الأمة.

فنقول: إن الاستئصال مرفوع، ولكن الله لم يرفع الأنواع الأخرى للعذاب. أليست الحروب المدمرة عذاب؟ أوليست الزلازل، والفيضانات، والأعاصير، مصاديق للعذاب الإلهي؟

بصائر وأحكام

١ - لأن ربنا هو المدبر، وهو الحكيم العليم، فإن الخير كل الخير في تفويض الأمر إليه. وكان الأنبياء عليهم السلام، وفي طليعتهم النبي إبراهيم عليه السلام، يفوضون أمورهم إلى الله تعالى.

٢ - على الإنسان أن يعلم أن المعاصي إذا أحاطت به، قد تستدعي غضب الرحمن. وأعظم البلاء إملاء البشر بعد عصيانه ليؤخذ على غرة والعياذ بالله.

٣ - لكل ما خلق الله حد، إذا تجاوزه الإنسان عُوقب. وحدود سلوك البشر قد بينها الوحي، وتجاوزها إسراف، وقد ينتهي بالإنسان إلى الهاوية كما في قوم لوط.



وتركنا فيها آية

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾﴾.



تفصيل القول

جبرائيل وميكائيل وإسرافيل وكروبيل عليه السلام، وهم ملائكة مقربون، كانوا قد نزلوا إلى الأرض وحضروا عند النبي إبراهيم عليه السلام، مما أثار التساؤل عند النبي إبراهيم عن سبب نزول هؤلاء، لذا ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾؟.

فجاء الجواب: ﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾.

وهنا يجب أن نتوقف عند موضوع العذاب الإلهي، ويجب أن نقدم بعض النقاط:

الأولى: إن الله أحسن كل شيء خلقه، ولا تجد في خلق الله تعالى غير الحكمة والدقة والكمال، ولكن نحن البشر يجب علينا أن نستفيد من الخلق الإلهي بشكله الصحيح، ولكي يكون كذلك يجب أن نعرف طرق الاستفادة منه، ونحتاج في ذلك إلى ثلاثة أمور:

١- العلم، وهو تجارب الآخرين.

٢- العقل، وبه نستفيد من تجارب الآخرين، وأيضاً من التجارب الشخصية.

٣- الهداية الإلهية؛ لأننا مهما حاولنا فلن نصل إلى المستويات العالية من المعرفة إلا بهداية الله تعالى إيانا.

والمحور الأساس في هذه الأمور الثلاثة هي الهداية الإلهية، وأهم دعاء لنا هو ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾^(١).

الثانية: إن هداية الله تعالى لا تختص بالبشر فقط، وإنما تشمل كل المخلوقات؛ ولكن هذه الهداية بالنسبة إليهم تكون جبرية، بينما البشر مختار فيها. فالله تعالى أوحى إلى النحل وأعطاهما كل ما تحتاج إليه من هداية ﴿الْتَمَرَتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا﴾^(٢)، وكذلك النمل وسائر المخلوقات هي مجبولة على الهداية الإلهية.

الثالثة: إننا للوصول إلى الهداية يجب أن نسلك طريقاً وعراً، ونخوض حرباً شرسة مع النفس والشيطان، وقد عهد إلينا الله الباري

(١) سورة الفاتحة، آية ٦.

(٢) سورة النحل، آية ٦٩.

ذلك حيث قال تعالى: ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَبْنَىءَ آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾^(١).

الرابعة: في هذه الحرب التي نخوضها مع الشيطان لا توجد أسلحة، بل هي حرب داخلية مع الشيطان؛ وإذا نجحنا في التغلب عليه حيناً ما، فلا يعني ذلك أننا انتصرنا عليه إلى الأبد، بل يستمر الشيطان بوساوسه. ومن هنا كانت الوسوس مما رُفِعَ القلم فيها كما في الحديث المروي عن رسول الله ﷺ، أنه قال: «رُفِعَ عَنْ أُمَّتِي تِسْعَةُ أَشْيَاءَ (إلى أن قال) وَالتَّفَكُّرُ فِي الْوَسْوَسةِ فِي الْخَلْقِ، مَا لَمْ يَنْطِقْ بِشَفَةٍ»^(٢).

محور الهداية

محور الهداية هي العقيدة بالآخرة والقيامة، وذلك لأن لا أحد من العقلاء يسير في طريق جميلة دون أن يعرف منتهاها. كذلك الدنيا والآخرة؛ فمن لا يعرف مصيره، كيف له أن يختار الطريق السليمة؟ لأن حياة الدنيا إنما هي جزء من مسيرة البشر، والأجزاء الأخر هي بعدها.

فالإنسان خلق للبقاء لا للفناء، فالأساس هو الحياة الآخرة، ونحن في هذه الدنيا كمسافر سكن داراً ليستريح فيها ويرحل منها. لقد جئنا من عوالم سابقة، وسنذهب إلى عوالم جديدة هي البرزخ والقيامة والخلود. وإنما جاء بنا ربنا إلى هذا العالم لكي نأخذ قليلاً من الزاد لرحلة الآخرة.

(١) سورة يس، آية ٦٠.

(٢) التوحيد، الشيخ الصدوق، ص ٣٥٣.

لذلك يجب علينا أن نرفع من مستوى معرفتنا بالآخرة، فمعرفة الآخرة كسائر المعارف فيها درجات مختلفة، فقد لا يكفي مجرد مستوى منها.

وساوس الشيطان

إحدى وساوس التي يُلقِيها الشيطان في نفس الإنسان والتي يشير إليها الباري عز وجل في سياق هذه السورة كما في سور أخرى مثل سورة يس هي: هل أن الله سبحانه وتعالى يستطيع أن يفعل ذلك أم لا؟ فترى أن هذا البشر الذي خُلِقَ من نقطة يقول: ﴿مَنْ يُحْيِ الْعِظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾^(١)؟ ويأتيه الجواب: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾^(٢).

فيجب علينا أن نحارب هذه وساوس في أنفسنا، فنعرف الله بقدرته وبتجلياته، فنرى عظيم صنع الله تعالى، ونؤمن بقدرته على أن يفعل ما يشاء. ليس الإيمان باللسان، بل بالقلب أساساً.

أما الوسواس الآخر الذي يُلقِيه الشيطان في روع المؤمن هو أنه: لماذا يُعَذِّبني الله تعالى؟ هذا الرب الذي هو أرحم الراحمين، هل يعقل أن يُعَذِّب مثلي لخطايا؟.

ومحاربة هذه وساوس في غاية الصعوبة، وخاصة عند المؤمن الذي يؤمن بأن الله أرحم الراحمين، ويرى أنعم الله عليه، ويرى أنه في طريق الهداية لم يرتكب كبائر لِيُلقِي به الله في العذاب.

(١) سورة يس، آية ٧٨.

(٢) سورة يس، آية ٧٩.

ولكن حينما نراجع الأدعية المباركة كدعاء كميل المروي عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، ودعاء أبي حمزة الثمالي المروي عن الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام.. نجد أن الكلام مختلف تماماً، فيقول مثلاً: «أَتَسَلَّطُ النَّارَ عَلَى وُجُوهِ خَرَّتْ لِعَظَمَتِكَ سَاجِدَةً، وَعَلَى أَلْسِنٍ نَطَقَتْ بِتَوْحِيدِكَ صَادِقَةً وَبِشُكْرِكَ مَادِحَةً؟»^(١)، ويقول: «إِلَهِي؛ إِنْ أَدَخَلْتَنِي النَّارَ فِي ذَلِكَ سُرُورٌ عَدُوٌّكَ، وَإِنْ أَدَخَلْتَنِي الْجَنَّةَ فِي ذَلِكَ سُرُورٌ نَبِيٌّكَ، وَأَنَا وَاللَّهِ أَغْلَمُ أَنَّ سُرُورَ نَبِيِّكَ أَحَبُّ إِلَيْكَ مِنْ سُرُورِ عَدُوِّكَ»^(٢).

من هنا نعرف أننا يجب أن نخاف الله تعالى، لكيلا يأخذنا المنتقم الجبار بعدله، بل نرجو أن يُعاملنا بفضله.

قوم لوط

أرسل النبي إبراهيم ابن خالته لوطاً إلى قري سدوم، وقد تزوج منهم، وكان يُبلغ فيهم، وكان قد أنعم الله عليهم بنعم كثيرة، وكانوا -كما يُبين الله تعالى لاحقاً- مسرفين. والعجيب أن هؤلاء لم يؤمن منهم ولا شخص واحد، حتى زوجته التي تزوجها منهم؛ فلم يؤمن معه إلا بناته، وهذا هو الغرور. لم يكونوا كفاراً أجمعين، ولكن اغتروا بنعم الله تعالى وتواترها عليهم. وهذه عبرة لنا اليوم ولكل الأمم ألا نغترَّ بأنعم الله، ثم نأمن مكره.

وهذه آية من آيات الله التي جعلها الله للموقنين، كما بيَّنا فيما سبق، وقد ترك الله لنا في هؤلاء آية لكي نعتبر.

(١) مصباح المتهجد، الشيخ الطوسي، ص ٨٤٦.

(٢) مصباح المتهجد، الشيخ الطوسي، ص ٥٩٦.

وهنا يجب أن نستفيد عدة بصائر من هذه الآيات المباركة:

البصيرة الأولى في قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، وهي أن القوم لو كانوا قد أبيدوا بحادثة طبيعية كما يسمونها، فلماذا خرج منها لوط وبناته؟

أغلب الحوادث التي يسمونها طبيعية هي تقديرات إلهية، ولكن الله تعالى يقي المتقين من أن تُصيبهم هذه الحوادث. وهذه بصيرة يجب أن نأخذها من هذه الآية المباركة، حيث إن الله تعالى يُنجي المتقين، حتى لو جاء البلاء.

والبصيرة الثانية في قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾. الباري عز وجل قد أنجى لوطاً عليه السلام لإيانه. والبيت هنا بمعنى العائلة والأسرة، فنقول: أهل البيت. وفي بيان معنى قول الله تعالى: ﴿فِي يَوْمٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تَرْفَعَ﴾^(١) قال الإمام محمد الباقر عليه السلام في حديث: «وَهِيَ يُبَوِّتُ الْأَنْبِيَاءَ وَالرُّسُلَ وَالْحُكَمَاءَ وَأَئِمَّةَ الْهُدَى»^(٢).

وفي رواية أخرى عن الإمام محمد الباقر عليه السلام قال فيها لقتادة ابن دعامة البصري فقيه أهل البصرة بعد أن أظهر اضطراب قلبه قدامه دون غيره، قال الإمام محمد الباقر عليه السلام: «وَيُحَكِّكَ؛ أَتَدْرِي أَيْنَ أَنْتَ؟ أَنْتَ بَيْنَ يَدَيَّ ﴿فِي يَوْمٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تَرْفَعَ وَيَذْكُرَ فِيهَا أَسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْعُدُوِّ وَالْأَصَالِ﴾^(٣) رَجُلٌ لَا تُلْهِمُهُمْ تَجْدُرٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِنَاءِ الزَّكَاةِ»^(٣). فَأَنْتَ ثُمَّ وَنَحْنُ أَوْلَئِكَ. فَقَالَ لَهُ قَتَادَةُ: صَدَقْتَ وَاللَّهِ

(١) سورة النور، آية ٣٦

(٢) الكافي، الشيخ الكليني، ج ٨، ص ١١٩

(٣) سورة النور، آية ٣٦-٣٧.

جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاكَ وَاللَّهُ؛ مَا هِيَ بَيُوتٌ حِجَارَةٌ وَلَا طِينٌ^(١).

إذًا؛ لم تكن هناك إلا أسرة واحدة مؤمنة.

والبصيرة الثالثة في قول الله تعالى: ﴿وَرَكَّابًا فِيهَا آيَةٌ لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾. متى ما اطمئن الإنسان في قبال العذاب الإلهي، ستكون هذه اللحظة هي لحظة سقوطه؛ فلا تأمنوا مكر الله. والمؤمن يجب أن يعيش بين حالة الخوف والرجاء، لأننا لا نعلم أن الامتحان القادم كيف يكون، وكما نحتاج إلى إيمان راسخ لمواجهة هذا الامتحان؟

بصائر وأحكام

١- لكي نستفيد من نعم الله، لا بد أن نسلك سبيل العلم، وتجارب الآخرين، والعقل، وفيه تحفظ تلك التجارب، ونضيفها إلى تجاربنا وهدى الرب.

٢- وللوصول إلى الهدى، نخوض حرباً شعواء مع الشيطان ووساوسه والنفس وتسولاتها. ومحور الهدى الإيمان بالآخرة، لأنها امتداد حياتنا في الدنيا؛ ولا خير في طريق معبد نهايته الهلاك.

٣- والله قادر على إرجاعنا إلى الحياة؛ وهو إن عاملنا بعدله هلكنا، لأنه منتقم جبار. فعلياً أن نحذره أشد الحذر، وأن ندعوه ليعاملنا باسمه العظيم الرحمن الرحيم.

(١) الكافي، الشيخ الكليني، ج ٦، ص ٢٥٦.



فتولى بركنه فنُبذَ في اليم

﴿وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ۖ فَتَوَلَّىٰ
بِرُكْنَيْهِ وَقَالَ سِحْرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ۚ﴾ ٣٩ ﴿فَاخَذْنَاهُ وَجُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ
مُلِيمٌ﴾ ٤٠ ﴿﴾

تفصيل القول

يحتج الناس فيما بينهم بالحجج والبراهين لإثبات الحق وأخذ الحقوق، ولا يحتج الإنسان إلا بالبراهين الموثوقة والمقبولة من قبل العقلاء والمحاكم، ولا يقبل من الإنسان إلا ذلك. أما الأدلة الواهية التي يُقدِّمها تبريراً لأفعاله وأخطائه، أو إثباتاً لحقوقه، فإنها لا تُقبل.

وكذلك الأمر بالنسبة للإنسان مع ربه تعالى؛ ففي يوم القيامة يحاسبه الرب حساباً دقيقاً، ويسأله عن أفعاله وأعماله كلها.

روي عن مسعدة بن زياد قال: «سمعت جعفر بن محمد عليه السلام

وقد سئل عن قوله تعالى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾^(١)، فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ لِلْعَبْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: عَبْدِي أَكُنْتُ عَالِماً؟ فَإِنْ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ لَهُ: أَفَلَا عَمِلْتَ بِمَا عَلِمْتَ؟ وَإِنْ قَالَ: كُنْتُ جَاهِلاً، قَالَ لَهُ: أَفَلَا تَعَلَّمْتَ حَتَّى تَعْمَلَ. فَيُخَصِّمُهُ، وَذَلِكَ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ^(٢).

فلا يقبل الرب من الإنسان تبريراته وأعداره، بل يطالبه بالعمل؛ فان كان مهتدياً يُدخله الجنة، وإلا فمصيره إلى النار. والمهم أن تكون حجتنا بالغة يوم القيامة ليقبلها الرب منا، ونكون من المهتدين.

موانع الهداية

وليكون الإنسان من المهتدين، فعليه أن يتجاوز موانع الهداية. والقرآن الكريم يُبَيِّنُ لنا الموانع الموجودة في طريق الوصول إلى الهدى، ومن الموانع الرئيسة في هذا السبيل، هو ما يمتلكه الإنسان في الدنيا من أموال وبنين وسلطات وقوى.. حيث ينشغل قلبه بها عن الهدى والصراف المستقيم. وهذا ما حصل مع فرعون، حيث منع نفسه من الوصول إلى الهدى. ويضرب القرآن الكريم مثل فرعون، باعتباره المصداق الأجل لمن منعه الدنيا عن الهداية، وعليه نقيس سائر الأشخاص.

ماذا كان يملك فرعون؟

١- كان ديكتاتوراً بما للكلمة من معنى، فقد حوّل من كان تحت سيطرته إلى عبيد لنفسه، ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾^(٣).

(١) سورة الأنعام، آية ١٤٩.

(٢) الأُمالي، الشيخ المفيد، ص ٢٢٧.

(٣) سورة النازعات، آية ٢٤.

٢- كانت الموارد المادية كلها تحت هيمنته وسيطرته.

٣- الحضارة^(١) الموجودة في مصر كانت متقدمة جداً، وكانت جديدة؛ بمعنى أنها لم تراث المدنية من حضارة تسبقها، بل هي من أوجدت المدنية، كما أنها كانت حضارة فتية، وكانت نهايتها في عز شبابها، بعكس سائر الحضارات التي أصيبت بالشيخوخة والمرض، ثم بادت.

٤- في المقابل كان الناس خاضعين تماماً له، وهذا مما يزيد من هيمنته وسيطرته.

كل هذه الأمور دعت فرعون إلى عدم قبول الهدى، بل الاستهزاء به حين جاءه، عبر الاستهزاء بالنبي موسى عليه السلام، بحجة أن النبي لم يكن يملك شيئاً.

وكيف لا تكون هذه الأمور مانعاً من الهدى، ونحن نرى أن مالا بسيطاً يُخرج البعض من الصراط المستقيم إلى الضلال؛ فإذا امتلك سيارة، أو حصل على منصب، فإنه يخرج عن طريق الصواب.

وهذا تحذير لنا، كي لا ننخدع بالماديات، بل ونسأل الله أن يرزقنا المال والأهل والأولاد شريطة بقاء التقوى معنا والصلاح.

وإذا أردنا أن نجعل لهذا الأمر معياراً ونقيس أنفسنا وفقه، نجعل الصلاة ميزاناً ومعياراً. فحين يقوم الإنسان للصلاة، هل يُقبل على صلاته، أم يكون قلبه مشغولاً بالوظيفة والراتب والتجارة والديون و..؟

هل يكون ممن قال عنهم الرب سبحانه: ﴿رِجَالٌ لَا تُلْهِمُهُمْ حِجْرَةً وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ﴾

(١) نقول (حضارة) تماشياً مع المصطلح، وإلا فإن ما كان لدى فرعون لا يُعد حضارة في المعيار الإسلامي.

وَالْأَبْصَرُ ﴿١﴾، أم يكون مَن ينسى الله بمجرد حصوله على المغانم؟

آية النبي موسى

كان السياق القرآني عن آيات الرب في الأرض، وذكر منها البعض، فمن الآيات ما كانت في أنفسنا، ومنها ما كانت متجسدة في قصة النبي إبراهيم عليه السلام، وبعضها ما كانت متمثلة في قصة النبي لوط عليه السلام، ومنها ما يتجسد في قصة النبي موسى عليه السلام.

١ - ﴿وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾

ففي قصة موسى آية، حيث أرسله الله إلى فرعون بسلطان وبرهان واضح ومهيمن على سائر البراهين والأدلة، ولكن السؤال هنا: هل أرسل موسى عليه السلام إلى فرعون وحده؟

لم يُرسل النبي موسى إلى شخص فرعون وحده، بل جاء ذكر المرسل إليه متمثلاً بفرعون، لأنه كان رمزاً للطغيان والكفر والفساد وقائداً للمنحرفين.

تولى بركته

٢ - ﴿فَتَوَلَّىٰ بِرْكَيْهِ ۖ وَقَالَ سِحْرٌ أَوْ يَحْجُونَ﴾

التولي يعني: الإدبار والهروب.

فماذا يعني ﴿بِرْكَيْهِ﴾؟

كل شيء يُعتمد عليه في الحياة ويُستند إليه يُسمى ركناً، فللبيت

(١) سورة النور، آية ٣٧.

أركان يعتمد عليها، ولجسم الإنسان أركان، وللصلاة أركان، وهكذا...
وكان لفرعون ركن اعتمد عليه في إدباره عن الدعوة الربانية،
فماذا كان ركنه؟

قيل: إنه تولى بجسمه، حيث كان قوي البدن.

وقيل: الوزراء والبطانة هم أركان حكمه.

وقيل: إن الدولة وما كان يملك من إمكانات وقدرات
وسلطات، هي كانت أركانه التي يعتمد عليها.

والقول الثالث هو الأدق، لأن فرعون اغتر بهذه الأمور. والباء
في قوله: ﴿رُكْنِهِ﴾ هي باء السببية، لا المصاحبة؛ بمعنى أن توليه كان
بسبب اعتماده على ما لديه من الأركان المادية.

اتهامات زائفة

في قبال الدعوة الصادقة للنبي موسى عليه السلام والسلطان المبين
لديه، جاءت الاتهامات من قبل فرعون، فقال: ﴿سِحْرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾. فلماذا
جاءت هذه الاتهامات، ولماذا جاء الترديد فيها؟

من خلال هذه الكلمة نستفيد عدة بصائر:

الأولى: إن البشر يُبرّر أخطاءه ويُوَجِّهها لكي يُسَكِّت وخز
الضمير في داخله في كثير من الأحيان. ففرعون مثلاً كان يعلم أن
فعله خطأ، ولكنه لإسكات ضميره راح يتَّهم النبي موسى بالجنون أو
السحر، وكانت اتهاماته أيضاً لمحاولة التأثير فيمن حوله من البطانة.
وكذلك كانت التُّهم محاولة لإسكات النبي موسى عليه السلام.

الثانية: إن الكثير من الناس حين يرفضون الأمر بالمعروف أو النهي عن المنكر، يُجاهون الأمر والنهي كي يُؤثروا فيه نفسياً. وقد ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال: بئس القوم قوم يقذفون الأمرين بالمعروف والناهين عن المنكر^(١).

الثالثة: إن التردد في توجيه الاتهامات يعني أحد أمرين:

١- إن الكفار تاهوا قبال الرسالة الإلهية، وهذا سبب تضارب قولهم، وهذا التردد دليل على عدم فهمهم مغزى الرسالة.

٢- إن شخصاً كموسى ﷺ، وعليه ثياب الرعاة، وملاحه متأثرة بالشمس، يأتي ويعارض فرعون بكل ملكه وجبروته، لا يخرج أن يكون هذا الشخص، إما ساحراً يعتمد على قوة سحرية، أو مجنوناً في هذه الأفعال.

وفي الواقع، إن الكفار اعترفوا بما سطره على الرسل من تهم؛ اعترفوا بمقام الرسل. فمثلاً آل فرعون اعترفوا ضمناً بعدم كون النبي موسى ﷺ شخصاً عادياً، ولكنهم أخطؤوا في تشخيص المصداق فرموه بالسحر، ظناً منهم بأنه يعتمد على قدرته، أو بالجنون -حاشا لله-، في حين أن النبي موسى كان يعتمد على قوى الغيب ويعتمد على رب العزة والجلالة.

نبدناهم في اليم

٣- ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾

باعتبار أن سورة الذاريات في مقام بيان الآيات الربانية من القصص، فإنها لا تحوض في تفاصيل القصص، بل تذكر الملخص

(١) مستدرک الوسائل، الميرزا النوري، ج ١٢، ص ١٨٣.

منها، وكانت نتيجة فرعون وجنوده أن نبذهم الله في اليم.
والنبد يعني رميهم، ويُمكن التشبيه برمي النفاية لتقريب معنى
النبد.

وهو ملیم: كان فرعون - وهو يُلقى العذاب - يلوم نفسه ويلومه
الآخرون، فلم يكن يترحم عليه أحد، بل كان الجميع يشمتون به.

بصائر وأحكام

- ١ - ليست التبريرات وإنما الحقائق هي التي تكون شاهدة يوم
القيامة؛ إما للإنسان أو عليه. من هنا كان الواجب توفيرها.
- ٢ - وما أُوتي البشر من خير قد يكون حجاباً له دون نور الهدى،
كما كان لفرعون حين تولى عن الهدى بركنه.
- ٣ - وما اتهم به فرعون رسول الله ﷺ لم يُجده نفعاً، بل نبذه
الرب وقومه في اليم، وكان بفعله ملوماً.



وما كانوا منتصرين

﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَنْتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْنَاهُ كَالرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾﴾ وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَنَّوْا حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ فَمَا اسْتَطَعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْصَرِّينَ ﴿٤٥﴾﴾.



تفصيل القول

في سياق الآيات التي أودعها الرب في الأرض، التي جعلها الله للموقنين، وبعد ذكر قصص الأنبياء إبراهيم ولوط وموسى عليه السلام، يُذكرنا السياق القرآني بآيتين أخريين تمثلتا في قومي عاد وثمود. وقبل أن نتحدث عن قصة هذين القومين لا بد من تمهيد.

إن بعض الناس يتأثرون بمجرد رؤية آية إلهية، وتستنير بها قلوبهم، وتحشع لها جوارحهم، لكن البعض الآخر كلما سمعوا عن

الآيات الإلهية أو شاهدوها لا تجد فيهم أثراً. لماذا ذلك؟ ما هو الفرق بين هؤلاء وأولئك؟ وكيف يُمكن للإنسان الوصول إلى مستوى الفئة الأولى؟

البصيرة

الشرط الأساس للوصول إلى الحقائق هو أن يمتلك الإنسان البصيرة. فكما أن من يُغلق بصره لا يُبصر الأشياء، كذلك من لا يمتلك البصيرة في قلبه لا يعي الحقائق، فإذا أُغلق القلب - كما قال بعضهم: ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾^(١)، أو قالوا: ﴿قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ﴾^(٢) - فإنه لا يستفيد من الآيات، هل القلب المغلق ينفذ إليه الحق؟

جَاءَ حِزْبٌ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ، فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؛ هَلْ رَأَيْتَ رَبَّكَ حِينَ عَبْدَتَهُ؟
فَقَالَ: وَيْلَكَ، مَا كُنْتُ أَعْبُدُ رَبًّا لَمْ أَرَهُ.

قَالَ: وَكَيْفَ رَأَيْتَهُ؟

قَالَ: وَيْلَكَ، لَا تُدْرِكُهُ الْعُيُونُ فِي مُشَاهَدَةِ الْأَبْصَارِ وَلَكِنْ رَأَتْهُ الْقُلُوبُ بِحَقَائِقِ الْإِيمَانِ^(٣).

بلى؛ إننا بحاجة إلى حقائق الإيمان، نحتاج إلى التسلُّح بالبصيرة. كيف يكون ذلك؟

ثلاثة شروط ينبغي توافرها لتتوافر البصيرة في القلب. ما هي

(١) سورة البقرة، آية ٨٨.

(٢) سورة فصلت، آية ٥.

(٣) الكافي، الشيخ الكليني، ج ١، ص ٩٨.

تلك الشروط؟

قبل بيانها لا بد من التنبيه إلى أمر هام:

الإسلام دين متكامل

إن الدين الإسلامي دين متكامل، فهو يُبيِّن الحقائق، وفي الوقت نفسه يُبيِّن الطريق الموصل إليها، والمنهجية التي ينبغي الالتزام بها للتعامل مع الحقائق. ومن هنا ليس من الصحيح قول بعض المتخلفين: إنه لا يمكن فهم القرآن إلا بعد دراسة فلسفة ماوتسي تونغ، أو منطق أرسطو، أو حكمة الإشراف عند إفلاطون، أو... أو...

أو كان القرآن ناقصاً ليجتاز إلى التكميل من خلال مناهج هؤلاء؟

بلى؛ إن بعض المسلمين لم يتدبَّروا في القرآن الكريم، فاحتاجوا إلى غيره. في حين أن القرآن الكريم يُبيِّن لنا الهدى، ويبيِّن لنا طريق الوصول إليه. وهذا ما يرتبط بالبصيرة أيضاً، فما هي الشروط التي ينبغي توافرها لتوافر البصيرة؟

الشرط الأول: أن يُفرَّغ الإنسان قلبه من العناد والعتو، ويُسلِّم نفسه للحق واتباعه، وكما يقول ربنا تعالى: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾^(١).

أما إذا كان معانداً لا يقبل إلا كلاماً صدر من نفسه، أو من حزبه، أو كان متعصباً لما لديه في قبالة الحق، فإنه لن يصل إلى الحق أبداً؛ كما ذلك الرجل الذي عاند الحق حين نصَّب النبي الأكرم ﷺ،

(١) سورة الزمر، آية ١٨.

عليًا وصيًا له، قَامَ إِلَيْهِ أَعْرَابِيٌّ مِنْ أَوْسَطِ النَّاسِ فَقَالَ: «يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ دَعَوْتَنَا أَنْ نَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فَشَهِدْنَا، وَأَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ فَصَدَّقْنَا، وَأَمَرْتَنَا بِالصَّلَاةِ فَصَلَّيْنَا، وَبِالصَّيَامِ فَصُمْنَا، وَبِالْجِهَادِ فَجَاهَدْنَا، وَبِالزَّكَاةِ فَأَدَّيْنَا، قَالَ: وَلَمْ يَنْفَعَكَ إِلَّا أَنْ أَخَذْتَ بِيَدِ هَذَا الْغُلَامِ عَلَى رُؤُوسِ الْأَشْهَادِ فَقُلْتَ: اللَّهُمَّ مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَهَذَا عَلِيٌّ مَوْلَاهُ [اللَّهُمَّ وَالِ مَنْ وَالَاهُ وَعَادِ مَنْ عَادَاهُ وَأَنْصُرْ مَنْ نَصَرَهُ وَاخْذُلْ مَنْ خَذَلَهُ] فَهَذَا عَنِ اللَّهِ أَمْ عَنْكَ؟

فَقَالَ ﷺ: هَذَا عَنِ اللَّهِ لَا عَنِّي.

فَقَالَ: اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ هَذَا عَنِ اللَّهِ لَا عَنْكَ.

قَالَ: اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ هَذَا عَنِ اللَّهِ لَا عَنِّي.

ثُمَّ قَالَ ثَالِثَةً: اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ هَذَا عَنْ رَبِّكَ لَا عَنْكَ؟

قَالَ: اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ هَذَا عَنْ رَبِّي لَا عَنِّي.

فَقَامَ الْأَعْرَابِيُّ مُسْرِعًا إِلَى بَعِيرِهِ وَهُوَ يَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ اثْبِتْنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ.

قَالَ فَمَا اسْتَسَمَّ الْأَعْرَابِيُّ الْكَلِمَاتِ حَتَّى نَزَلَتْ عَلَيْهِ نَارٌ مِنَ السَّمَاءِ فَأَحْرَقَتْهُ، وَأَنْزَلَ اللَّهُ فِي عَقَبِ ذَلِكَ: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ مِنْ اللَّهِ فِي الْمُعَارِجِ﴾^(١).

فبالعناد هلك هذا الإنسان، وبالعناد يخلد الإنسان في نار جهنم،

كما نقرأ في دعاء كميل المروي عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «وَأَنْ تُخَلَّدَ فِيهَا الْمُعَانِدِينَ»^(٢). والعناد حجاب يمنع الإنسان

(١) تفسير فرات الكوفي، الشيخ فرات بن إبراهيم الكوفي، ص: ٥٠٤.

(٢) مصباح المتجهج، الشيخ الطوسي، ص ٨٤٨.

من الوصول إلى الحقائق.

الشرط الثاني: ألا ينشغل الإنسان بالأمور الثانوية والجزئية عن الحقائق الهامة والرئيسية؛ فالمهندس الذي يخطط لبناء بيت، يختلف عن المهندس الذي يخطط لبناء مدينة كبيرة، فالثاني لا تهتمه الجزئيات بقدر الأول. وقد اعتاد الناس الخوض في المسائل الصغيرة والانشغال بها عن الأمور الهامة، والفرق بين العلم والفلسفة بمعناها الأعم هو أن الأول يهتم بكشف الجزئي، والثاني يهتم بالكليات.

والمهم في الحياة هو الثاني؛ أي إن يمتلك الإنسان قدرة على معرفة السنن الإلهية في الكون، فهي سنن لا تتغير، ولا فرق فيها بين قوم وآخر، في شمال الأرض أو جنوبها.. وبالنسبة إلى شعوب الأرض جميعاً؛ العرب والعجم، الأبيض والأسود.. كلهم لا فرق بينهم. ولذلك نجد أن القرآن الكريم لا يهتم كثيراً بالجزئيات في القصص التي يذكرها، بل إنه يريد بيان المغزى منها لانتفاع الناس بها.

ومشكلتنا اليوم أننا نهتم بأمور كثيرة ثانوية وغير مهمة، ولا نهتم بالأمور الأساسية؛ فكم ساعة نُضيّعها وراء شاشات التلفاز لمتابعة الأفلام والألعاب، أو حتى أخبار بلاد لا تأثير لها علينا.. ولكن كم ساعة في المقابل صرفناها لكشف عيوب أنفسنا وإصلاحها؟

الشرط الثالث: كسب البصيرة إننا يكون من عند الله تعالى، وعبر التضرع إليه والدعاء. فنقرأ في مناجاة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام في شهر شعبان مثلاً: «إِلَهِي؛ إِنَّ مَنْ أَنْتَهَجَ بِكَ مُسْتَنْزِرًا»، وكذلك نقرأ في المناجاة نفسها: «وَأَزِرْ أَبْصَارَ قُلُوبِنَا بِضِيَاءِ نَظَرِهَا إِلَيْكَ»^(١).

(١) بحار الأنوار، الشيخ محمد باقر المجلسي، ج ٩١، ص ٩٨ - ٩٩.

فالعلم الحق إنما هو من عند الله عز وجل، إنه نور يقذفه الله في قلب من يشاء، وللاستزادة من العلم لا بد من دوام المسألة والتضرع إلى الله عز وجل في منح العلم، حتى حين مطالعة الكتاب والاستماع إلى الدرس.
لنستمع إلى القصص المذكورة في هذه الآيات المباركات:

١ - ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾

الحديث في هذه الآية عن الجمع بعكس الحديث عن فرعون، وهذا يعني أنه لا فرق بين الأنظمة، دكتاتورية كانت أو ديمقراطية، لا فرق في هلاكها إن كان مسيرها منحرفاً.

وقوم عاد آية، حيث جاءهم النبي هود عليه السلام، ولكنهم لم يستجيبوا لدعوته الربانية، فأرسل الله إليهم الريح العقيم.

وجاء تشبيه الريح بالمرأة التي لا تلد، وهذا يعني أن الريح كانت غير مفيدة، فلا تُسجى سحاباً، ولا تُلقح النباتات، و...

ومعنى آخر يقال (للريح العقيم) هو أنها ليست غير مفيدة فحسب، بل مضرة أيضاً؛ ففيها السموم التي تدع الحياة عقيماً، ودليل ذلك الآية التي تليها، يقول الله تعالى:

٢ - ﴿مَا نَذِرُ مِنْ شَيْءٍ أَنْتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْنَاهُ كَالرِّمِيمِ﴾

فما كانت تمر على شيء إلا جعلته كالريم. فما معنى الريم؟
في تفسير معناه اختلاف بين المفسرين، ومختصرها الأقوال التالية:
١ - العظم الفاسد.

٢ - النبات المتساقط على الأرض بعد اصفراره.

٣ - الرماد.

ويبدو أن هناك معنىً جامعاً لهذه الكلمة تجمع المعاني المذكورة، وهي أن أي شيء ينتهي ويتلاشى ولا فائدة منه فهو رميم.
ومن هنا نعرف أن أي مكان ينزل عليه عذاب الرب، يكون مكاناً لا فائدة منه؛ فلا ينبت الزرع فيه، ولا تتجدد حياة.

قوم ثمود

٣- ﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَنَّوْا حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذْنَا مِنْهُمُ الصَّعِقَةَ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾

كان هؤلاء يسكنون في شمال الجزيرة العربية بالقرب من أراضي الشام، بعكس قوم عاد حيث كانوا في جنوبها.

وكان قوم ثمود مؤمنين من قبل، وربما أمهلهم الله ثلاثة أيام لمكان إيمانهم سابقاً، فأمهلهم الرب ثلاثة أيام لعلهم يرجعون. ففي اليوم الأول صاروا صفراً، وفي الثاني صاروا حمراً، وفي الثالث تحول لونهم إلى الأسود، ومن بعده نزل عليهم العذاب.

وجاءهم العذاب بسبب طغيانهم وعنادهم وتعديهم الحدود الإلهية؛ بقتلهم الناقة، ولذلك أخذتهم الصاعقة وهم ينظرون، فلم يأتهم العذاب وهم نيام.

٤- ﴿فَمَا اسْتَطَعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنصِرِينَ﴾

فلم يقدرُوا هم على مجابهة الله عز وجل ومواجهة عذابه وعقابه، ولا كان لهم أعوان ينصرونهم؛ ولو افترضنا مجيء أعوان وأنصار لم يكونوا ينصرونهم.

وفي كل هذه القصص عبر كثيرة للناس، فينبغي للمؤمن الاستفادة منها للاعتبار قبل أن يكون هو عبرة لمن بعده. فلا يأمن مكر الله، ولا يسترسل في العقاب غروراً بنعم الله عليه.

بصائر وأحكام

١ - لماذا القلوب قد تغلق دون نفاذ الحقائق، بالرغم من استفاضة آياتها؟ لأنها لا تملك بصيرة، أو أنها تخطأ في منهج فهم الدين، ذلك لأن الدين لا يفهم إلا من خلال منهجه.

٢ - شروط البصيرة ثلاث: التطهر من درن العناد، وألاً يلهو الإنسان بالجزئيات دون الحقائق الكبرى والمصيرية، وأن يكتسب النور من ربه، فمن لم يجعل الله له نوراً يبقى في الظلام والضلال البعيد.

٣ - عبر عاد وثمود حاضرة في وعي التاريخ، حيث لم يستطيعوا مواجهة عذاب الرب لما جاءهم، وعلينا أن نعتبر بها قبل أن نصبح عبرة للآخرين.



المصلحون صمام أمان المجتمع

﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾ (٤٦)

تفصيل القول

من خلال دراستنا لهذه الآيات المباركات، التي يبين فيها ربنا قصص إرسال الرسل وما تلاه من عدم إيمان القرى؛ لإرسال العذاب عليهم، يتبادر إلى الذهن سؤال هام هو: كيف يمكن لمجتمع قد خلق الله أبنائه في أحسن تقويم، أن ينحدروا إلى درجة يستحقون معها أن يعذبهم الله الذي خلقهم وهو أرحم الراحمين؟! وبعبارة أخرى؛ أن يعذبهم ويهلكهم الخالق الذي خلقهم ليرحمهم؟!.

فما هو الخلل الحاصل في ذلك المجتمع الذي حلّ عليه غضب الرب تعالى؟.

في الواقع، إن هذا الموضوع من الموضوعات المهمة جداً،

ونبحثه ههنا ضمن سياق الآيات في سورة الذاريات، بالرغم من أن هناك مواقع كثيرة من القرآن الكريم فيها إشارة إلى هذا الموضوع.

فثمود مثلاً، انحرفوا إلى درجة أن الله يعذبهم عذاباً نكراً، مع كون النبي صالح عليه السلام بينهم، وكانوا يحترمون به بالرغم من كفرهم برسالته، فقد طغوا بعقر الناقة التي كانت معجزة. كيف صار الأمر هكذا؟

لتوضيح هذا الأمر نذهب إلى سورة هود، وهي سورة الاستقامة على الصراط، يقول الله تعالى في هذه السورة: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٤﴾﴾^(١).

ففي كل قرية لا بد أن تكون طائفة يسميهم القرآن ﴿أُولُوا بَقِيَّةٍ﴾ مهمتهم الأساسية الإصلاح في الأرض ومقاومة الفساد، وهذه الطائفة هم صمام الأمان في هذا المجتمع.

المصلح صمام أمان الأمة

فكل مجتمع يرتبط أبناؤه بعضهم ببعض عبر عدة روابط أساسية؛ منها القيم، ومنها المصالح، ومنها القوانين، وكلها تنظم في الأنظمة.

وهذه الأنظمة بحاجة إلى الحماية، وحماته هم أبناء المجتمع كلهم أو لا أقل طائفة منهم. أما إذا كان المجتمع لا يحمي الأنظمة الصالحة، فإنه يفسد من الداخل، ويصاب بالخور، ثم -بعد حين- يكون الانفجار المدمر؛ مثل ذلك مثل خلايا الدم البيضاء المسؤولة عن حماية الجسم من

(١) سورة هود، آية ١١٦ - ١١٧.

الأمراض والأخطار، فإذا أصيب الإنسان بمرض نقص المناعة، سينهار جسمه بأبسط فيروس، لأنه لا يمتلك في داخله المناعة اللازمة.

فالمجتمع هو الجسم، والمصلحون هم دعاماته، وصمام أمان له، ومع ذهابهم تذهب الرحمة الإلهية.

وفي القرآن الكريم نجد أن هذا الملف (ملف الإصلاح) قد بُحث تحت عناوين عدة، منها:

- إرشاد الجاهل.
- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.
- التواصي.

فإذا كان الأمر كذلك، تكون النتيجة أن مرجعاً للتقليد في سامراء -مثلاً- يفتي بحرمة استعمال التنباك، فتدخل فتواه في بيت الملك الإيراني رغماً عن أنفه، ويلتزم بها حتى أفراد أسرة الملك، ولكن اليوم نجد أن البلاد تدخل فيها المخدرات من كل حذب و صوب، ولكن دون أية مواجهة.

فهل نتظر أن يستشري الفساد، وينتهي المصلح، فنجلس لاستقبال العذاب؟

فالعذاب الإلهي لا ينزل على أمة فيها مصلحون، أما إذا ارتفع المصلح، فالعذاب الإلهي سينزل والعياذ بالله.

الأمر والنهي

وقد يقال: إننا نأمر بالمعروف فنبتلى بمقولتنا، أو ننهى عن المنكر فنهان أو نُفتتن بما قلنا.

فنقول لمثل هؤلاء ما قاله أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام

في خطبة له: «فَمُرُوا (فأمرُوا) بِالْمَعْرُوفِ، وَانْهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ، وَعَلِمُوا أَنَّ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ لَا يُقَرَّبَانِ أَجْلاً وَلَا يَقْطَعَانِ رِزْقاً»^(١).

هذا من جهة، ومن جهة ثانية فإن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عليه أن يتبع أسلوباً جميلاً في أمره ونهيه، لا الخشونة والصلابة، فكل شيء في محله. وقد روي عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنه قال: «فَإِنَّ الرَّجُلَ مِنْكُمْ يَطْلُبُ الْحَاجَةَ، فَيَلْطَفُ فِيهَا حَتَّى تُقْضَى لَهُ، فَالْطُّفُوا فِي حَاجَتِي كَمَا تَلْطَفُونَ فِي حَوَائِجِكُمْ»^(٢).

فكما أن الإنسان يستخدم الأساليب الجميلة في الوصول إلى حاجاته الشخصية، فكذلك ينبغي له أن يفعل ذلك فيما يرتبط بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإصلاح الناس.

قصة النبي نوح

﴿وَقَوْمٌ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾

لم تكن قصة قوم نوح عليه السلام قصة عادية، لأن عذابهم كان شاملاً، وكان العذاب شديداً. فأسوأ الموت هو الموت غرقاً أو حرقاً، ولذلك نجد في الأدعية الشريفة أن الإنسان يدعو الله بدعاء الغريق ودعاء الحريق.

وكان عذاب الرب لدعاء النبي نوح عليهم، بعد أن آيس من إيمانهم، ومن وجود مصلح بينهم حسبما أخبره الله عز وجل، فدعا عليهم قائلاً: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾^(٣) إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يَضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا أَفْجَارًا كَفَّارًا^(٣).

(١) كتاب الزهد، الشيخ حسين بن سعيد الكوفي، ص ١٠٦.

(٢) الكافي، الشيخ الكليني، ج ٣، ص ٥٦٣.

(٣) سورة نوح، آية ٢٦-٢٧.

فجاءه جبرئيل بعدد من نواة التمر أمره بزرعها، ثم أكل التمر الجديد من النخل الجديد وزرع نواته، وهكذا عدة مرات حتى صار لديه بستان من النخل، فعندها أمره بصنع السفينة من خشب النخل، وكان القوم يسخرون منه كلما مروا عليه، فلم يعبأ بهم حتى فار التنور، وهطلت الأمطار، ونبع الماء من الأرض، حتى إن الماء صار بمستوى الجبال، ووصل إلى مكة المكرمة، مع أن المسافة بين بابل ومكة هي أكثر من ١٤٤٠ كيلومتراً.

فكانت سفينة نوح ﷺ إنقاذاً للمؤمنين، وكذلك فإن سفينة أهل البيت ﷺ منقذة للناس جميعاً، مع وجود فارق أساس وهو أن أهل البيت ﷺ فدوا بأنفسهم في سبيل إنقاذ الأمة من الهلاك. فرسول الله ﷺ يطالب عزرائيل أن يُشدّد عليه سكرات الموت ليخفف عن أمته، وعلي ﷺ يسكت عن حقه وحق زوجته الزهراء ﷺ ليقى الدين باقياً، وهكذا بالنسبة إلى الإمام الحسين ﷺ حيث افتدى بكل ما يملك في سبيل إبقاء كلمة (لا إله إلا الله) عالية، ولذلك صارت سفينة أهل البيت ﷺ أوسع وأسرع.

بصائر وأحكام

١- لكي تبقى الأنظمة التي تحمي المجتمع مصنونة، لا بد من وجود أولي بقية ينهون عن الفساد في الأرض، وهم صمام الأمان للمجتمع.

٢- النهي عن الفساد لا يقدم أجلاً ولا يقطع رزقاً، خصوصاً إذا كان بالموعظة الحسنة.



وإنا لموسعون

﴿وَالسَّمَاءَ بَيْنَهُمَا بِإَيُّدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ (٤٧).

تفصيل القول

من الحقائق الهامة التي تشير إليها سورة الذاريات، هي حقيقة خلق السماوات والأرض.

السما آية قدرة الله

خلق السماوات موضوع حار فيه أوائل المفسرين بأجمعهم، فعجزوا عن الخوض فيه. أما اليوم وقد تطوّر العلم في جانب علم الفضاء ومعرفة النجوم والمجرات.. تتضح بعض ملامح هذه الآية. ولتتضح هذه الآية أكثر، ونتمكن من تزكية نفوسنا من خلالها، لا بد أن نقدم عدة مقدمات:

١ - فرص التكامل

إذا نظر الإنسان إلى المخلوقات نظرة سريعة، فإنه سيجد جانبيين في كل مخلوق: جانب الكمال، وجانب النقص.

معنى ذلك أن كل ما خلقه الله تبارك وتعالى فإنه قد خلق كاملاً من حيث الدقة في الصنع، واللفظ في التدبير، والاتقان في الصنع و.. وللمخلوق نفسه جانب آخر وهو إمكانية تطوره إلى الأكمل والأفضل.

فشجرة التفاح مثلاً، لها من العطر واللون والشكل الجميل والظلال الوارفة.. ما يجعلها متكاملة، ولكن أن تحمل الثمرة هو تكاملها نحو الأفضل. وهكذا بالنسبة إلى سائر المخلوقات، فهي في حالة تطور وتكامل، حتى البشر، فبالإضافة إلى القدرات العلمية والمعرفية التي تزداد يوماً بعد يوم، نجد أن جسم الإنسان أيضاً في تكامل مستمر، ودليل ذلك ما نجده في تحطيم الأرقام القياسية بأرقام جديدة أفضل في الدورات الرياضية والمسابقات العلمية الموجودة هنا وهناك.

٢ - رحمة لا تنتهي

لماذا خلق الرب هذه الخليفة؟ فملايين المجرات في هذا الفضاء الرحيب، وفي كل مجرة آلاف الملايين من النجوم، وفي كل مجرة آلاف الكواكب.. لماذا خلق الرب كل ذلك؟

في الواقع إن الله خلق ما خلق، لأنه جواد كريم، وهو متفضل على العالمين، وهو الرحمن الرحيم. أليس كذلك؟

إذا كان الأمر كذلك - وهو كذلك - يأتي التساؤل التالي: هل

انتهت قدرة الرب ورحمته وفضله وجوده؟ فما دامت رحمته وقدرته وفضله وجوده، موجودة وباقية عنده، فما المانع من استمرار الخلق وتوسعة السماوات؟

ومن هذا نستفيد أن التوسع في الخلقة أمر يقبله العقل، بالإضافة إلى وجود النصوص الدالة عليه، كهذه الآية الشريفة.

٣- الانفجار الكبير

العلم الحديث يحاول معرفة الحقائق من خلال ملامستها ورؤيتها مباشرة، ذلك لأن السبيل الذي يسير فيه العلم الحديث هو في مسير إبعاد الناس عن الدين؛ ومن القضايا التي يحاولون معرفتها هي قضية أصل الخلقة، فيقولون: إن هناك انفجاراً عظيماً حصل يسمى بـ(بيغ بانغ) ووُجِدَت الخليقة من ذلك الانفجار. وهناك توسع مستمر في الكون جرّاء ابتعاد الأجزاء عن نقطة المركز، وحاولوا أن يُعيدوا هذه التجربة (تجربة الانفجار) في منطقة من مناطق أوروبا، ولكن لم نسمع لهم خبراً بعد إعلانهم الأول قبل عامين.

حسناً، لو سلّمنا أن هناك انفجاراً حدث، فمن الذي أوجد الانفجار نفسه؟

ولو سلّمنا جدلاً أن الانفجار كان طبيعياً (وهو محال طبعاً) فما هي هذه الدقة، ومن جاء بهذا النظام العظيم؟ فما دام الانفجار انفجاراً وهو يعني الخراب والدمار والعبث، فكيف يُمكن أن يتحصل من العبث الدقة، ومن الدمار النظام، ومن الخراب البناء؟

أليس ذلك يشبه قول الإنسان بأن اعصاراً يحدث في منطقة من المناطق فيحمل الاعصار الأحجار ويضعها بعضها على بعض حتى

يصنع برجاً فيه المصاعد والغرف المؤثثة و... وهل يقبل العقل هذا الأمر؟

أو أن يقول الإنسان: إن انفجاراً حصل في مطبعة من المطابع في مدينة متخلفة، وجراء الانفجار هذا صدرت دائرة المعارف البريطانية. فهل يقبل عاقل هذا الأمر؟

فإن قبل أحد قصة الانفجار، فعليه من باب أولى أن يُسلم للمثاليين المذكورين، لأنها أيسر تصوراً من أن يحدث انفجار فتنشأ السماوات والأرض و...

وإننا لموسعون

ولنعد إلى الآية المباركة، حيث يقول الله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾.

جاءت الجملة فعلية، للتركيز على الفاعل. وجاءت كلمة البناء، لأن بناء أي شيء يستدعي الدقة والتكامل مع الزمن. وهذا ما كان في خلق السماء، حيث أكدت آيات أخرى على خلق السماوات والأرض في أيام.

﴿بِأَيْدٍ﴾ معناه أن خلق السماء كان بقوة، واليد في الجسم تسمى يداً لأنها رمز قوة الإنسان.

ثم يأتي التأكيد لقضية الاستمرار في الخلق، حين يقول تعالى: ﴿وَأَنَّا لَمُوسِعُونَ﴾

فالله سبحانه في كل يوم هو في شأن؛ في إعطاء المزيد، والخلق الجديد، والتدبير المهيمن.

بلى؛ إن التدبر في بلاغة كلمة ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ ﴿بها فيها من التأكيد (حرف إن، وأيضاً اللام)، والتعبير له بـ(موسعون) الدال على الاستمرار؛ إن هذا التدبر يجعلنا أمام حقيقة كبرى، يكاد القلب يتصدع من عظمتها.

حظ البشر

حسناً؛ ولكن كيف ننتفع بهذا الأمر؟

إن علينا أن نبحث عن حظنا نحن البشر من هذه التوسعة المستمرة.

إن الرب تعالى يُبَيِّنُ لنا المرة تلو الأخرى، أنَّ يده مبسوطة لم تُغَلِّ، وأن قدرته واسعة، وأن عطائه مستمر، فلا بد من الرجوع إليه، وعدم اليأس من روحه، وعدم الالتجاء إلى غيره، في صغير الأمور وكبيرها. وهذا معنى البداء، وقد روى زرارة بن أعين عن أحدهما (الإمام محمد الباقر أو الإمام جعفر الصادق) عليه السلام: «مَا عُبِدَ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّثْلِ الْبَدَاءِ»^(١).

لأن البداء روح العبادة ومخها، وهو أن يصل الإنسان إلى قناعة تامة بأن الله تعالى قادر على كل شيء في كل زمان ومكان؛ فهو يعطي من يشاء، كيف يشاء، لا يحفيه سائل، ولا ينقصه نائل سبحانه.

(١) الكافي، الشيخ الكليني، ج ١، ص ١٤٦.

بصائر وأحكام

١ - خلق الله متين، وفيه فرص التكامل؛ والإنسان الذي سواه ربه في أحسن تقويم، أمامه فرص التسامي إذا آمن وعمل صالحاً.

٢ - رحمة الله لا تحدد ولا تنتهي، وهو كل يوم في شأن؛ ولذلك يسأله من في السماوات والأرض، لأنه لم يزل ولا يزال يفيض نعمه على خلقه.

٣ - وهكذا ربنا في عطاء لا يزال للسماوات التي يوسعها، وعلينا ألا ننسى حظنا من هذا العطاء؛ فلا تمنعنا عنه وسوسة الشيطان بأن يد ربنا قد غلّت سبحانه، وأن عطاءه قد توقف تعالى عما يقول المشركون.



خلقنا زوجين لعلكم تذكرون

﴿وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ﴾ (٤٨) وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ .

تفصيل القول

بعد أن ذكرنا الرب بخلقه للسموات، وكيف خلقها ببناء قوي متماسك، في مراحل مختلفة وتطور مستمر، يعطف النظر إلى الأرض التي نعيش فيها.

فهذه الأرض هي مهد لنا، ومهيأة للبشر بشكل غريب، وقد حاول البشر كثيراً في المئة عام الأخيرة البحث عن مكان - غير الأرض - تتوافر فيه الظروف لحياة البشر فيه.

إذاً لم يكن من الصدفة توافر شروط المعيشة في الكرة الأرضية، بل كان أمراً مدبراً بشكل دقيق. فالأرض ليست رخوة بحيث يغور

فيها الإنسان - مثل تراب القمر -، وليست بالمقابل صلبة جداً - مثل الزهرة - حيث لا يمكن حفرها، بل هي تراب يمكن للإنسان أن يقف عليها، ويتمكن من حفرها والبناء فيها وزراعتها.

وقوة الجاذبية الموجودة في الأرض، ليست قليلة ليكون الناس كالنخل طوالاً، وليست شديدة بحيث يكون الإنسان كالودود يزحف على الأرض لشدة الجاذبية، بل كانت في الحد الوسط الدقيق.

ومن الدقة في التدبير هو خلق الجبال الراسيات، في أماكن معينة ومحددة؛ فهذه السلاسل من الجبال لم تكن عبثاً، بل لكل واحدة منها أهداف، وفي أعماقها توجد البحيرات الكبيرة التي تُخزن فيها المياه، كما هي كنوز المعادن، و...

فالله يُبَيِّن للبشر حقيقة خلقه الأرض، فيقول:

١ - ﴿وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ﴾

أي: لتتمكنوا من العيش الطبيعي، وكان هذا الأمر بشكل دقيق.

٢ - ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾

فقد خلق الله من كل شيء زوجين. فالبشر هم يعرفون هذا الأمر بالنسبة إليهم، وكذا بالنسبة إلى النباتات، بل حتى في الجمادات نجد أن هناك نظام الزوجية.

ففي الغيوم هناك غيوم موجبة وأخرى سالبة، فإذا تلاقت بعضها ببعض شكَّلت الأمطار.

هذا من الجانب الظاهري، وإذا ما تعمَّقنا في الأرض نصل إلى نتيجة هامة تتمثل في كيفية ترابط المخلوقات بعضها ببعض؛ فلا

يمكن أن يعيش الإنسان وحده، بل لا بد أن يتعايش مع الآخرين، بل أكثر من ذلك، فالمجتمعات لا يمكنها أن تعيش لوحدها، بل لا بد أن تتعاون المجتمعات، وهكذا الدول لا بد أن تتعايش ليستفيدوا بعضها من بعض، ويوفروا حاجات بعضهم بعضاً، إذ إن في كل مجتمع ميزات، وفي الوقت نفسه لها حاجات.. فلا بد أن تجتمع ليعيشوا عيشة هنيئة. يقول الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾^(١).

فبالرغم من أن الله خلق الناس من ذكر واحد وأنثى واحدة، إلا أنهم صاروا شعوباً وقبائل ومللاً مختلفة، وكان الهدف هو التعارف والتعاون والتكامل لمصلحة الجميع.

فمن كل شيء (أي كل موجود) خلق الله زوجين، وليس الإنسان أو الحيوانات أو النباتات فقط.

وهنا نتساءل: لماذا خلق الرب هذه الهيئة؟ وبعبارة أخرى: ألم يكن ممكناً خلق البشر إنساناً متكامللاً لا يحتاج إلى غيره؟
يُجيب الرب عن هذا التساؤل بقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

فالقرآن يهدف -فيما يهدف- تذكير الإنسان بالحقائق التي تغيب عنه أو يغفل عنها، ولعل من أبعاد الذكرى هي التذكير بحاجة الإنسان التي تدله على أنه مخلوق وأنه بحاجة إلى خالق.

الغفلة آفة وعلاجها الذكرى

وهنا قد يتساءل الإنسان: لماذا يتكرر الحديث عن الآخرة بشكل

(١) سورة الحجرات، آية ١٣.

كبير جدًّا؟ فمن لم يؤمن لن ينتفع، ومن آمن فقد آمن، فما الفائدة من التكرار؟

في الإجابة نقول: إن القرآن ليس لهداية الكفار فقط، بل هو للمؤمنين أولاً؛ فمن آمن بالآخرة، فقد خطا الخطوة الأولى في مسيره التكاملي، وعليه أن يقرأ القرآن ليتكامل أكثر فأكثر. فقد روي عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: «قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: تَعَلَّمُوا الْقُرْآنَ فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ صَاحِبَهُ (إِلَى أَنْ قَالَ) ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: أَقْرَأْ وَارْقَهُ؛ فَكُلَّمَا قَرَأَ آيَةً صَعِدَ دَرَجَةً»^(١).

إذاً؛ نقرأ القرآن الكريم لتتصاعد درجات إيماننا في الدنيا، وتتسامى منازلنا في الآخرة، ولكن هناك مشكلة كبيرة تمنع الإنسان من هذا الأمر وهي الغفلة.

فمشكلة الإنسان في عدم وصوله إلى درجات الكمال، هي غفلته. فهناك البعض لا يقدر على مقاومة النوم، فكذلك الغفلة هي نوع من النوم، ولكنها نوم الروح؛ فيمر الإنسان -مثلاً- على القبور فيعتبر ويقرر إصلاح نفسه، ولكنه ينسى ذلك بسرعة. يصلي صلاة الليل ويتوب، ولكنه يعود إلى نوم الغفلة. يدخل في شهر رمضان وليالي القدر، فتراه في منتهى التوبة، ولكنه يعود إلى ذنوبه بعد انتهاء الشهر الكريم.

هذه هي الغفلة، والقرآن الكريم قد نزل ليزيل الغفلة من قلوب الناس، وليس لمرة واحدة، بل في كل لحظة.

فما سبب الغفلة؟ وكيف يمكننا مقاومتها؟

(١) وسائل الشيعة، الشيخ الحر العاملي، ج ٦، ص ١٧٩.

إن السبب الأساس للغفلة هو الابتعاد عن ذكر الله عز وجل .
ففي الحديث عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «مَا مِنْ شَيْءٍ إِلَّا وَلَهُ حَدٌّ يَنْتَهِي إِلَيْهِ إِلَّا الذِّكْرُ فَلَيْسَ لَهُ حَدٌّ يَنْتَهِي إِلَيْهِ . فَرَضَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الْفَرِائِضَ ، فَمَنْ أَدَّاهُنَّ فَهُوَ حَدُّهُنَّ ، وَشَهْرَ رَمَضَانَ فَمَنْ صَامَهُ فَهُوَ حَدُّهُ ، وَالْحَجَّ فَمَنْ حَجَّ فَهُوَ حَدُّهُ ، إِلَّا الذِّكْرَ فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَمْ يَرْضَ مِنْهُ بِالْقَلِيلِ ، وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ حَدًّا يَنْتَهِي إِلَيْهِ ، ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ : ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهُ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ (٤١) وَسَبَّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿١﴾ . فَلَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ حَدًّا يَنْتَهِي إِلَيْهِ» (٢) .

فالإكثار من ذكر الله عز وجل ، هو طريق محاربة الغفلة .

وهناك نوع آخر من الذكر، وهو التذكُّر القلبي الدائم؛ ففي كل حالة من حالاته يذكر الله عز وجل ، وروحه تذكر بارءها .

وإذا ما وصل الإنسان إلى مرحلة من الكمال الروحي، فإنه سيجد أن كل شيء مما حوله يسبح بحمد الله ويذكر الله .

ومن أسباب الغفلة لدى الإنسان هو الطغيان، فإذا ما أحس الإنسان بعدم الحاجة، فسيصاب بالطغيان، ومن ثم يصاب بداء الغفلة . يقول الله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ﴾ (٦) أَن رَّاهُ اسْتَفْتَى ﴿٣﴾ .

ولذلك فقد جعل الله البشر يحتاج بعضهم إلى بعض؛ فالأنثى تحتاج إلى الذكر، والذكر يحتاج إلى الأنثى، وجعلهما يبحثان عن ذرية لغريزة داخلية، وجعل الطفل يحتاج إليهما.. وهكذا يجعل الجميع محتاجاً للجميع لكيلا يغفلوا .

(١) سورة الأحزاب، آية ٤١-٤٢ .

(٢) الكافي، الشيخ الكليني، ج ٢، ص ٤٩٨ .

(٣) سورة العلق، آية ٦-٧ .

ومن هنا نعرف أن سبب خلقه الأشياء أزواجاً، هو أن يتذكر الإنسان. وهناك سبب آخر في هذه الخلقة، وهو أن يعرف الإنسان ربه. فالإنسان محتاج بالذات، بينما الرب هو المنزه عن الحاجة إلى أي شيء آخر. وكما يقول الله تعالى: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾^(١).

بصائر وأحكام

١ - لقد خلق الله الخلق زوجين بهدف التذكر، لكيلا يسترسل المخلوق مع الغفلة؛ فاحتاج كل شيء إلى مثيله، لأن حالة الفرح والاستغناء تبعثه نحو الغفلة.

٢ - عبر ذكر الله سبحانه أبداً؛ قلباً ولساناً، يجابه المؤمنون حالة الغفلة.

(١) سورة يس، آية ٣٦.



الفرار إلى الله

﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾﴾

تفصيل القول

علينا أن نهرب إلى الله عز وجل ونفرّ إليه، ولكن نفرّ من ماذا؟. نهرب من أنفسنا، ونفرّ من الخلق إلى خالقنا وخالق الخلق أجمعين. ولكن ما هو الرابط بين الآيتين؛ التاسعة والأربعين، والخمسين من هذه السورة؟.

للإجابة نقول: يعيش الإنسان بين قطبين متضادين؛ إيجابي وسلبي، قطب الرجاء وقطب الخوف. ووجود هذين القطبين يجعلانه في حالة توتر تدعو إلى الكدح، كما نقرأ في دعاء الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام: «إِذَا رَأَيْتُ مَوْلَايَ ذُنُوبِي فَرِغْتُ، وَإِذَا رَأَيْتُ

كَرَّمَكَ طَمِعْتُ»^(١).

بلى؛ إذا فكر البشر فيما قدمه من ذنوب تراكمت وخطايا
تجمعت، يصل إلى حافة اليأس، فأين المهرب؟

بلى؛ لا بد من الفرار إلى الله عز وجل. كيف ذلك؟

للإنسان جوانب سلبية ونقص، منها ما هي في جسمه ومنها
ما هي في روحه؛ فالجسم الذي يغتر الإنسان به، فيه مكامن نقص لا
تُحصى، وكما يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «مُسْكِينُ ابْنِ آدَمَ... تُؤْلِيهِ
الْبَقَّةُ، وَتَقْتُلُهُ الشَّرْقَةُ، وَتُنْتِنُهُ الْعَرَقَةُ»^(٢).

وكلمات أمير المؤمنين عليه، حَكَمٌ تصيب لب الحقائق، فكم
إنسان مات بسبب شربة ماء، فبدل أن يدخل عبر المجرى الطبيعي له،
دخل في مجرى الهواء فاختنق ومات؟.

أليس هذا هو الجسم نفسه الذي يفخر به الإنسان؟. أليس هذا
الجسم هو نفسه الذي يصاب بأنواع الأمراض، ومنها السرطان الذي
له أكثر من مئة نوع، ثم لا يستطيع أحد له علاجاً؟.

هنا يعتري المرء الفزع.

ويمكننا تشبيه الجسم بزجاجة رقيقة جداً، وبجانبها حجرة
كبيرة؛ وبأقل حركة ستصطدم الحجارة بالزجاجة فتكسرها.

وتبقى الوفاة قاهرة الجبابة، وأعظم كاسر للغرور البشري، كما
جاء في دعاء الصباح المروي عن أمير المؤمنين عليه السلام: «فَيَا مَنْ تَوَحَّدَ

(١) مصباح المتهجد، الشيخ الطوسي، ص ٥٨٤.

(٢) نهج البلاغة، حكمة رقم ٤١٩.

بِالْعِزِّ وَالْبَقَاءِ، وَقَهَرَ عِبَادَهُ بِالْمَوْتِ وَالْفَنَاءِ»^(١).

يكتب خرو وتشوف في مذكراته، أنه حين مات ستالين، ورأى جسده ملقى على السرير، لا فرق بينه وبين صورته المعلقة على الحائط، راعه المنظر وراح يرتجف، قائلاً في نفسه: إن ستالين هذا الذي قتل أكثر من عشرين مليون إنسان صبراً، والذي كان الناس يخافون من اسمه، كيف يتحوّل الآن إلى جثة هامدة؟.

وقبل ذلك كان المأمون العباسي قد هيأ جيشاً لمواجهة الكفار في غرب البلاد، فأصيب بمرض الموت في الطريق، فطلب ممن حوله أن يذهبوا به إلى علوة. فاصعدوه إلى هناك وشاهد جيشه الجرار الذي سيفارقه قريباً، فرفع رأسه قائلاً: «يا من لا يزول ملكه، ارحم من زال ملكه»^(٢).

إذاً كيف نواجه ضعفنا في مقابل أقدار ربنا؟.

إنما بالفرار إلى الله؛ فمنه نفر إليه، ونجبر ضعف أجسامنا وخور عزائمنا عبر الاستمداد منه والتوكل عليه، ذلك لأنه كما في جسمه، كذلك في روحه، يعاني الإنسان من ضعف، إذ إن كل ما يملكه هو من عند الله عز وجل. وبعبارة أخرى؛ إن أصل النور والحرارة من الشمس، فكل نور في الأرض وحرارة فيها، فإن الأصل فيهما من الشمس. كذلك عقولنا - وهي من الروح - كل ما فيها من عند الله. فقد خلق الله عقلاً، ومن شعاعه تستنير عقولنا، ونور الحياة كذلك، ونور العلم أيضاً، وكذا نور المشيئة والإرادة.

(١) بحار الأنوار، الشيخ محمد باقر المجلسي، ج ٨٤، ص ٣٤١.

(٢) أنظر تفاصيل القصة في: الأنوار البهية، الشيخ عباس القمي، ص ٢٣٩، نقلاً عن: مروج الذهب، ج ٣، ص ٢٥٦.

وهذا العطاء يتم لحظة بلحظة، فما أن ينقطع الشعاع حتى ينتهي العقل والعلم والمشئة والحياة.

وقد نجد الحكمة الشهيرة تتحدث عن القدر: «إذا جاء القدر، عمي البصر». فمن جاء قدره لا يمكنه أن يبصر طريق الهروب منه، بل هو الذي يذهب إلى أجله.

أما القطب الإيجابي في الحياة فإنه يتمثل في رحمة الله تعالى، فرحمته كشعاع الشمس تشع في كل لحظة على الجميع ولكن الإنسان هو من يغلق النافذة على ذاته، فلا يستفيد من شعاع الرحمة.

بلى؛ إن رحمة الله ماثلة في أرجاء خلقه، وعلى الإنسان أن يمتلك أدوات لاستقبالها. إنها كالأموال الموجودة في الفضاء، والتي لا بد من وجود أجهزة عند الإنسان لاستقبالها. وقد قال رسول الله ﷺ: «وَتَعَرَّضُوا لِلنَّفَحَاتِ رَحْمَةً لِلَّهِ، فَإِنَّ لِلَّهِ نَفَحَاتٍ مِنْ رَحْمَتِهِ، يُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ»^(١).

وفي التضارب بين هذين الموجتين؛ الإيجابية والسلبية، ما هو الحل؟.

الحل أن يفرّ الإنسان إلى الله عز وجل، ويختار الرحمة الإلهية. ويعني الفرار أن الإنسان عندما يخشى شيئاً، يتحرك سريعاً لمكان آمن. كذلك الفرار إلى الله سبحانه. فلا بد أن نهرب من أنفسنا إلى الله عز وجل وأن نشحذ هممتنا على العود إلى الله عز وجل. فالأساس هو أن يُقرّر الإنسان ويختار، ومن بعد ذلك تيسر الأمور. وكما في الحديث الشريف عن رسول الله ﷺ: «إِذَا دَنَا الْعَبْدُ إِلَى اللَّهِ تَدَلَّى اللَّهُ إِلَيْهِ،

(١) كنز العمال، المتقي الهندي، ج ٢، ص ٧٤.

وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَيْهِ شِسْرًا تَقَرَّبَ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَيْهِ ذِرَاعًا تَقَرَّبَ
إِلَيْهِ بَاعًا، وَمَنْ أَتَاهُ مَشِيًّا جَاءَهُ هَرْوَلَةً^(١).

بصائر وأحكام

١ - كلما نظر البشر إلى ما فيه من عناصر القوة المتمثلة في نعم الله عليه، راعه خوف فقدانها، ولا سبيل له للمحافظة عليها إلا بالفرار إلى ربه.

٢ - والفرار إلى الله يعني التوبة إليه، والتقرب منه بالعمل الصالح.

(١) عوالي اللآلي، ابن أبي جمهور الإحسائي، ج ٤، ص ١١٦.



خارطة طريق للفرار إلى الله

﴿وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْ نَّذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ ﴿٥١﴾

تفصيل القول

الفرار إلى الله عز وجل هو الطريق المناسب للتخلص من أخطائنا وخطايانا، ولكن كيف يكون ذلك؟.

لمعرفة الطريق لا بد من معرفة المدلول الدقيق للفظ (الفرار)، ولا نعني بذلك معرفة المرادفات للكلمة فقط، بل نعني به أيضاً دراسة الموارد المختلفة لتطبيقات هذه الكلمة في حياتنا، وهي التالية:

الأولى: حين يواجه الإنسان خطراً محدقاً لا بد له من سرعة اتخاذ القرار وسرعة تنفيذه، وإلا سيكون من الهالكين. وفي ميدان الحرب مع إبليس لا بد أن يسرع الإنسان في الهرب منه واتخاذ القرار الصارم في مواجهته، ومع أدنى تلكؤ سيكون كعمر بن سعد حين طلب فرصة

ليلة للتفكير في أمر الخروج ضد أبي عبد الله الحسين عليه السلام، وكانت النتيجة أنه وقع في شرك إبليس.

فالمهم أن يبادر الإنسان في الحرب، وهذا يسمى فراراً.

الثانية: حين يفر الإنسان من خطر، فإنه يتوجّه نحو مأمن يأويه من العدو، فإذا ما فر الإنسان من سبع ضارٍ فإنه يتوجّه إلى كهف أو شجرة أو دار محصنة.. وفي هذه الحالة لا بد من تعيين الملجأ مسبقاً للتوجّه نحوه بأسرع وقت ممكن. وهكذا في الفرار إلى الله حيث يتم عبر مراحل تصاعدية:

المرحلة الأولى: هروب القلب إلى الله عز وجل؛ فأول ساحة للمعركة مع النفس والشیطان تكون في قلب الإنسان، وتكون المعركة، معركة اتخاذ القرار. فمشكلة الكثير من الناس هو في عدم اتخاذهم للقرار الصائب لعمل الخير، فهناك يسقطون في حبال ومكائد الشيطان الذي يحاول جاهداً منعهم من نية الخير فضلاً عن عمله.

فالفرار إلى الله عز وجل، في المرحلة الأولى، يتمثل في التوكل عليه عند اتخاذ القرار.

المرحلة الثانية: التحرك هرباً؛ فيسعى الإنسان في الحياة أن يفر عملياً إلى الله عز وجل، وذلك -مثلاً- من خلال الذهاب إلى بيت الله الحرام حجاً، أو الهروب إلى أماكن آمنة كالمساجد والمراقد الشريفة التي عدّها الفقهاء من المساجد، ففي الحديث عن الإمام محمد الباقر عليه السلام، في قول الله تعالى: ﴿فَرُّوْا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْ نَّذِيرٍ مُّينٌ﴾، قَالَ: «حُجُّوا إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ»^(١).

(١) الكافي، الشيخ الكليني، ج ٤، ص ٢٥٦.

المرحلة الثالثة: الفرار من خلال اتخاذ إجراءات احترازية؛ فما من ذنب إلا وله تأثير سلبي في حياة الإنسان، سواء على جانب العمر أو الرزق أو الصحة أو حتى الذاكرة، وكل هذه مذكورة في الروايات المباركة. فإذا ازدادت مشاكل الواحد منا عليه أن يراجع نفسه، ويترك الذنوب التي اقترعها، ويستغفر الله تعالى منها، ليقى نفسه الابتلاءات والمشاكل.

المرحلة الرابعة: الهروب إلى الله من خلال الهروب إلى الدعاة إليه، كالأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وأفضلهم خاتمهم ﷺ، والأئمة الأطهار عليهم السلام، والعلماء الربانيون السائرون على طريق الهدى والإيمان.

وهناك استعاذة مروية في أحاديثنا تُقرأ عند وساوس إبليس، وكان العلماء يحافظون على هذه الاستعاذة قبل صلواتهم: «أَعُوذُ بِاللَّهِ الْقَوِيِّ مِنَ الشَّيْطَانِ الْغَوِيِّ، وَأَعُوذُ بِمُحَمَّدٍ الرَّضِيِّ مِنْ شَرِّ مَا قَدَّرَ وَقُضِيَ، وَأَعُوذُ بِاللَّهِ النَّاسِ مِنْ شَرِّ الْجَنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ»^(١).

وهذا نوع من الفرار إلى الله عز وجل.

الطريق الخاطئ

ولكن المشكلة تحدث في الفرار عندما يفر الإنسان إلى الملجأ الخطأ بسبب وساوس إبليس؛ فبدل الهروب إلى الله عز وجل، يتخذ الله شركاء يلتجئ إليهم، كالأصنام، بدءاً باحترامهم وتقديرهم، وانتهاءً بعبادتهم وتقديسهم.

والسبب الأساس في الشرك هو رغبة الإنسان في التخلي عن

(١) بحار الأنوار، الشيخ محمد باقر المجلسي، ج ٧٤، ص ٢٧١.

مسؤولية أفعاله، ومن خلال جعل الشركاء لله عز وجل - كجعل النصراني المسيح ابناً لله - يحاول إلقاء المسؤولية على عاتق الشريك، بل يصل الأمر ببعض أن يعبد سبب المشاكل والآفات وهو إبليس محاولةً منه للتخلص من وساوسه.

والقرآن الكريم يحذر من كل ذلك قائلاً: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْ نَّذِيرٍ مُّبِينٌ﴾.

فالطريق الوحيد هو الهروب إلى الله عز وجل وحده، فمنه نهرب ولكن إليه، وكما نقرأ في الدعاء المروي عن رسول الله ﷺ: «يَا مَنْ لَا مُنْجَا مِنْهُ إِلَّا إِلَيْهِ»^(١).

بصائر وأحكام

١- الفرار لا يكون إلا بعد الإحساس بالخطر المحدق، وبحاجة إلى سرعة القرار بالانتقال إلى مأمّن. الخطر الذي نفرّ منه؛ هو الذنوب والنفس والشيطان، والمأمّن هو كهف رحمة الرب.

٢- وتطبيقات الفرار إلى الله والتحوّل إلى مواطن رحمة الرب؛ تكون في مثل الحج والعمرة، وزيارة المساجد والمراقد المطهرة والعلماء، والدعاء إلى الله، والزيادة من الطاعات.

٣- أما ما يفعله المشركون من الدعاء للأنداد، فإنه كالفرار من الحفرة إلى البئر، والاستجارة من الرمضاء بالنار والعياذ بالله.

(١) بحار الأنوار، الشيخ محمد باقر المجلسي، ج ٩١، ص ٣٨٩.



تكذيب الرسالات بين التواصي بالباطل والطغيان

﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ﴾
﴿٥٢﴾ اتَّوَصَّاهُ بَلَّ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ .

تفصيل القول

١ - ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ﴾

لم يبعث الله رسولا إلا وقوبل بالرفض، ليس لخلل في الرسول أو الرسالة، بل لوجود خلل في المجتمع، وإلا لما كان من حاجة أن يرسل الله إليهم رسولا بعد رسول لإصلاحهم وهدايتهم.

ولكل مجتمع ثقافة يتحرك وفق معطياتها، وهي تتجسد عادة في إطار الكتب المكتوبة، والأشعار المنشودة، وحتى الأمثال التي تُضرب وتختصر المواقف. فكل هذه تمثل ثقافة المجتمع -أيّا كان- في حقبة زمنية.

والكارثة تتمثل في أن الجيل الصاعد يتلاقف هذه الثقافة من أسلافه دون تمحيص، بل يتقبلها قبول البدييات من دون أن يفكر في احتمالية خطأ الكثير منها. فكما يُدقق الإنسان النظر في طعامه الذي يأكله ويدخله إلى جوفه تدقيقاً كبيراً من حيث الجودة والصلاحية وعدم الضرر بالصحة، كان من المفروض عليه أن ينظر إلى الفكر والثقافة الداخلة إلى قلبه. وهذا أهم، إذ إن التسمم قد يتمكن الإنسان من التخلص منه عبر بعض العقاقير، في حين أن التخلص من الفكر الفاسد يحتاج إلى جهد كبير. فقد قال ربنا عز وجل: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾^(١). وجاء في تفسير هذه الآية عَنْ زَيْدِ الشَّحَامِ، عَنْ أَبِي جَعْفَرِ الْبَاقِرِ عليه السلام، قَالَ قُلْتُ: «مَا طَعَامُهُ؟» قَالَ عليه السلام: «عِلْمُهُ الَّذِي يَأْخُذُهُ بِمَنْ يَأْخُذُهُ»^(٢).

فعلى سبيل المثال، نجد أن أكثر من مئة وعشرين مثلاً شائعاً بين شعب موالٍ لآل البيت عليهم السلام الآن، إنما هي أمثلة فيها إهانة واضحة إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، نتيجة ثقافة أسلافه المخالفين للإمام قبل مئات السنين. وفي المقابل نجد في بلد آخر أمثلة تطعن بأعداء أهل البيت عليهم السلام، مع أنهم الآن ليسوا بموالين جداً لهم، وذلك لوجود ثقافة المحبة لهم قبل مئات السنين أيضاً.

فالأمثلة هذه تتداول بشكل طبيعي دون التأمل في مغزاها ومصدرها ومقصدتها، ومع تداولها تتشكّل قناعات معينة من دون وعي. ففي إيران كانت السلطات الجائرة تُعادي العلماء الربانيين، فتشكّلت أمثلة سلبية تجاههم من دون وعي من المجتمع.

(١) سورة عبس، آية ٢٤.

(٢) المحاسن، الشيخ أحمد بن محمد البرقي، ج ١، ص ٢٢٠.

بذر النفاق

وكما الأمثلة المسمومة، كذلك الأشعار ذات الثقافة الفاسدة تساهم في تخريب المجتمع.

على أن هذه الثقافات تنتشر في المجتمع بالطرق غير المباشرة أحياناً، فربما يتكلم الإنسان بكلام لبق وجميل وصحيح ولكن يخلطه بكلام باطل ليؤثر في الإنسان بشكل غير مباشر فيقتنع بباطله. وهناك إعلانات ممنوعة دولياً، تتمثل في بث مجموعة كبيرة من الصور بشكل متسارع يتم عرض البضاعة المراد تسويقها بين هذه الصور أكثر من مرة، فيتأثر الإنسان بهذا الإعلان من دون أن يشعر، وتكون لديه رغبة لشراء ذلك المنتج. وهذه الطرق غير المباشرة أخطر في تسريب الأفكار من الطرق المباشرة.

ولكي يبقى الإنسان طاهراً من دنس مثل هذه الثقافات الباطلة، عليه أن يغلق منافذ قلبه عن الباطل، وعمَّن ينطق به، لئلاً يتأثر به فيكون من أهله. ففي الحديث عن الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام قَالَ: «مَنْ أَصْغَى إِلَى نَاطِقٍ فَقَدْ عَبَدَهُ، فَإِنْ كَانَ النَّاطِقُ يُؤَدِّي عَنْ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَقَدْ عَبَدَ اللَّهَ، وَإِنْ كَانَ النَّاطِقُ يُؤَدِّي عَنِ الشَّيْطَانِ فَقَدْ عَبَدَ الشَّيْطَانَ»^(١).

وقال الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «مَنْ أَخَذَ دِينَهُ مِنْ أَفْوَاهِ الرِّجَالِ أَزَلَّتْهُ الرِّجَالُ، وَمَنْ أَخَذَ دِينَهُ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ زَالَتْ الْجِبَالُ وَلَمْ يَزُلْ»^(٢).

(١) الكافي، الشيخ الكليني، ج ٦، ص ٤٣٤.

(٢) وسائل الشيعة، الشيخ الحر العاملي، ج ٢٧، ص ١٣٢.

المجتمعات الكافرة

والمجتمعات الكافرة إنما كانت ترفض الرسل بشكل مباشر عبر إلقاء التهم ضدهم، لأنهم كانوا قد تشبّعوا بالثقافات الفاسدة.

يقول الله تعالى: ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجُنٌّ﴾.

ما هو السبب في هذا الأمر؟.

٢- ﴿أَتَوَصَّوْا بِهِمْ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾

والتواصي يعني أن يوصي الواحد الآخر بشيء معين؛ قبولاً أو رفضاً، عملاً أو تركاً، مما يشكل قناعة جماعية وثقافة اجتماعية تجاه أمر معين. وهذا هو السبب الأول في رفضهم للرسل، وهذه هي الثقافة الفاسدة.

والسبب الثاني هو طغيانهم، فحين يقول تعالى: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ ليست ﴿بَلْ﴾ اعتراضية حسبا يبدو لكي تعني نفي الأول، إنما تعني الانتقال من المستوى الأقل إلى المستوى الأعلى في بيان الأسباب.

فكما قال الكفار عن الرسول: إنه ساحر، ثم تبادوا في الغي فقالوا: مجنون، كذلك نحن نقول عنهم: ﴿أَتَوَصَّوْا بِهِمْ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾.

ما هو جذر الطغيان؟

إن الله عز وجل قد وهب للإنسان مليارات الخلايا في جسمه، وكل واحدة منها تعد نعمة عظيمة يعجز الإنسان عن صنع مثلها، وأعطاه ملايين النعم الأخرى التي إن عدها الإنسان لم يقدر على

إحصائها، ومع ذلك يريد المزيد، ويسعى من أجل الحصول عليه.

ولكن المشكلة العظمى تكون حين تتحوّل هذه النعم إلى أداة طغيان وإلى حُجُب بينه وبين ربه. ومن هنا نجد أن أدعية المؤمن تكون في إطار العبودية، فحين يدعو ربه يقول: «اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ الْأَوْصِيَاءِ الْمَرْضِيِّينَ، وَاجْنُبْنِي مَا أَهْمَنِي مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ»^(١)، أو يقول في صلاة عيد الفطر: «... أَنْ تُصَلِّيَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ، وَأَنْ تُدْخِلَنِي فِي كُلِّ خَيْرٍ أَدْخَلْتَ فِيهِ مُحَمَّدًا وَآلَ مُحَمَّدٍ، وَأَنْ تُخْرِجَنِي مِنْ كُلِّ سُوءٍ أَخْرَجْتَ مِنْهُ مُحَمَّدًا وَآلَ مُحَمَّدٍ صَلَوَاتِكَ عَلَيْهِ وَعَلَيْهِمْ. اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ خَيْرَ مَا سَأَلَكَ عِبَادُكَ الصَّالِحُونَ، وَأَعُوذُ بِكَ بِمَا اسْتَعَاذَ مِنْهُ عِبَادُكَ الْمُخْلِصُونَ»^(٢).

إنك تجد أن مسألته من الله للنعم، تبقى في إطار العبودية لله، اتباعاً للصالحين من قبله؛ وهكذا يجعل الآخرة نصب عينيه، لكيلا ينسى آخرته بما أنعم الله عليه في الدنيا. كل ذلك لكي يتجنب حالة الطغيان، وهو الاغترار بما لديه من النعم في الدنيا والغفلة عن المزيد منها هنا، وأعظم منها في الآخرة.

ولكن من لا يمتلك نصيباً من الإيمان يفتخر بالنعم البسيطة ويغتر بها، فإذا ما امتلك بيتاً أو سيارةً أو حصل على وظيفة... تكون هذه الأمور سبباً لتفاخره، وارتفاع نسبة الأناية لديه، مما يؤدي إلى الطغيان ونسيان الآخرة؛ الأمر الذي يؤدي به إلى السقوط في وادي التكذيب بالحق.

ولخطورة الطغيان يحذر الإسلام من مقدماته المتمثلة بالغرور والتفاخر، بل ويحذر منه في حديث النفس ووساوسه أيضاً. وهذا ما نقرؤه فيما روي عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام، إذ قال: «إِنَّ عَيْسَى ابْنَ مَرْيَمَ

(١) مصباح المتجهّد، الشيخ الطوسي، ص ٨٠٢.

(٢) مصباح المتجهّد، الشيخ الطوسي، ص ٦٥٤.

كَانَ مِنْ شَرَائِعِهِ السَّيْحُ^(١) فِي الْبِلَادِ، فَخَرَجَ فِي بَعْضِ سَيَحِهِ وَمَعَهُ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِهِ قَصِيرٌ، وَكَانَ كَثِيرَ اللَّزُومِ لِعِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَلَمَّا انْتَهَى عِيسَى إِلَى الْبَحْرِ قَالَ: بِسْمِ اللَّهِ، بِصِحَّةِ يَقِينٍ مِنْهُ، فَمَشَى عَلَى ظَهْرِ الْمَاءِ. فَقَالَ الرَّجُلُ الْقَصِيرُ حِينَ نَظَرَ إِلَى عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ جَاوِزُهُ: بِسْمِ اللَّهِ، بِصِحَّةِ يَقِينٍ مِنْهُ، فَمَشَى عَلَى الْمَاءِ وَلَحَقَ بِعِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَدَخَلَهُ الْعُجْبُ بِنَفْسِهِ، فَقَالَ: هَذَا عِيسَى رُوحُ اللَّهِ يَمْشِي عَلَى الْمَاءِ، وَأَنَا أَمْشِي عَلَى الْمَاءِ، فَمَا فَضْلُهُ عَلَيَّ؟ قَالَ: قُرْمَسَ فِي الْمَاءِ، فَاسْتَعَاثَ بِعِيسَى، فَتَنَاوَلَهُ مِنَ الْمَاءِ فَأَخْرَجَهُ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: مَا قُلْتَ يَا قَصِيرٌ؟ قَالَ: قُلْتُ: هَذَا رُوحُ اللَّهِ يَمْشِي عَلَى الْمَاءِ وَأَنَا أَمْشِي، عَلَى الْمَاءِ فَدَخَلَنِي مِنْ ذَلِكَ عُجْبٌ. فَقَالَ لَهُ عِيسَى: لَقَدْ وَضَعْتَ نَفْسَكَ فِي غَيْرِ الْمَوْضِعِ الَّذِي وَضَعَكَ اللَّهُ، فِيهِ فَمَقَّتَكَ اللَّهُ عَلَى مَا قُلْتَ، فَتُبَّ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مِمَّا قُلْتَ. قَالَ: فَتَابَ الرَّجُلُ وَعَادَ إِلَى مَرْتَبَتِهِ الَّتِي وَضَعَهُ اللَّهُ فِيهَا^(٢).

بصائر وأحكام

- ١ - مشكلة الأجيال المتلاحقة توارثهم للثقافات الفاسدة عبر الكتب والأمثال، وحتى الأشعار من دون تمحيص منهم. وهكذا تجدها تتواصى بمواجهة المصلحين، وفي طليعتهم الأنبياء عَلَيْهِ السَّلَامُ.
- ٢ - والداء العضال طغيان الإنسان بما يملك من نعم تحجبه عن ربه وعن طلب المزيد منها في الدنيا ثم الأفضل منها في الآخرة، والطغيان علة التكذيب بالرسالات.

(١) السيح: الذهاب في الأرض للعبادة.

(٢) الكافي، الشيخ الكليني، ج ٢، ص ٣٠٦.



إن الله هو الرزاق

﴿فَقُولْ عَنْهُمْ فَأَمَّا أَنْتَ بِمَلُومٍ ۝٥٤ وَذَكَرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ نُنْفَعُ
الْمُؤْمِنِينَ ۝٥٥ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦
مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا ۝٥٧ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَاقُ
ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ۝٥٨﴾.

تفصيل القول

بعد أن كَذَّبَ الناس نبيهم أمر الله عز وجل نبيه بتركهم لشأنهم
والابتعاد عنهم، حين قال تعالى:

١ - ﴿فَقُولْ عَنْهُمْ فَأَمَّا أَنْتَ بِمَلُومٍ﴾.

فما دام المجتمع منحرفاً فكرياً وثقافياً وسلوكياً، فلا تبقى
مسؤولية على الرسول، بل له أن يتركهم ولا يهلك نفسه في محاولة
هدايتهم. وفي هذه الحالة لا أحد يلوم الرسول على فعله، لأنه قد أدى

ما عليه من مسؤولية، فلا يحق لأحد أن يلومه بعد ذاك.

وهذا الأمر يسري في العلماء أيضاً، فهم يقومون بدورهم ويؤدون واجبهم في تبليغ الدين وإرشاد الجاهل والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أما الناس فهم المسؤولون عن أنفسهم؛ هداها أو ضلالتها، وهم الذين يحاسبون على عدم استجابتهم لنداء الرحمن.

الذكرى

بعد أن نزلت هذه الآية ظن الناس أن العذاب الإلهي سينزل عليهم، وكانت العادة في الأمم أنه إذا ترك النبي الناس فإنه نذير بنزول عذاب الله عز وجل. والأمر الإلهي بالتولي عنهم كان يشير إلى ذلك. ولكن الأمر كان مختلفاً عند نبي الرحمة، فإن الله سبحانه لم ينزل العذاب. فقد جاء في ذلك الحديث عن الإمامين محمد الباقر وجعفر الصادق عليه السلام: «إِنَّ النَّاسَ لَمَّا كَذَّبُوا بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، هَمَّ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِهَلَاكِ أَهْلِ الْأَرْضِ إِلَّا عَلَيْنَا فَمَا سِوَاهُ بِقَوْلِهِ: ﴿فَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ﴾، ثُمَّ بَدَأَ لَهُ فَرَحِمَ الْمُؤْمِنِينَ، ثُمَّ قَالَ لِنَبِيِّهِ ﷺ: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾»^(١).

التذكرة مسؤولية الجميع

٢- ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾

ومن خلال التدبر في قوله تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾، يمكننا أن نعرف أن التذكرة ليست مسؤولية النبي

(١) الكافي، الشيخ الكليني، ج ٨، ص ١٠٣.

وحده، بل على كل مؤمن أن يدعو إلى الله عز وجل، دعوة المذكر وليس أكثر من ذلك. ويمكننا فهم هذه الحقيقة من الآية المباركة إذا ما انتبهنا إلى النقاط التالية:

١ - إن القرآن الكريم نزل على صيغة «إياك أعني واسمعي يا جارة»، فقد قال الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «نَزَلَ الْقُرْآنُ بِإِيَّاكَ أَعْنِي وَأَسْمِعِي يَا جَارَةً»^(١).

٢ - الذكرى محلاة بالآلف واللام، دلالة على عموم التذكرة.

٣ - وانتفاع المؤمنين بالذكرى ليس محصوراً بحقبة زمنية واحدة، بل يعم جميع المؤمنين في كل مكان وزمان.

فالمؤمن ينتفع بالذكرى وينفع بها غيره، وهذه مسؤولية كل مؤمن يريد الخير والصلاح للناس.

فما دامت الثقافات الباطلة والفاصلة تنتشر في بلداننا انتشار النار في الهشيم عبر الفضائيات ومواقع الإنترنت.. لا بد أن تنتشر في المقابل ثقافة الحق والصلاح، وهذا الأمر غير ممكن عبر الطرق المعهودة فقط (أي الفضائيات والصحف والإنترنت و...) إذ إن الأعداء هم من يمتلكون هذه الوسائل أكثر منا، وهم المسيطرون عليها وقدرتهم في التحكم بها أكثر منا بكثير.

فلا بد من السير في طريق (التذكرة) بأن يذكر المؤمن أخاه عبر أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر وإرشاده السبيل المستقيم، لكيلا ينحرف مع سيل الثقافات الباطلة. ولا بد أن تنتهي حالة الانقباض والانطواء لدى المؤمنين، بل تتحول إلى واقع الانبساط والمبالغة في

(١) الكافي، الشيخ الكليني، ج ٢، ص ٦٣١.

نشر الحق وثقافة التواصل بالصدق والعدل في كل مكان وذلك عبر التذكرة.

وهذا هو أسلوب الإسلام في نشر تعاليمه، وإلا فكيف انتشر الإسلام بتلك السرعة في المعمورة، حيث لم تكن هناك فضائيات أو إذاعات أو مطابع أو.. كان الأسلوب المتبع هو أسلوب التذكرة. روي عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنه قال: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ خَطَبَ النَّاسَ فِي مَسْجِدِ الْخَيْفِ، فَقَالَ: نَضَرَ اللَّهُ عَبْدًا سَمِعَ مَقَالَتِي فَوَعَاَهَا وَحَفِظَهَا وَبَلَّغَهَا مَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا. فَرُبَّ حَامِلٍ فِيهِ غَيْرُ فِقْهِهِ وَرُبَّ حَامِلٍ فِيهِ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ»^(١).

أو ما جاء في حديث آخر للنبي ﷺ يقول فيه: «بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً»^(٢).

الرزاق

١ - ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾^(٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُونِ^(٥٧) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿

بعد آية الذكرى تأتي ثلاث آيات مرتبطة بعضها ببعض، ونحن نبتدئ بالآية الأخيرة ونعود إلى الآيتين الأوليين في وقت لاحق إن شاء الله.

فالرب هو الرزاق، والآية لم تقل (رازق)، بل قالت (رزاق). وهذه صفة مبالغة تعني أن هذا الرازق دائم العطاء، لا ينقطع رزقه.

(١) الكافي، الشيخ الكليني، ج ١، ص ٤٠٣.

(٢) كنز العمال، الشيخ المتقي الهندي، ج ١٠، ص ٢٢٣.

فما هو الرزق؟.

الطعام والشراب جزء من الرزق، والأوكسيجين في الهواء نوع من الرزق، وكل النعم الإلهية من العافية والأمن.. رزق إلهي، بل حتى وجود الإنسان في هذه الدنيا رزق ورحمة من الله تعالى.

فكل شيء هو رزق الله تعالى، فلماذا خلقنا الله تعالى؟

نجد الجواب في حديث منسوب لأمر المؤمنين عليه السلام يقول فيه: يقول الله تعالى: «يَا ابْنَ آدَمَ؛ لَمْ أَخْلُقْكَ لَأَرْبَحَ عَلَيْكَ، إِنَّمَا خَلَقْتُكَ لِيَرْبَحَ عَلَيَّ، فَاتَّخِذْنِي بَدَلًا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، فَإِنِّي نَاصِرٌ لَكَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ»^(١).

فالله تعالى خلق الخلق ليرحمهم، كما يقول عز وجل: ﴿إِلَّا مَنْ رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾^(٢).

إذا كان الأمر كذلك، فما هي حاجة الرب الرزاق القوي إلى عبادتنا نحن الضعفاء المحتاجين؟.

للإجابة عن هذا السؤال نقول: إن رزق الله تعالى موجود، ورحمته واسعة، ولكن هناك شروط ينبغي أن تتوافر في الإنسان ليكون مؤهلاً لهذه الرحمة الإلهية، وأساس هذه الشروط الإيمان بالله عز وجل وعبادته والتضرع إليه. أرايت كيف أن أمواجاً مختلفة تسبح في الفضاء ولكنك لا تستفيد منها إلا بعد أن تشغل جهاز الراديو أو أجهزة اللاسلكي أو الجوال؟

(١) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد المعتزلي، ج ٢٠، ص ٣١٩.

(٢) سورة هود، آية ١١٩.

بصائر وأحكام

١ - المؤمن بحاجة إلى التذكرة، والذكرى تنفعه، وهي مسؤولية كل مؤمن، وتترامى مسؤولية الذكرى حتى تسع كل الناس بأقرب فرصة.

٢ - وربنا الرزاق، ووجودنا وحياتنا وما نملك إنما هو من رزقه الدائم، ولكننا بحاجة إلى التعرض لرزقه لكي نستفيد منه بأكثر قدر ممكن.



كيف نقاوم شهواتنا ووساوس إبليس؟

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ
مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُونَ ٥٧ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ
الْمَتِينُ ﴿٥٨﴾

تفصيل القول

ماذا نصنع لنكون في مسير عبادة الله عز وجل، حتى نصل إلى
ذلك التكامل والتسامي الذي يعد الهدف الأساس من الخلقة؟
وكيف يمكننا أن نقاوم شهواتها وإبليس ووساوسه لنصل إلى
ذلك المعين الصافي المودع في أرواحنا لننهل منه شراباً طهوراً؟
للإجابة نقول: للوصول إلى هذه الأمنية الغالية نحتاج إلى تجاوز
مراحل معينة، وهي:

١- الأمل

لكيلا تفشل في الحياة فلا بد أن تطرد الفشل من داخلك أولاً، وذلك عبر محاربة اليأس والقنوط وأسبابها.. لأن الإنسان لا يهزم في الحياة إلا بعد هزيمة داخلية.

ومن هنا ترى إبليس يعمل ليل نهار وبشتى السبل ليدخل الشك واليأس في قلب الإنسان، ليمنعه من التطلع إلى هدف سام، ومن ثمَّ ليمنعه من الكد والسعي من أجله. فيمنع الشاب عن طاعة الله بحجة أنه شاب له من الطاقات ما يؤهله للسعادة، فلماذا الطاعة لله؟ وإن كانت ضرورية، ففي المستقبل متسع من الوقت. ويوسوس للكهل بأنه قد قضى عمره في معصية الله، فكيف له العودة إلى الله والإنابة إليه والقيام بالأعمال الصالحة!.

وفي الواقع فإن وساوس إبليس للإنسان، وبالذات فيما يرتبط ببعث اليأس في قلبه ربما تكون خفية جداً، ولكنها ذات تأثير كبير على روحه التي تتحوّل إلى روح مهزومة؛ الأمر الذي يظهر عند اتخاذ القرارات المصيرية والمواقف الحاسمة، فيفشل في اتخاذ قرار شجاع.

ينقل لنا التاريخ قصة حميد بن قحطبة، وكان والياً من ولاية العباسيين، حيث إنه أيس من رحمة الله، فصار غارقاً في حضيض الذنوب والآثام، حيث إن زائراً زاره في داره في شهر رمضان فوجده مفطراً لغير علة، وحين استفسر الضيف عن سبب إفطاره، ذكر حميد قصته المفصلة مع هارون الرشيد، وكيف قتل ستين سيّداً من أبناء علي وفاطمة عليهما السلام في ليلة واحدة، وبعد ذلك قال حميد للضيف: فَإِذَا كَانَ فِعْلِي هَذَا وَقَدْ قَتَلْتُ سِتِّينَ نَفْساً مِنْ وُلْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَمَا يَنْفَعُنِي

صَوْمِي وَصَلَاتِي وَأَنَا لَا أَشْكُ أَنِّي مُحَلَّدٌ فِي النَّارِ^(١).

وفي الواقع أنه كان قد طبع الشيطان على قلبه حتى أيس من رحمة الله عز وجل، وإلا فإن الله يغفر الذنوب جميعاً، ولذلك صار قنوطه أعظم من ذنوبه.

ويروى أن الزهري عَزَّرَ غُلَاماً لَهُ، فَمَاتَ تَحْتَ يَدِهِ، فَقَطَعَ حَتَّى أَتَى عَلِيَّ بْنَ الْحُسَيْنِ عليه السلام فَقَالَ لَهُ: «قُنُوطُكَ أَعْظَمُ مِنْ ذَنْبِكَ»^(٢).

والقنوط من رحمة الله من أقوى أسلحة إبليس، ألا ترى اليأس من رحمة الله عز وجل كيف لا يتورع عن ارتكاب المعاصي ما دام اليأس محيطاً بقلبه؟

٢- اتخاذ القرار

المرحلة التالية تتمثل في شحذ العزيمة وتوفير الإرادة، حيث علينا أن نشحذ إرادتنا لفعل الخير وترك الشر مسبقاً، وقبل وقت الحاجة، حتى لا نتردد في اتخاذ القرار الحاسم.

ومن لم يفعل هذا الأمر، فسيكون من المحتمل أن تزل قدماه عند اتخاذ القرار الحاسم. ولتتضح الفكرة لا بد من بيان مصداق لمن بَيَّتْ نية الخير لتسنع الفرصة فينتهزها للفوز برضوان الرب تعالى.

كان لأبي ذر الغفاري رضوان الله عليه عبد يسمى (جون) وكان أسود اللون، لا حسب له ولا نسب، ولكن رفقته لمولاه أبي ذر أثرت فيه تأثيراً بالغاً حتى صنعت منه رجلاً صالحاً، وكيف لا يفعل أبو ذر

(١) راجع: عيون أخبار الرضا عليه السلام، الشيخ الصدوق، ج ٢، ص ١٠٢.

(٢) المسترشد، الشيخ محمد بن جرير الطبري، ص ١٥١.

ذلك وهو من نشر الإسلام والتشيع في جنوب لبنان، حيث يفتخر المؤمن هناك بأن أسلافه تشرّفوا باعتناق التشيع على يد أبي ذر.

وبعد أن مات أبو ذر رضوان الله عليه في الربذة، انتقل جون ليخدم الإمام الحسن المجتبي عليه السلام. وكفى بهذا الفعل دليلاً على صلاح نية الرجل، وخدم الإمام الحسن عليه السلام عشر سنوات، وبعد استشهاد الإمام انتقل لخدمة الإمام الحسين عليه السلام، وفي كل تلك الفترة كان الرجل يخطط مع نفسه ليكون نجماً لامعاً في سماء الإسلام والدفاع عن الحق وعن أهل البيت عليهم السلام.

وفي يوم عاشوراء، تقدم الرجل وكان قد بلغ من العمر عتياً، يطلب الإذن من الإمام الحسين عليه السلام للمبارزة - ولم تكن العادة أن يقاتل العبيد في الحروب - فلم يأذن الإمام عليه السلام له رافقاً به قائلاً: «أَنْتَ فِي إِذْنٍ مِنِّي، فَإِنَّمَا تَبِعْتَنَا طَلَباً لِلْعَافِيَةِ، فَلَا تَبْتَلِ بِطَرِيقِنَا».

فقال: يا ابن رسول الله؛ أنا في الرخاء أحسّ قصاعكم، وفي الشدة أخذلكم! والله إن ريجي لمتن، وإن حسبي للثيم، ولوني لأسود؛ فتتنفس عليّ بالجنة، فطيب ريجي، ويشرف حسبي، ويبيض وجهي. لا والله؛ لا أفارقكم حتى يختلط هذا الدم الأسود مع دماءكم ^(١).

ثم قاتل الرجل حتى استشهد، فوقف عليه الإمام الحسين عليه السلام وقال: «اللَّهُمَّ بَيِّضْ وَجْهَهُ، وَطَيِّبْ رِيحَهُ، وَاحْشُرْهُ مَعَ الْأَبْرَارِ، وَعَرِّفْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ» ^(٢).

وَرَوَى عَنِ الْإِمَامِ مُحَمَّدٍ الْبَاقِرِ عليه السلام، عَنْ الْإِمَامِ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ عليه السلام: «أَنَّ النَّاسَ كَانُوا يَحْضُرُونَ الْمَعْرَكَةَ وَيَدْفِنُونَ الْقَتْلَى فَوَجَدُوا

(١) بحار الأنوار، الشيخ محمد باقر المجلسي، ج ٤٥، ص ٢٢.

(٢) بحار الأنوار، الشيخ محمد باقر المجلسي، ج ٤٥، ص ٢٣.

جَوْناً بَعْدَ عَشْرَةِ أَيَّامٍ تَفُوحُ مِنْهُ رَائِحَةُ الْمِسْكِ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ»^(١).

أيمكن للإنسان الحصول على هذا المقام العالي والمرتبة السامية من دون إرادة وعزيمة؟ ولم تكن همة هذا الرجل الحصول على المال أو أي شيء آخر، بل أراد مجاورة أهل البيت عليه السلام في الجنة.

٣- الغاية السامية

يقول الله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) أَرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً (٢٨) فَأَدْخِلِي فِي عَبْدِي (٢٩) وَأَدْخِلِي جَنَّتِي﴾^(٢).

هاهنا مبلغ آمال المؤمنين بأن يصلوا إلى هذه المرحلة من الكمال، بأن يدخلهم الله في عباده -وهم عباده المكرمون- وهذه النعمة من أعظم النعم، ولعلها أهم من الجنة. ألا ترى أن ذكر الجنة قد تأخر عن ذكر الدخول في عباد الله عز وجل؟

أرأيت لو أنك خيّرت بين فندق فخم ذي خمسة نجوم، والجلوس إلى عالم رباني في كوخ للاستماع إلى نصحه ورشده، فإنك ستختار الثاني بلا تردد. كذلك المؤمن يختار الجلوس إلى الأنبياء والأوصياء والأئمة في الجنة، مع حصوله على النعيم في الجنان.

وإذا وصل الإنسان إلى هذه المرحلة سيكون مكراً عند الله عز وجل، بحيث يأمر الرب ملك الموت باستئذانه في قبض روحه، فيأتيه ملك الموت بصور مختلفة لتهيئته نفسياً لقبض روحه.

فعن رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا يَزَالُ الْمُؤْمِنُ خَائِفًا مِنْ سُوءِ الْعَاقِبَةِ،

(١) بحار الأنوار، الشيخ محمد باقر المجلسي، ج ٤٥، ص ٢٣.

(٢) سورة الفجر، آية ٢٧-٣٠.

لَا يَتَيَقَّنُ الْوُصُولَ إِلَى رِضْوَانِ اللَّهِ، حَتَّى يَكُونَ وَقْتُ نَزْعِ رُوحِهِ وَظُهُورِ
مَلَكِ الْمَوْتِ لَهُ.

وَذَلِكَ أَنَّ مَلَكَ الْمَوْتِ يَرُدُّ عَلَى الْمُؤْمِنِ - وَهُوَ فِي شِدَّةٍ عَلَيْهِ،
وَعَظِيمٍ ضَيْقٍ صَدْرِهِ بِمَا يُخَلِّفُهُ مِنْ أَمْوَالِهِ، وَلَمَّا هُوَ عَلَيْهِ مِنْ [شِدَّةٍ]
اضْطِرَابٍ أَحْوَالِهِ - فِي مُعَامَلِيهِ وَعِيَالِهِ [وَأَقْدَ بَقِيَّتٍ فِي نَفْسِهِ حَسْرَاتُهَا،
وَأَقْتَطَعَ دُونَ أَمَانِيَّتِهِ فَلَمْ يَنْلُهَا.

فَيَقُولُ لَهُ مَلَكُ الْمَوْتِ: مَا لَكَ تَجَرَّعُ غُصَصَكَ فَيَقُولُ: لِاضْطِرَابِ
أَحْوَالِي، وَأَقْتِطَاعِكَ لِي دُونَ [أَمْوَالِي وَ] أَمَالِي.

فَيَقُولُ لَهُ مَلَكُ الْمَوْتِ: وَهَلْ يَحْزَنُ عَاقِلٌ مِنْ فَقْدِ دِرْهَمٍ زَائِفٍ
وَاعْتِيَاضِ أَلْفِ أَلْفِ ضِعْفِ الدُّنْيَا؟ فَيَقُولُ: لَا.

فَيَقُولُ مَلَكُ الْمَوْتِ: فَانْظُرْ فَوْقَكَ. فَيَنْظُرُ، فَيَرَى دَرَجاتِ الْجَنَانِ
وَقُصُورَهَا الَّتِي تَقْصُرُ دُونَهَا الْأَمَانِيُّ، فَيَقُولُ مَلَكُ الْمَوْتِ: تِلْكَ مَنَازِلُكَ
وَنِعْمُكَ وَأَمْوَالُكَ وَأَهْلُكَ وَعِيَالُكَ وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِكَ هَاهُنَا وَدُرِّيَّتِكَ
صَالِحًا، فَهُمْ هُنَاكَ مَعَكَ أَفْتَرَضَى بِهِ بَدَلًا مِمَّا هُنَاكَ فَيَقُولُ: بَلَى وَاللَّهِ.

ثُمَّ يَقُولُ: انْظُرْ. فَيَنْظُرُ، فَيَرَى مُحَمَّدًا وَعَلِيًّا وَالطَّيِّبِينَ مِنْ أَهْلِهَا فِي
أَعْلَى عِلِّيِّينَ، فَيَقُولُ [لَهُ]: أَوْتَرَاهُمْ هَؤُلَاءِ سَادَاتُكَ وَأَيْمَتُكَ، هُمْ هُنَاكَ
جُلَاسُكَ وَأَنَاسُكَ [أَأَفْتَرَضَى بِهِمْ بَدَلًا مِمَّا تَفَارِقُ هَاهُنَا فَيَقُولُ: بَلَى
وَرَبِّي.

فَذَلِكَ مَا قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ
اسْتَقْبَلُوا تَنْزِيلَ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾ ﴿فَمَا
أَمَامَكُمْ مِنَ الْأَهْوَالِ فَقَدْ كُفِّتُمْوهَا،﴾ ﴿وَلَا تَحْزَنُوا﴾ عَلَى مَا تُخَلِّفُونَهُ
مِنَ الدَّرَارِيِّ وَالْعِيَالِ [وَالْأَمْوَالِ]، فَهَذَا الَّذِي شَاهَدْتُمُوهُ فِي الْجَنَانِ بَدَلًا

مِنْهُمْ ﴿وَأَبَشِّرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ ، هَذِهِ مَنَازِلُكُمْ وَهَؤُلَاءِ سَادَاتُكُمْ وَأَنَا سَيِّدُكُمْ وَجَلَّاسُكُمْ^(١).

وحين يكون الإنسان المؤمن في هذه المرحلة، يكون راضياً عن الله عز وجل تعالى، مرضياً عند رب العزة والجلالة.

٤- الدليل إلى الله

لا يسير الإنسان في طريق إلا وهو بحاجة إلى من يده إلى الجادة، وطريق الوصول إلى العبودية والسلوك إلى الله عز وجل أخطر من الطرق المادية في الدنيا، وهو بحاجة إلى مرشد ودليل يدل الإنسان على الصراط المستقيم.

وهذا الأمر يتجسد في اتخاذ القدوات الصالحة في طريق العبودية، وينبغي أن تكون القدوة من يصلح الاقتداء به من الأنبياء والأوصياء والأئمة، أو أصحاب الأئمة الأطهار عليهم السلام وأهل بيته، لأن يتخذ الإنسان شخصيات مشبوهة قدوات لنفسه للوصول إلى الله عز وجل، فتلك الرموز لا تزيد الإنسان إلا بعداً من الله عز وجل. واتخاذ القدوة الصالحة بحاجة إلى عدة خطوات:

أ- اختيار القدوة؛ كأن يختار الشاب علياً الأكبر عليه السلام قدوة له، أو أبا الفضل العباس عليه السلام مرشداً له في طريق الوصول إلى الله.

ب- دراسة سيرتهم والتحقيق في سيرتهم وأقوالهم وأفعالهم، للاقتداء بهم في هذا الجانب. أليسوا هم أسوته في هذا الطريق؟

(١) تفسير الإمام الحسن العسكري عليه السلام، ص ٢٣٩.

ت- الارتباط بهم عبر زياراتهم من قريب أو بعيد، وإهداء الأعمال الصالحة لهم، ...

وبعد هذه الخطوات يكون الاقتداء بالأسوة الصالحة أمراً ممكناً لمريد طريق الحق والهدى.

بصائر وأحكام

١- لكي يتسامى الإنسان في درجات التكامل، عليه أن يتجاوز مراحل الأمل ومواجهة وساوس إبليس في بثّ اليأس، ثم توفير الإرادة وشحن عزام النية باتخاذ القرار سلفاً وقبل وقت الحاجة للكبح بالخير ومجانبة الشر، وبعدئذ التطلع لبلوغ درجة الراضين المرضيين الموعودين بمؤانسة عباد الله ودخول الجنة.

٢- في العروج إلى الله لا بد أن يتخذ المؤمن قدوة له من السابقين، فيدرس سيرته، ويتمثل خلقه، ويتقرب إلى الله بزيارته، والتوسل به إلى ربه.



كيف نتعايش مع الخليفة؟

﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ (٥٨) فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا مِّثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥٩﴾ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾ .

تفصيل القول

حين ينظر المرء إلى عنان السماء في ليلة يكون هواؤها نقيًا، سيري صفحة السماء وقد رُصِّعت بملايين النجوم، أو حين ينظر إلى الأرض وما عليها من دابة، أو البحار وما في أعماقها من الغرائب، أو حتى حين يتفكر في خلايا جسده، يطرح هذا السؤال: هل يمكن الارتباط مع هذه الخليفة؟ مع النجوم، والأقمار، والبراري، والقفار، والبحار، والحيوانات، وفي النهاية مع الكائنات جميعاً؟

بلى؛ إن ذلك ممكن، وطريق الارتباط بالخليفة هو الارتباط

رب الخليفة، لأن رب الإنسان هو ربها جميعاً.

إن الخليفة التي من حولنا كلها ترتبط مع الله سبحانه وتعالى، وليس الإنسان وحده. فليس هو وحده يملك الإدراك، ولا هو وحده الذي يسبح بحمد ربه. فهذه الحيوانات والأشجار وحتى الأحجار لها جميعاً صلة بربها؛ فهي تسبحه وتناجيه، وتصلي وتدعو. يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾^(١).

فالأشجار، والجبال، والبحار، والطيور.. كلها تسبح ربها، بل وحتى الأنعام. ورُبَّ مركوب هو أقرب إلى ربه من راكبه. وقد جاء في الحديث عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «لَا تُضَرِّبُوا الدَّوَابَّ عَلَى وُجُوهِهَا، فَإِنَّهَا تُسَبِّحُ بِحَمْدِ رَبِّهَا»^(٢).

وقد جاء في الحديث عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «الصَّاعِقَةُ لَا تُضِيبُ ذَاكِرًا، وَلَيْسَ يُصَادُ مِنَ الطَّيْرِ إِلَّا مَا ضَيَّعَ تَسْبِيحَهُ»^(٣).

فطريق الارتباط بالمخلوقين يكون بالتقرب لله سبحانه وتعالى، لأن الخليفة تسير في نظام دقيق من السنن الإلهية، وتلك السنن قدرها الرب وهيمن عليها وهو يجريها حسبما يشاء في خلقه. وإذ يريد الإنسان أن يزداد علاقة بالخالق، فعليه أن يتقرب إليه بمعرفته وطاعته، وبالعروج إليه في العبادات كالصلوات. فلتكن الصلوات قرة عين لنا، لأنها تربطنا بربنا، ولتكن كما كانت لرسول الله ﷺ، وهو القائل:

(١) سورة الإسراء، آية ٤٤.

(٢) المحاسن، الشيخ أحمد بن محمد البرقي، ج ٢، ص ٦٣٣.

(٣) المحاسن، الشيخ أحمد بن محمد البرقي، ج ١، ص ٢٩٤.

«جُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ». وكان يقول: «أَرْحَنَا يَا بَلَّالُ»^(١). وذلك عندما يتأخر عن الأذان قليلاً بعد دخول الوقت.

وحين يزداد الإنسان قرباً من ربه، فإنه يبدأ ينظر إلى الخليفة بنظرة أخرى، فيتعايش معها ويرأها كلها خلق الله عز وجل، حتى يصل إلى درجة من الكمال، ليقول كما قال أمير المؤمنين عليه السلام: «وَاللَّهِ لَوْ أُعْطِيتُ الْأَقَالِيمَ السَّبْعَةَ بَمَا تَحْتَ أَفْلَاكِهَا عَلَى أَنْ أَعْصِيَ اللَّهَ فِي نَمْلَةٍ أَسْلُبَهَا جَلْبَ شَعِيرَةٍ مَا فَعَلْتُهُ»^(٢).

فبأي حق أظلم نملة، أو أقطع نبتة، أو أفسد في الأرض؟ أليست هي خليفة الله؟

وحين يزداد الإنسان قرباً من الله يسمو نظره إلى ما حوله وإلى الناس، فيتغير تعامله معهم، ويزداد حباً لهم، لأنه يبدأ سيره التكاملي من الله، ثم الخليفة فيعيش معها. ومن هنا فمن كانت لديه نظرة استعلاء على الناس وحالة تكبر، فليس بمؤمن حقاً، وبالتالي تكون ثقافة المؤمن ثقافة الرحمة، وهي ثقافة الإسلام.

وحين نقول ذلك فإننا نعني ثقافة مدرسة أهل البيت عليهم السلام، لا تلك التي تقتل الأبرياء والأطفال باسم الإسلام، والإسلام منهم براء. إنما تلك الرحمة التي أرسل الله بها رسوله الأكرم محمد عليه السلام، وهو القائل عز وجل: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾^(٣).

من هنا يبدأ الإنسان بسيره حين تكون له علاقة مع الله، وتكون له علاقة مع مخلوقاته أيضاً، تدفعه إلى حب الإصلاح؛ على العكس

(١) بحار الأنوار، الشيخ محمد باقر المجلسي، ج ٧٩، ص ١٩٣.

(٢) نهج البلاغة، خطبة رقم ٢٢٤.

(٣) سورة الأنبياء، آية ١٠٧.

تماماً من الثقافة الحاكمة اليوم التي تتمحور حول الذات ومصالحها، والذي أدى إلى فساد الأرض فيقول الواحد منهم (فليأت من بعدي الطوفان). وهي نابعة من الأفكار الداروينية المنحرفة التي صورت لنا كل شيء في صراع في هذه الخليقة.

ولكن من يعيش مع هذه الخليقة ومع النظام الحاكم عليها، والذي ينطلق من العلاقة بالله سبحانه وتعالى ثم بخليقته، فإنه سيعيش حياة هائلة ومطمئنة، لأنه سينسجم مع السنن الإلهية التي خُلق الكون على أساسها.

الرزق من الله

ثم يقول ربنا تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾

لأن الله يعطي الرزق لمن يشاء، ولأن الله هو الرزاق، فعبادته لا تعني وصول شيء من العبد إليه. أرايت الشمس، هل يصل إليها من الإنسان ومضة شعاع؟ كلاً؛ إنها هي التي ترسل أشعتها باستمرار إلى منظومتها بإذن الله تعالى. ولأنه سبحانه ذو القوة المتين، فإنه لا يستقوي بأحد من خلقه، بل خلقه هم الذين يعتمدون عليه ويستمدون قوتهم منه. وقد جاء في الدعاء: «وَأَمْنُنْ بِغِنَاكَ عَلَى فَقْرِي، وَبِحِلْمِكَ عَلَى جَهْلِي، وَبِقُوَّتِكَ عَلَى ضَعْفِي، يَا قَوِيُّ يَا عَزِيزُ»^(١).

ويبدو أن هذه الآية تفسير لحقيقة العبادة التي خلق الله الخلق لها.

ثم قال ربنا: ﴿إِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا مِثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعِجِلُونَ﴾

قالوا: الذنوب: الفرس ذو الذنب الطويل، وسُمِّي به الدلو

(١) مصباح المتهجد، الشيخ الطوسي، ص ٨٠٢.

الكبير الذي يربط في نهايته الحبل لتسهيل عملية التفريغ. واستخدمت الكلمة بمعنى النصيب، ولعله النصيب الذي يشترك فيه طائفة من الناس. فيكون معنى الآية: إن لهم نصيباً من الذنوب يصيبهم بعد نصيب السابقين؛ أي إن لهم دورهم، فلينتظروا ولا يستعجلوا، كما أن لكل قوم دورهم في تقسيم الماء ذنباً هؤولاء وذنباً لأولئك على الترتيب؛ بمعنى أن لكل عمل جزاء محتوماً. فإذا كانت الأمم السابقة قد نالها نصيبها من العقاب بسبب كفرها وظلمها، فإن لهذه الأمة أيضاً نصيبهم.

ويبقى سؤال: لماذا استخدمت كلمة الظلم هنا بدل الكفر؟

لأن الظلم أشمل من الكفر، فهي تشمل من كان ظاهرهم الإيثار ولكنهم كانوا ظالمين، ومصدق ذلك هم مَنْ ظَلَمَ آلَ مُحَمَّدٍ ﷺ.

بصائر وأحكام

١ - بلى؛ يستطيع الإنسان أن يتناغم مع خلق الله من أكبر مجرّة إلى أصغر ذرة وذلك حينما يتّصل بالخالق المهيمن بستته وتديره وبأمره المباشر على كل شيء.

٢ - كلما ازداد المرء قرباً من ربه ازداد صلة بما خلق، حتى تكون علاقته إيجابية إصلاحية نابعة من الرحمة والعطف، ويعيش مع الخليقة في وئام تام واطمئنان.

بَيِّنَاتٌ مِّنْ فَقْهِ الْقُرْآنِ

سُورَةُ الطَّوْرِ





تمهيد

بعد فاتحة السورة التي تُقسم يمينا بـ (معالم الحضارة البشرية)، بعدئذٍ تكاد السورة تكون خالصة في التذكرة باليوم الآخر، وما فيه من حقائق يتَّصل بعضها حسب البيان القرآني بما في الدنيا من سلوك إنساني. فابتداءً من الآية (٧) وإلى الآية (١٦) تعالج السورة داء التكذيب عبر التذكرة بحقيقة المكذبين، وأن تكذيبهم يزيدهم عذاباً، ويُقال لهم يومئذٍ: إن الافتراء على الرسالة بأنها سحر لن يُجديهم نفعاً، بل يُؤثِّبون به، بل سوف يزيدهم عذاباً. أما المتقون فإنهم يعيشون يومئذٍ في فاكهة وسرور، لأن الله وقاهم العذاب، ولأنهم ينتفعون بالطعام والشراب، والزوجات الجميلات، كما أن ذرياتهم يلحقون بهم إن هم اتَّبعوهم، ولهم فيها ألوان النعيم. هذه النعم تتَّصل بسلوكهم في الدنيا؛ ففي الدنيا كان المتقون مشفقين. ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾^(١)، فوقاهم الله بمنه عذاب السَّوم.

ويأمر القرآن الكريم بالتذكير، ويبيِّن أن الرسول ليس بكاهن ولا مجنون، وإنما هو مُذكَّر بما في فطرة الإنسان من حقائق؛ وليس

(١) سورة المؤمنون، آية ٥٧.

بشاعر، حتى ينتهي أمره بوفاته. كلاً؛ إنّ التربص به يزيد من فرص نجاحه. إنما طغيان المكذّبين يدعوهم إلى هذا الافتراء، وأنهم لا يؤمنون بسبب كبر في أنفسهم، وإذا كانت دعواهم صادقة في إفكهم على الرسول، فليأتوا بحديث مثله.

وماذا يملكون حتى يكفروا؟. فهل هم خلقوا أنفسهم، أم خلقوا السماوات والأرض، أم يملكون خزائن السماوات والأرض، أم لهم السلطنة، أم اطلعوا على الغيب عبر سلّم عرجوا عبره في السماء؟ فما هو برهانهم؟

أترى أنهم يتهربون من دفع ثمن الرسالة؟. وهل الرسول يطلب منهم أجراً؟ أم أنهم يزعمون الاستغناء عن الرسالة لمعرفة الغيب من دونها؟ ولعلهم يزعمون أنهم قادرون على مواجهة رسالات ربهم بكيدهم بالاعتماد على إله غير الله ﴿سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾. بلى؛ فليستظر هؤلاء مكرّاً يحل بساحتهم حين يصعقهم العذاب، ولا ينفعهم كيدهم شيئاً، ولا يقدر أحد على نصرهم. وها هو عذاب الله يتنزل عليهم بقدر محدود جزاء ظلمهم ودون أن يعلموا. وما دامت سنة الله حاکمة بالإمهال، فاصبر لحكم الله فإنه ينظر إليك؛ وسبح بحمد ربك، فإنه يمدك بالعزم نهاراً وليلاً وعند الأسحار.



قسماً بالطور



من الحديث

روت فاطمة الزهراء عليها السلام، عن رسول الله ﷺ، أنه قال في دعاء له: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ النُّورَ مِنَ النُّورِ، وَأَنْزَلَ النُّورَ عَلَى الطُّورِ، فِي كِتَابٍ مَسْطُورٍ، فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ، بِقَدَرٍ مَقْدُورٍ عَلَى نَبِيِّ مُحَبُّورٍ»^(١).

تفصيل القول

حين يقسم ربنا يميناً بحقيقة، يذكرنا بأهميتها. فالطور - وهو الجبل الذي تنمو في جنباته المدينة - نعمة هامة؛ أليس الناس يتخذونه

(١) بحار الأنوار، الشيخ محمد باقر المجلسي، ج ٤٣، ص ٦٧.

كهفًا يحميهم من أعدائهم، ومزرعة لهم، وموقعاً لدوابهم، وسقياً لهم بما فيه من عيون جارية، وجمالاً لأعينهم حين يريحون وحين يسرحون؟ إن للجبال فوائد عظيمة؛ فهي مخازن للمياه، وذخائر للمعادن، وركائز للحفظ.. ويبدو أن الطور أكثرها نفعاً عند الناس، لأنهم أقدر على استغلالها لمصالحهم.



بصائر وأحكام

لا بد أن نتذكر آفاق نعمة الطور، وهو منبت حضارات البشر، وذلك عندما يُقسم به ربنا في كتابه الكريم.



وكتاب مسطور

﴿وَكُتِبَ مَسْطُورٍ ۝٢﴾ فِي رَقٍّ مَّنْشُورٍ ۝٣﴾.

من الحديث

في كتاب كنز جامع الفوائد وتأويل الآيات الظاهرة، روي عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام، في قول الله تعالى: ﴿وَكُتِبَ مَسْطُورٍ ۝٢﴾ فِي رَقٍّ مَّنْشُورٍ ﴿٢﴾ قال: «كِتَابُ كُتِبَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي وَرَقَةٍ آسٍ وَوَضَعَهُ عَلَى عَرْشِهِ قَبْلَ خَلْقِ الْخَلْقِ بِالْفَيِّ عَامٍ: يَا شَيْعَةَ آلِ مُحَمَّدٍ؛ إِنِّي أَنَا اللَّهُ أَحْبَبْتُكُمْ قَبْلَ أَنْ تَدْعُونِي، وَأَعْطَيْتُكُمْ قَبْلَ أَنْ تَسْأَلُونِي، وَغَفَرْتُ لَكُمْ قَبْلَ أَنْ تَسْتَغْفِرُونِي»^(١).

(١) بحار الأنوار، الشيخ محمد باقر المجلسي، ج ٢٧، ص ١٣٨.

تفصيل القول

يحتاج البشر إلى دستور ينظم علاقاتهم بعضهم مع بعض، ويسهل التعاون فيما بينهم، ويزيدهم عزماً لمواجهة السراء والضراء. ومن تمام نعمة الدستور أن يكون كتاباً مسطوراً، ثابت الأركان، واضح الشرائع. وتزيد من هذه النعمة سناءً، عندما ينشر الدستور أمام الملأ، ولا يختص به فريق من الناس يتسلطون به على الآخرين، بل يتحاكم إليه الجميع؛ أغنياءهم وفقراءهم، ملأهم وأسقاطهم من دون تمييز. ولا ريب في أن كل هذه الصفات تجتمع في رسالات أتمها القرآن الكريم؛ فهو كتاب ثابت ومسطور بين المعالم ومنشور عبر رق (أوراق) ليكون وحياً واحداً لجميع أبناء الأمة.

بصائر وأحكام

إنه كتاب مسطور في رق منشور، فعلينا الانتفاع بشرائعه، والاعتصام بحبله حتى يجمع شتات قوانا، ويزيدنا عزماً وقوة.



والبيت المعمور

﴿وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ٤ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ٥ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ٦﴾.

من الحديث

قال رسول الله ﷺ: «الْبَيْتُ الْمَعْمُورُ الَّذِي فِي السَّمَاءِ الدُّنْيَا يُقَالُ لَهُ الضُّرَاحُ، وَهُوَ بِنَاءُ الْبَيْتِ الْحَرَامِ، لَوْ سَقَطَ لَسَقَطَ عَلَيْهِ، يَدْخُلُهُ كُلُّ يَوْمٍ أَلْفَ مَلَكٍ لَا يَعُودُونَ فِيهِ أَبَدًا»^(١).

في كتاب خطب أمير المؤمنين ع لِعَبْدِ الْعَزِيزِ الْجُلُودِيِّ، قَالَ: «إِنَّ ابْنَ الْكَوَّاءِ سَأَلَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَنِ الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ، قَالَ: وَيْلَكَ؛ ذَلِكَ الضُّرَاحُ، بَنِيَ فِي السَّمَاءِ الرَّابِعَةِ حَيْثُ الْكَعْبَةِ مِنْ لُؤْلُؤَةٍ وَاحِدَةٍ، يَدْخُلُهُ كُلُّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ، لَا يَعُودُونَ إِلَيْهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»^(٢).

(١) تفسير نور الثقلين، الشيخ عبد علي العروسي الحوزي، ج ٥، ص ١٣٦

(٢) بحار الأنوار، الشيخ محمد باقر المجلسي، ج ٥، ص ٣٣٠

وقال الإمام محمد الباقر عليه السلام: «إِنَّ اللَّهَ وَضَعَ تَحْتَ الْعَرْشِ [بَيْنًا عَلَى] أَرْبَعِ أَسَاطِينٍ وَسَمَّاهُ الضُّرَّاحَ، وَهُوَ الْبَيْتُ الْمَعْمُورُ. وَقَالَ لِلْمَلَائِكَةِ: طُوفُوا بِهِ. ثُمَّ بَعَثَ مَلَائِكَةً، فَقَالَ لَهُمْ: ابْنُوا فِي الْأَرْضِ بَيْنًا بِمِثَالِهِ وَقَدْرِهِ، وَأَمَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ أَنْ يَطُوفُوا بِهِ.

وَقَالَ: وَلَمَّا أَهْبَطَ اللَّهُ آدَمَ مِنَ الْجَنَّةِ قَالَ: إِنِّي مُنْزِلٌ مَعَكَ بَيْنًا تَطُوفُ حَوْلَهُ كَمَا يُطَافُ حَوْلَ عَرْشِي، وَتُصَلِّيُ عِنْدَهُ كَمَا يُصَلِّيُ عِنْدَ عَرْشِي. فَلَمَّا كَانَ زَمَنُ الطُّوفَانِ رُفِعَ، فَكَانَتْ الْأَنْبِيَاءُ عليهم السلام يُحْجُونَهُ وَلَا يَعْلَمُونَ مَكَانَهُ، حَتَّى بَوَّاهُ اللَّهُ لِإِبْرَاهِيمَ عليه السلام فَأَعْلَمَهُ مَكَانَهُ»^(١).

وقال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام في قول الله تعالى ﴿وَالسَّقْفَ الْمَرْفُوعَ﴾: «السَّمَاءُ»^(٢).

وقال الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاءَ سَقْفًا مَرْفُوعًا، وَلَوْ لَا ذَلِكَ اغْتَمَّتْ خَلْقُهُ لِقَرَبِهَا، وَأَحْرَقَتْهُمْ الشَّمْسُ لِدُنُوهَا»^(٣).

وقال الإمام جعفر الصادق عليه السلام في دعاء له لما نظر إلى السماء: «يَا مَنْ جَعَلَ السَّمَاءَ سَقْفًا مَرْفُوعًا، يَا مَنْ رَفَعَ السَّمَاءَ بِغَيْرِ عَمَدٍ، يَا مَنْ سَدَّ الْهَوَاءَ بِالسَّمَاءِ»^(٤).

وقال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام في قول الله تعالى: ﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾: «بَحْرُ فِي السَّمَاءِ، تَحْتَ الْعَرْشِ»^(٥).

(١) مستدرک الوسائل، الميرزا النوري، ج ٩، ص ٣٢٨

(٢) تفسير مجمع البيان، الشيخ الطبرسي، ج ٩، ص ٢٧٢

(٣) بحار الأنوار، الشيخ محمد باقر المجلسي، ج ٣، ص ١٩٠

(٤) بحار الأنوار، الشيخ محمد باقر المجلسي، ج ٩٢، ص ٣٠٤.

(٥) بحار الأنوار، الشيخ محمد باقر المجلسي، ج ٥٥، ص ١٠٧.

تفصيل القول

البيت الذي يجمع شمل الأسرة نعمة، وتماهما أن يكون معموراً بالبناء المرصوص وبالتوافق بين أبنائه وبالتعاون وبالذكر. وإذا كان سقف البيت مرفوعاً فإنه أقرب لسلامة أهله، كذلك حين يكون البيت وأهله نالوا سمو الدرجات كما قال ربنا سبحانه: ﴿ فِي بُيُوتٍ أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تَرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا أَسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴾ ^(١).

ولأن أية مدينة بحاجة إلى الماء، وحين يكون الماء وافراً فإن نمو الحضارة يكون متسارعاً. إننا نحن البشر نتطلع إلى مدينة تتوافر فيها هذه الشروط؛ من الطور الذي يوفر أمناً وغذاءً وجمالاً، والكتاب الذي يوفر خارطة طريق التعاون والتكامل ومن ثم التقدم، والى البيت المعمور الذي يوفر مأوى والماء الكثير الذي يقتضي نمواً زراعياً واقتصادياً.

ولأننا كبشر نقدر هذه النعم، فقد ذكرنا الله بها وأقسم يميناً بها. إنها نعم هائلة العظمة في أعين أهل الدنيا، ولكنها لا تغني شيئاً عن عذاب الآخرة. أوليست تلك النعم مهما تعاظمت ناقصة، ومهما تقادمت زائلة؟

وكلمة أخيرة؛ هناك احتمال آخر في تفسير هذه الكلمات، وهو لا يتنافى مع ما ذكرناه، لأن للقرآن ظاهراً وباطناً ولكلماته تخوماً وأبعاداً.. أما الاحتمال الآخر فيكون القسم بالطور الذي ناجى النبي موسى ﷺ ربه لأنه موقع مقدس، أما الكتاب تفسيره هنا الرسالات التي كُتبت بواسطة الوحي كالتوراة والإنجيل والقرآن، أما البيت المعمور

(١) سورة النور، آية ٣٦.

فهو موقع في السماء بإزاء الكعبة يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يدخلونه بعد إلى يوم القيامة، أما السقف المرفوع فهو السماء التي يحفظ الله بها الأرض من الشهب والأشعة الضارة، أما البحر المسجور فهو ما دون العرش من بحر مكنون. والله العالم.

بصائر وأحكام

الحضارات البشرية تعتمد على الطور والكتاب المسطور، ويتوفر فيها البيت المعمور والبحر المسجور، ولكنها أتت تعاظمت وتقادمت، فهي ناقصة وزائلة، وعلينا السعي من أجل الحياة الباقية.



إن عذاب ربك لواقع

﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ﴿٧﴾ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ ﴿٨﴾﴾

تفصيل القول

إذا كانت الدنيا بما فيها من نعم تحجز عن عذاب الآخرة ولو بقدر، لكانت جديرة بالاهتمام؛ ولكنها ليست كذلك؛ لأن معايير الآخرة ليست هي المعايير في الدنيا. وهكذا عذاب الآخرة لواقع. أولاً: لأن الرب الذي وافر نعمه علينا في الدنيا، قادر على سلبها منا.

ثانياً: إن نعمه علينا مشروطة بالشكر، أما الكفر فإنه يقتضي سلبها.

وحين يحلّ العذاب بساحة الكافرين، فأتى لهم دفعه؟ وبأي

شيء يدفعون عذاباً قدّره لهم وأنزله بهم ربهم الذي به قيامهم وبنعمه حياتهم؟

بصائر وأحكام

لأن نعم الدنيا لا تغني شيئاً عن عذاب الرب، فلم التهالك عليها، ألا نعلم أن عذاب الله واقع، وحينئذٍ ما له من دافع، أو لا يقتضي ذلك السعي من أجل اتقائه وتفاديه؟



يوم تمور السماء موراً

﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ۖ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا﴾ (١)

من الحديث

قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام في خطبة له: «وألحق الخلق بأوليه، وجاء أمر من خالقه أراد به تجديد خلقه، فأمر بصوت من سماواته، فمارت السماوات موراً، وفزع من فيها وبقي ملائكتها على أرجائها، ثم وصل الأمر إلى الأرض والخلق رفات لا يشعرون، فأرج أرضهم وأرجفها وزلزلها وقلع جبالها ونسفها وسيرها وركب بعضها بعضاً من هيئته وجلاله، وأخرج من فيها فجددهم بعد إبلائهم وجمعهم بعد تفريقهم»^(١).

وروي عن الإمام علي بن الحسين عليه السلام في حديث طويل، أنه سئل عَنِ النَّفْخَتَيْنِ كَمْ بَيْنَهُمَا؟ قال: مَا شَاءَ اللَّهُ. (إلى أن قال:) فَلَا يَبْقَى

(١) مصباح البلاغة، المير جهاني، ج ١، ص ٨٩؛ عن عقد الفريد، للمالك، ج ٢، ص ١٦٧.

فِي السَّمَاوَاتِ دُورُوحٍ إِلَّا صَعِقَ وَمَاتَ، إِلَّا إِسْرَافِيلُ. قَالَ: فَيَقُولُ اللَّهُ
لِإِسْرَافِيلَ: مُتْ. فَيَمُوتُ إِسْرَافِيلُ. فَيَمَكُّثُونَ فِي ذَلِكَ مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ
يَأْمُرُ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ فَتَمُورُ، وَيَأْمُرُ الْجِبَالَ فَتَسِيرُ، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿يَوْمَ تَمُورُ
السَّمَاءُ مَوْرًا﴾ (١) وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ﴿يَعْنِي تَبْسُطُ﴾ (٢).

تفصيل القول

السماء سقف محفوظ، ويطمئن البشر إليها، وهي بمثابة قبة
واقية فوقهم، فإذا مارت السماء موراً، كما تموج البحار، وكما تتداخل
الرمال عند العواصف الهوج، فما الذي يحفظ البشر من ذلك العذاب
الواقع؟ والجبال أعظم ما يعتمد عليه البشر، إنه متكأ مستقر، ومأوى
أمين، فإذا سارت الجبال سيراً بكل معنى الكلمة، كما تسير الجبال في
قلب المفاز، فعلام يعتمد الإنسان يومئذ؟.

إن ذلك لدليل على أن العذاب الإلهي إذا قُدِّرَ لا دافع له. بل؛
إن السماء التي كانت سقفاً محفوظاً تمور، بل قد تكون مصدر خطر،
وكذلك الجبال تسير وقد تسمى وسيلة إبادة، فأين المفر؟.

بصائر وأحكام

لماذا يعجز البشر عن مواجهة عذاب الله الواقع؟ لأن مصادر الحماية
عندهم تفقد قابليتها، بل قد تصبح مصادر خطر، فالسماء تمور والجبال تسير.

(١) تفسير القمي، الشيخ علي بن إبراهيم القمي، ج ٢، ص ٢٥٢.



فويل يومئذ للمكذبين

﴿فَوَيْلٌ لِلْيَوْمِئِذِ لِلْمُكَذِّبِينَ ۝﴾

من الحديث

روى الخدري، عن رسول الله ﷺ، أنه قال: «إِنَّهُ (وَيْلٌ) وَادٍ فِي جَهَنَّمَ، يَهْوِي فِيهِ الْكَافِرُ أَرْبَعِينَ خَرِيفًا قَبْلَ أَنْ يَبْلُغَ قَعْرَهُ»^(١).

قال رسول الله ﷺ: «مَنْ زَعَمَ أَنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ فَقَدْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ، وَمَنْ زَعَمَ أَنَّ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ بغيرِ مَشِيئَةِ اللَّهِ فَقَدْ أَخْرَجَ اللَّهَ مِنْ سُلْطَانِهِ، وَمَنْ زَعَمَ أَنَّ الْمَعَاصِيَ بغيرِ قُوَّةِ اللَّهِ فَقَدْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ؛ وَمَنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ أَدْخَلَهُ اللَّهُ النَّارَ»^(٢).

وقال الإمام محمد الباقر عليه السلام لرجل من أهل الشام: «يَا أَخَا

(١) تفسير مجمع البيان، الشيخ الطبرسي، ج ١، ص ٢٧٨

(٢) الكافي، الشيخ الكليني، ج ١، ص ١٥٨.

أَهْلَ الشَّامِ، اسْمَعْ حَدِيثَنَا وَلَا تَكْذِبْ عَلَيْنَا فَإِنَّهُ مَنْ كَذَبَ عَلَيْنَا فِي شَيْءٍ فَقَدْ كَذَبَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَمَنْ كَذَبَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَدْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ، وَمَنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ عَذَبَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ»^(١).

وقال الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «الْكَذِبُ عَلَى اللَّهِ وَعَلَى رَسُولِ اللَّهِ وَعَلَى الْأَوْصِيَاءِ مِنَ الْكِبَائِرِ»^(٢).

تفصيل القول

التكذيب بالحقيقة تعطيل للعقل، وحجب للوجدان، وحرمان من كل وسائل المعرفة البشرية، وبالتالي تشويه لصورة الإنسان وتحويله إلى أدنى رتبة من أي حي. أترى الذي يكذب بالحفرة التي أمامه حتى يقع فيها، هل يختلف شيئاً عن الأعمى؟ وما قيمة العين التي تبصر، ولكن صاحبها لا يأخذ بمعطيات البصر؟ وكذلك الذي يسمع الإنذار فلا يأبه به، إنه والصَّمُّ البُكم سواء. وإذا أصبح التكذيب بالحقائق عادة، فإن أدوات المعرفة عند البشر تضمر وتضمر حتى تتلاشى. ولكن كيف نعالج المكذبين؟

إذا عرفنا أن التكذيب ميراث الشهوات، وإنما يُكذَّبُ بالحق من يكذَّب طلباً للراحة والعافية، ومصالح يزعم أنه يربحها، ومغارم يزعم أنه يدفعها بتكذيبه.. إذا عرفنا ذلك، عرفنا أن وراء التكذيب عادة دوافع نفسية أو حتى حالات نفسية مثل العصبية والحمية الجاهلية. وهكذا فإن علاجه يكون بصعقة نفسية عالية القوة، يومئذٍ قد يعود المكذَّب إلى رشده، لأنه يرى أن نتائج تكذيبه عكسية.

(١) الكافي، الشيخ الكليني، ج ٤، ص ١٨٧.

(٢) المحاسن، الشيخ أحمد بن محمد البرقي، ج ١، ص ١١٨.

من هنا نجد السياق القرآني يهز وجداننا هزاً ويقول: ﴿فَوَيْلٌ
يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾.

ولعلنا لا نجد كلمة تجمع المحاذير التي يخشاها البشر مثل كلمة
(الويل). وهكذا المكذب يقع فيما يهرب منه بالتكذيب.

بصائر وأحكام

لكي نعالج أخطر شيء عند البشر وهو التكذيب، لا بد أن
نصعقه بالإنذار الشديد؛ إنه ويل له، في يوم تمور السماء وتسير الجبال.



في خوض يلعبون

﴿الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ﴾ (١٣) يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَى نَارٍ
جَهَنَّمَ دَعَا (١٣) هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾.

من الحديث

قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «مَنْ اتَّخَذَ دِينَ اللَّهِ
لَهُوَ وَلَعِبًا، أَدْخَلَهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ النَّارَ مُخَلَّدًا فِيهَا»^(١).

وقال الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام في دعاء له:
«اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ نَارٍ تَغْلَطَتْ بِهَا عَلَى مَنْ عَصَاكَ، وَتَوَعَّدَتْ بِهَا
مَنْ صَدَفَ عَنْ رِضَاكَ. وَمِنْ نَارٍ نُورُهَا ظُلْمَةٌ، وَهَيْئُهَا أَلِيمٌ، وَبَعِيدُهَا
قَرِيبٌ، وَمِنْ نَارٍ يَأْكُلُ بَعْضُهَا بَعْضٌ، وَيَصُولُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ. وَمِنْ
نَارٍ تَذَرُ الْعِظَامَ رَمِيمًا، وَتَسْقِي أَهْلَهَا حَمِيمًا. وَمِنْ نَارٍ لَا تُبْقِي عَلَى مَنْ

(١) غرر الحكم ودرر الكلم، الشيخ الأمدي، ص ٨٧، حديث رقم ١٤٣٨

تَضَرَّعَ إِلَيْهَا، وَلَا تَرَحَّمْ مِنْ اسْتَعْظَفَهَا، وَلَا تَقْدِرْ عَلَى التَّخْفِيفِ عَمَّنْ خَشَعَ لَهَا وَاسْتَسَلَّمَ إِلَيْهَا تَلَقَّى سُكَّانَهَا بِأَحْرَّ مَا لَدَيْهَا مِنْ أَلِيمِ النَّكَالِ وَشَدِيدِ الْوَبَالِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ عَقَارِبِهَا الْفَاحِشَةِ أَفْوَاهُهَا، وَحَيَّاتِهَا الصَّالِقَةِ بَأْنْيَابِهَا، وَشَرَابِهَا الَّذِي يُقَطِّعُ أُمْعَاءَ وَأَفْتِدَةَ سُكَّانِهَا، وَيَنْزِعُ قُلُوبَهُمْ»^(١).

تفصيل القول

ترى لماذا يُكذِّب الإنسان بالخطر الذي ينذر به، أو ليس ربنا سبحانه قد زوّده بنعمة الدفاع عن ذاته عند الإحساس بالخطر؟ إنه لا يتوانى عن بقة تؤذيه أن يدفعها، فكيف تراه يتهاون بنار سجّرها جبارها لغضبه؟ يبدو أن أسباباً كثيرة وراء ذلك التكذيب؛ مثل الغفلة، والاسترسال مع الأهواء والشهوات، والجهل بحقيقة الخطر.

أترى من يلاحظ حركة في باطن الأرض يشك بأنها حية تسعى، أتراه متى يحفل منها ويتولى خوفاً، أليس عندما يتحوّل شكّه إلى ظن أو يقين؟ كذلك الذين يُكذّبون بالساعة، تراهم في ريب منها، أو أنهم في لعب بغيرها، أو أنهم لاهون عنها بالعاجل من مؤثرات الدنيا. بلى؛ يلهيهم عنها متاع الدنيا من مال وأهل أو حرص في زيادة الحطام.

١ - ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ﴾

إنهم قد استرسلوا في قضاياهم العاجلة يخوضون في ثقافتهم التبريرية في ريبهم؛ في شكوكهم؛ في وساوس شياطينهم الذين يوحون

(١) الصحيفة السجادية، الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام، ص ١٧٢، دعاؤه بعد الفراغ من صلاة الليل.

إليهم زخرف القول غروراً، وبالتالي في معاصيهم، وهم يلعبون، وما هو اللعب؟ أليس اللعب هو الانشغال بما لا ينفع؟.

بلى؛ إنه نوع من قضاء الوقت، وإرضاء النفس بلذات عابرة.

فهل الدنيا لعب؟. بلى؛ إذا قيسَت بالآخرة، إنها مجرد لعب. فهل الذي يضرب بيته زلزال عظيم، أو ينهمر عليه سيل عارم، ثم يشتغل آنئذٍ بالتفكُّه، هل تعتبره غير لاعب؟.

والخطر الذي يحدق بالمكذب في الآخرة أعظم من ذلك الزلزال وذلك السيل، إنما مثل هذا الشخص يستحق ما قاله الرب سبحانه:

٢- ﴿يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً﴾

إنها حقيقة بالغة الهول أن يُدفع هذا المعاند دفعاً قوياً إلى قعر جهنم، حيث ألوان العذاب، ثم يقال له:

٣- ﴿هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾

إنها إذاً حق اليقين. وماذا يجديهم التكذيب بها، وإلهاء أنفسهم باللعب بما في الدنيا من ملهيات؟.

وقد يتساءل المرء: إنه ما دام يكذب بها، فماذا ينفعه الإنذار؟.

الجواب: إنه يكذب بها لعدم تصوُّره جدية الخطر، أما إذا تصوَّر ذلك فسوف يفتح عينه ويستمتع إلى الداعي، ويستجيب إليه بعدئذٍ، لأنه سيجد الدليل كافياً، والحقيقة بالغة، والبرهان دامغاً.

بصائر وأحكام

الدنيا وما فيها من مؤثرات عاجلة قد تُلهي البشر عن التفكير في عقباه، وهكذا تراه يغوص في غمراتها لاهياً بأعمال لا تنفعه في مواجهة ما ينتظره في الآخرة من أهوال، وإنما كان عليه أن يكون جاداً في تقدير خطر العذاب حتى يتسنى له فرصة التفكير الموضوعي في الأدلة الدامغة التي تدلُّه على قيام الساعة، ويهز ضمير الإنسان بتصوير يوم القيامة حين يُدْعَى في نار جهنم ويقال له: هذه النار التي كنت تُكذِّب بها.



أفسح هذا؟

﴿أَفْسَحْ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ (١٥) أَصْلَوْهَا فَأَصْبِرُوا
أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُحْزَنُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٦) إِنَّ
الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ (١٧).

من الحديث

قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «كُلُّ أَمْرٍ يُلْقَى مَا
عَمِلَ، وَيُجْزَى بِمَا صَنَعَ»^(١).

وقال عليه السلام: «إِنَّكُمْ بِأَعْمَالِكُمْ مُجَازُونَ، وَبِهَا مُرْتَهَنُونَ»^(٢).

وقال عليه السلام أيضاً: «كُلُّ أَمْرٍ عَلَى مَا قَدَّمَ قَادِمٌ، وَبِمَا عَمِلَ مُجَازِي»^(٣).

(١) غرر الحكم ودرر الكلم، الشيخ الآمدي، ص ١٦٦، حديث رقم ٣٢٣٤.

(٢) غرر الحكم ودرر الكلم، الشيخ الآمدي، ص ١٥٧، حديث رقم ٢٩٥٧.

(٣) غرر الحكم ودرر الكلم، الشيخ الآمدي، ص ١٦٦، حديث رقم ٣٢٣٢.

تفصيل القول

عندما كانت الرسالة الإلهية تدعوه، كان يتَّهم رسولها بالساحر، وآياتها بالسحر. ويوم القيامة يقال له: هل هذا سحر، أم نار حامية؟ بل كانت عينه في حجاب، وكان عليه أن يُميطه حتى يبصر آيات الساعة. وهكذا كان على الإنسان أن يتعرَّف إلى جوارحه وجوانحه، هل هي سالمة قبل أن يحكم على آيات الحقيقة. فمثلاً؛ إذا كانت بينك وبين حيوان -تشك أنه ذئب- غبار، أو غشاء، أو ظلام، أو كنت نعسان.. فلا تحكم على الأمر، بل أزح النعاس عن عينك، وأبعد سائر موانع الرؤية، ثم انظر. وهكذا لو كان الإنسان في غمرة من الشهوات، أو من الحميات، أو من ثقافة سلبية باطلة، عليه أن يتزكَّى ويُطهِّر نفسه منها قبل أن ينظر في آيات الحقائق. قال ربنا سبحانه:

١ - ﴿أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾

وعندئذ لا خيار للإنسان عن قبول نتائج عمله، فسواء صبر أم لم يصبر، فإن مصيره تلك النار التي يصلها مذموماً مدحوراً، وهل لأحد أن يصبر على نار جهنم؟

٢ - ﴿أَصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْرُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ

﴿١٦﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ﴾

ما هذه النار؟ ما وقودها؟ ومن الذي أججها؟ إنما هي نار اتَّقدت بأعمالك، بل هي أفعالك ذاتها كانت ناراً خامدة وأنها قد اتَّقدت اليوم فتصلها. أعوذ بالله العظيم.

بصائر وأحكام

التُّهم التي كان الكفار يافكونها تتلاشى ذلك اليوم، فالنار تلك ليست بسحر، وحجب الرؤية التي كانت تمنع الرؤية تتساقط، فها هم يبصرونها. وإنما النار هي من أفعالهم، بل هي التي أوقدوها بسوء اختيارهم.



عقبى المتقين جنات النعيم

﴿فَنَكِهِنَ بِمَاءٍ أَنَّهُمْ رِيٌّمْ وَوَقَّهَهُمْ رِيَّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ۝١٨
كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ۝١٩﴾.

من الحديث

قال رسول الله ﷺ: «خَصْلَةٌ مَنْ لَزَمَهَا أَطَاعَتْهُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ
وَرَبِحَ الْفَوْزَ فِي الْجَنَّةِ، قِيلَ: وَمَا هِيَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: التَّقْوَى»^(١).

وقال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «أَلَا وَإِنَّ التَّقْوَى
مَطَايَا ذُلٍّ، حُجِّلَ عَلَيْهَا أَهْلُهَا، وَأَعْطُوا أَرْزَمَتَهَا، فَأُورِدَتْهُمْ الْجَنَّةُ»^(٢).

وقال عليه السلام: «مَنْ أَحَبَّ فَوْزَ الْآخِرَةِ، فَعَلَيْهِ بِالتَّقْوَى»^(٣).

(١) كنز الفوائد، الشيخ أبو الفتح الكراجكي، ص ١٨٤.

(٢) نهج البلاغة، خطبة رقم ١٦.

(٣) غرر الحكم ودرر الكلم، الشيخ الأمدي، ص ٢٧١، حديث رقم ٥٩٣٣.

وقال ﷺ: «أَفِيضُوا فِي ذِكْرِ اللَّهِ فَإِنَّهُ أَحْسَنُ الذِّكْرِ، وَارْغَبُوا فِيهَا وَعَدَ الْمُتَّقِينَ فَإِنَّ وَعْدَهُ أَصْدَقُ الْوَعْدِ»^(١).

وقال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ: «اعْلَمُوا أَنَّ مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا مِنَ الْفِتَنِ، وَنُورًا مِنَ الظُّلُمِ، وَيُحِلِّدَهُ فِيهَا اشْتَهَتْ نَفْسُهُ، وَيَنْزِلُهُ مَنْزِلَ الْكَرَامَةِ عِنْدَهُ، فِي دَارِ اضْطِنَاعِهَا لِنَفْسِهِ؛ ظِلُّهَا عَرْشُهُ، وَنُورُهَا بَهْجَتُهُ، وَزُورُهَا مَلَأَتْكَتُهُ، وَرُفَقَاؤُهَا رُسُلُهُ»^(٢).

وقال ﷺ: «التَّقْوَى آكَدُ سَبَبٍ بَيْنَكَ وَبَيْنَ اللَّهِ إِنْ أَخَذْتَ بِهِ، وَجَنَّةٌ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ»^(٣).

وقال الإمام جعفر الصادق ﷺ في دعاء له في أعقاب الصلوات الفرائض: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِحَقِّ مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ بَرَاءَةً مِنَ النَّارِ، فَاتَّكُبْ لَنَا بَرَاءَةً، وَفِي جَهَنَّمَ فَلَا تُجْعَلْنَا، وَفِي عَذَابِكَ وَهَوَانِكَ فَلَا تَبْتَلِنَا، وَمِنَ الضَّرِيعِ وَالرَّقُومِ فَلَا تُطْعِمْنَا، وَمَعَ الشَّيَاطِينِ فِي النَّارِ فَلَا تَجْمَعُنَا، وَعَلَى وُجُوهِنَا فِي النَّارِ فَلَا تَكْبِنُنَا، وَمِنْ ثِيَابِ النَّارِ وَسَرَائِلِ الْقَطَرَانِ فَلَا تُلْبِسُنَا، وَمِنْ كُلِّ سُوءٍ يَا لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَتَنْجِنَا»^(٤).

وعن زيد بن أرقم قال: «جاء رجل من أهل الكتاب إلى رسول الله ﷺ فقال: يا أبا القاسم؛ تزعم أن أهل الجنة يأكلون ويشربون؟ فقال: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ؛ إِنَّ الرَّجُلَ مِنْهُمْ لَيُؤْتَى قُوَّةَ مِائَةِ رَجُلٍ عَلَى الْأَكْلِ وَالشُّرْبِ وَالْجَمَاعِ.

(١) نهج البلاغة، خطبة رقم ١١٠.

(٢) نهج البلاغة، خطبة رقم ١٨٣.

(٣) غرر الحكم ودرر الكلم، الشيخ الأمدي، ص ٢٧٠، حديث رقم ٥٨٨٦.

(٤) بحار الأنوار، الشيخ محمد باقر المجلسي، ج ٨٣، ص ١٢.

قال: فإن الذي يأكل ويشرب يكون له حاجة؟
فقال: عَرَقٌ يَفِيضُ مِثْلَ رِيحِ الْمِسْكِ، فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ ضَمِيرَ لَهُ
بَطْنُهُ^(١).

وقال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «نَالَ الْمُنَى مَنْ عَمِلَ
لِدَارِ الْبَقَاءِ»^(٢).

وقال عليه السلام أيضاً: «لَا تَكُنْ مِمَّنْ يَرْجُو الْآخِرَةَ بِغَيْرِ عَمَلٍ»^(٣).

تفصيل القول

مما يزيد المكذبين عذاباً نفسياً، أنهم يرون رجالاً من البشر كانوا
أمثالهم وكانوا معهم، ولكنهم اتقوا عن النار بالرسالة، كما أنهم اتقوا منها
بالعمل الصالح؛ إنهم يرونهم قد تبوؤوا جنات النعيم، وفازوا بنعم الله.

ومن أعظم النعم عليهم أن الله قد وقاهم عذاب الجحيم، الذي
ربما كانوا في البدء وقبل التصديق بالرسالة، كانوا قد احتطبوا منها
بسوء سلوكهم وقوداً، فغفر الله لهم وأبعد عنهم تلك النيران. ومن
نعم الله عليهم توافر الطعام الشراب، حيث يقال لهم: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا﴾،
وتمتعوا بها، لأنكم قد عملتم الصالحات فجزاكم ربكم من النعم
والجنة بفضل من الله لأصحابها بأعمالهم، ولعله لذلك قال ربنا: ﴿يَمَّا
كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، بينما النار هي ذات الأعمال، حيث قال ربنا عنها هناك:
﴿أَصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْرَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾^(٤).

(١) تفسير مجمع البيان، الشيخ الطبرسي، ج ٩، ص ٢٧٥.

(٢) غرر الحكم ودرر الكلم، الشيخ الأمدي، ص ١٥١، حديث رقم ٢٧٦٨.

(٣) تحف العقول، الشيخ ابن شعبة الحراني، ص ١٥٧.

(٤) سورة الطور، آية ١٦.

بصائر وأحكام

عقبي المكذّبين النار التي أوقدوها بأعمالهم، بينما عقبي المتقين
جنات النعيم بفضل الله جزاء لأعمالهم.



لأهل الجنة

﴿مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾
وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا
أَلْتَنَّهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾﴾.

من الحديث

قال الإمام محمد الباقر عليه السلام في حديث: «وَأَنَّ الْحُورَ الْعِينَ لِلْمُؤْمِنِينَ»^(١).

وقال الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ زَوْجُهُ
اللَّهُ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ كَيْفَ شَاءَ: كَظْمُ الْغَيْظِ، وَالصَّبْرُ عَلَى السُّيُوفِ لِلَّهِ،
وَرَجُلٌ أَشْرَفَ عَلَى مَالٍ حَرَامٍ فَتَرَكَهُ لِلَّهِ»^(٢).

(١) الكافي، الشيخ الكليني، ج ٢، ص ٣٣.
(٢) المحاسن، الشيخ أحمد بن محمد البرقي، ج ١، ص ٧.

وقال الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «لَوْ أَنَّ حَوْرَاءَ مِنْ حُورِ الْجَنَّةِ أَشْرَفَتْ عَلَى أَهْلِ الدُّنْيَا وَأَبَدَتْ ذُؤَابَةً مِنْ ذَوَائِبِهَا لَأَفْتَنَّ بِهَا أَهْلُ الدُّنْيَا»^(١).

وقال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الْمُؤْمِنِينَ وَآوِلَادَهُمْ فِي الْجَنَّةِ. ثُمَّ قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ آَلَفْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا لَنَا مِنْهُمْ مِنْ عَمَلٍهُمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾»^(٢).

وقال الإمام جعفر الصادق عليه السلام في قول الله تعالى: ﴿الْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ قال: «يُهْدُونَ إِلَى آبَائِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٣).

وقال الإمام جعفر الصادق عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ آَلَفْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ قَصَرَتِ الْأَبْنَاءُ عَنْ عَمَلِ الْأَبَاءِ، فَأَلْحَقُوا الْأَبْنَاءُ بِالْأَبَاءِ لِتَقَرَّبِ بَذَلِكَ أَعْيُنُهُمْ»^(٤).

وقال رسول الله ﷺ: «أَيُّهَا النَّاسُ؛ إِنَّ أَنْفُسَكُمْ مَرْهُونَةٌ بِأَعْمَالِكُمْ، فَفَكُّوْهَا بِاسْتِغْفَارِكُمْ»^(٥).

وقال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «وَبَادِرُوا آجَالَكُمْ بِأَعْمَالِكُمْ، فَإِنَّكُمْ مُرْتَهِنُونَ بِمَا أُسْلِفْتُمْ، وَمَدِينُونَ بِمَا قَدَّمْتُمْ»^(٦).

تفصيل القول

الراحة النفسية من النعم الكبرى التي تعكس العافية من كل

(١) وسائل الشيعة، الشيخ الحر العاملي، ج ٦، ص ٤٦٦.

(٢) تفسير مجمع البيان، الشيخ الطبرسي، ج ٩، ص ٢٧٦.

(٣) تفسير القمي، الشيخ علي بن إبراهيم القمي، ج ٢، ص ٣٣٢.

(٤) الكافي، الشيخ الكليني، ج ٣، ص ٢٤٩.

(٥) الأمالي، الشيخ الصدوق، ص ١٥٤.

(٦) نهج البلاغة، خطبة رقم ١٩٠.

بلاء مادي وعناء روحي، وعلامتها الاسترخاء والاستراحة على الأرائك بلا شغل شاغل إلاّ التمتع بفضل الله، وها هم أهل الجنة - جعلنا الله منهم - يتكئون على السرر المصفوفة التي لم يغفل فيها جانب الجمال، كما أنها تضم الآخرين الذين يتقابلون فيما بينهم دلالة على المؤاخاة فيما بينهم، أليس قد انتزع من قلوبهم الغل حين سقاهم ربهم شراباً طهوراً؟

١ - ﴿مُتَكِينِينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾

تري - إذا - ماذا يشغلهم؟

إنما يشغلهم المؤانسة فيما بينهم، وحسن المعاشرة مع أجمل فتيات الجنة.

وقد جاء في حديث مأثور عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام في صفة الجنة ما يشوق المؤمن إلى المزيد من العمل الصالح للوصول إليها، فقد سأله أبو بصير فقال: «جُعِلْتُ فِدَاكَ يَا ابْنَ رَسُولِ اللَّهِ، شَوْقُنِي، فَقَالَ: يَا أَبَا مُحَمَّدٍ، إِنَّ أَدْنَىٰ نَعِيمِ الْجَنَّةِ يُوجَدُ رِيحُهَا مِنْ مَسِيرَةِ أَلْفِ عَامٍ مِنْ مَسَافَةِ الدُّنْيَا، وَإِنَّ أَدْنَىٰ أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلًا لَوْ نَزَلَ بِهِ أَهْلُ الثَّقَلَيْنِ؛ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ، لَوَسِعَهُمْ طَعَامًا وَشَرَابًا وَلَا يَنْقُصُ مِمَّا عِنْدَهُ شَيْءٌ، وَإِنَّ أَيْسَرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلَةً مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ فَيَرْفَعُ لَهُ ثَلَاثُ حَدَائِقَ، فَإِذَا دَخَلَ أَذْنَاهُنَّ رَأَىٰ فِيهَا مِنَ الْأَزْوَاجِ وَالْخَدَمِ وَالْأَنْهَارِ وَالنَّارِ مَا شَاءَ، مِمَّا يَمْلَأُ عَيْنَهُ قُرَّةً وَقَلْبُهُ مَسْرَةً»^(١).. إلى آخر الرواية التي تُفصّل القول في نعم الجنة بها لا يخطر على قلب بشر.

(١) تفسير القمي، الشيخ علي بن إبراهيم القمي، ج ٢، ص ٨٢.

٢- ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾

وأين الذرية التي هي نعمة أخرى؟

لا يبدو أن عالم الجنة عالم تناسل، ولكن الله يلحق بهم ذريتهم الطيبين الذين كانوا في صراطهم المستقيم، واتبعوا آباءهم في أعمالهم الصالحة وتزودوا بالإيمان كما آبائهم. وهكذا نستفيد هنا عدة بصائر:

ألف: الاتباع في عمل الخير خير، ولكنه ليس كافياً، وإنما شرط قبول العمل الصالح الإيمان.

باء: إحقاق الذرية بالآباء لا يُسبب نقصاً من حسنات الآباء لمصلحة الذرية، حيث قال ربنا سبحانه:

٣- ﴿وَمَا أَلْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾

أي: ما أنقصنا من عمل الآباء شيئاً مما أتيناه الأبناء، كما هو قول رسول الله ﷺ: «مَنْ سَنَّ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، مَنْ غَيْرِ أَنْ يُنْقَصَ مِنْ أَجْوَرِهِمْ شَيْءٌ»^(١). وهذا من فضل الله تعالى على عباده.

جيم: بلى؛ لكل نفس ما كسبت من خير ومن شر، وحساب الناس لا يتشابه عنده سبحانه.

٤- ﴿كُلُّ أَمْرٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾

العمل أنى كان يُطَوَّقُ عنق فاعله، كما حق الرهن، ولا ينفك منه بأعذار يقدمها أو تمنيات يخدع نفسه بها كان يلقي على الآخرين مسؤولية عمله. وهذه البصيرة من أعظم البصائر التي لو وعّاها البشر

(١) الكافي، الشيخ الكليني، ج ٥، ص ٩.

لاستقام بإذن الله.



بصائر وأحكام

- ١ - من نعم الرب لأهل الجنة الراحة، والتلذذ بحور العين،
وبإحراق الذرية الطيبة بهم.
- ٢ - الذرية الطيبة هي التي تتبع الآباء بإيمان، لأن كل نفس بما
كسبت رهينة.



غلمان كأنهم لؤلؤ مكنون

﴿وَأَمَدَدْنَاهُمْ بِفَلَاحِهِمْ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ (٢٣) يَنْزِعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْسِيمٌ ﴿٢٤﴾ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ ﴿٢٥﴾ .



من الحديث

قال رسول الله ﷺ: «اللَّحْمُ سَيِّدُ الطَّعَامِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ»^(١).

وقال ﷺ: «سَيِّدُ إِدَامِ الْجَنَّةِ اللَّحْمُ»^(٢).

وذكر عن الحسن، أنه قال: «قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ الْحَادِمُ كَاللُّؤْلُؤِ، فَكَيْفَ الْمَخْدُومُ».

فَقَالَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ؛ إِنَّ فَضْلَ الْمَخْدُومِ عَلَى الْحَادِمِ، كَفَضْلِ

(١) المحاسن، الشيخ أحمد بن محمد البرقي، ج ٢، ص ٤٥٩.

(٢) المحاسن، الشيخ أحمد بن محمد البرقي، ج ٢، ص ٤٥٩.

الْقَمَرِ لَيْلَةً الْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ»^(١).

وقال الإمام جعفر الصادق عليه السلام في دعائه في أعقاب الصلوات الفرائض: «وَمِنَ الْوِلْدَانِ الْمُخْلَدِينَ كَأَنَّهُمْ لَوْلُؤٌ مَّكْنُونٌ مَّشُورٌ فَأَخَذِمْنَا»^(٢).

تفصيل القول

تذكر الآيات بنعم متكامل، فإذا تلذذوا بالفاكهة اشتهاها لحمًا، واللحم أنواع شتى، وكلها متوافرة لهم، فإذا أكلوا دارت عليهم كؤوس من أنواع الشراب، ومنها الخمرة التي لا تؤثر في العقل، ولا في الدين (بعكس الخمرة في الدنيا).

وبعد اكتمال نعمتي الطعام والشراب، يتحسس البشر بنعمة الجمال والغلمان الذين هم يتألقون بياضاً كما للؤلؤ المكنون. وهكذا يوفر لهم ذلك الجمال الذي يتجلى في هيئة البشر، أليس الإنسان يأنس بجمال مثله؟ إن هذه النعم التي تجد نماذج غير مكتملة منها في الدنيا، إنها تتكامل يومئذٍ للمؤمنين.

بصائر وأحكام

نعم الجنة متكامل، فمن فاكهة إلى لحم، إلى كأس لا لغو فيها ولا تأثيم، إلى الغلمان المخلدين.. إنها عطاء الرب للذين اتقوا السيئات في الدنيا.

(١) تفسير مجمع البيان، الشيخ الطبرسي، ج ٩، ص ٢٧٧.

(٢) بحار الأنوار، الشيخ محمد باقر المجلسي، ج ٨٣، ص ١٢.



إنه هو البر الرحيم

﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ (٢٥) قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلَ فِي
أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقْنَا عَذَابَ السَّمُومِ
﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾ .

تفصيل القول

لا خلاص للبشر من الدنيا بما فيها من مؤثرات عاجلة تستحوذ على قلب البشر فتضلّه عن السبيل السوي، إلّا إذا عاد لها بما في الآخرة من حقائق عظمي؛ ولا ريب في أن نعيمها أغنى وأبقى، كما أن عذابها أشد وأبقى. من هنا كان علينا أن نستحضر أبداً الآخرة، لعلنا نتحرر من ضغوط الدنيا.

وفي صيغة حوار يُبين لنا ربنا سبحانه كيف يُقبل المؤمنون بعضهم على بعض لكي يتساءلوا ويقولوا: إنا كنا قبل أن نأتي إلى

الآخرة وكنا في أهلنا لم نزل نعيش أجواء الآخرة، ونُشفق مما فيها من عذاب السَّمووم، وإنما بفضل الرب ومنه تجاوزنا هذه المحنة الكبيرة.

إن هذه البصيرة تجعلنا - ونحن لا زلنا في الدنيا - نتسلح بالخشية من الله سبحانه، أملاً في منه.

١ - ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾

يبدو أنهم جميعاً كانوا من المؤمنين.

٢ - ﴿يَسْأَلُونَ﴾

وهذا التساؤل هو من باب استذكار الماضي، والفرح بما وفره الرب لهم من توفيق طاعته.

٣ - ﴿قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾

وهنا تتجلى مرة أخرى العلاقة بين حياتنا في الدنيا وما نلقاه في الآخرة. ولكن لماذا قالوا: ﴿فِي أَهْلِنَا﴾؟

لعله لأن البشر يعيش بين أهله فرحاً جزلاً وليس مشفقاً. أما لماذا أشفق؟ فلأنه يعلم أن الدنيا ليست آخر حياته.

وهكذا لم تكن حياتهم هنا أكبر همومهم، بل الآخرة كانت أعظم عندهم مما في الدنيا جميعاً.

٤ - ﴿فَمَرَبَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَقَفْنَا عَذَابَ السَّمُومِ﴾

يبدو أن كل إنسان وبسبب ما ارتكبه من خطيئات يستحق عذاب السَّمووم (الحر الشديد)، وإنما بالشفقة منه والدعاء إلى الله تعالى يُغفر له.

٥- ﴿إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾

إن الشفقة تحوّلت عندهم إلى دعاء والسؤال من الله تعالى أن يخلصهم من العذاب، لتشملهم رحمته الخاصة، لأنه هو البر الرحيم.

بصائر وأحكام

على الإنسان أن يعيش حالة الشفقة من عذاب السموم، وأن يدعو ربه لكي يُخلصه منه، لعله يتحدّى ضغوط الشهوات وبوائق الدهر التي تُصيب الناس في الدنيا، لأن ما في الآخرة أشد وأبقى.



قل ترَبَّصُوا

﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ (٢٩) أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمُنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ .

من الحديث

قال الإمام محمد الباقر عليه السلام: قال الله عز وجل لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ﴾، وَالتَّرَبُّصُ أَنْتِظَارُ وَقُوعِ الْبَلَاءِ بَعْدَ إِهْمِهِمْ^(١).

تفصيل القول

جملة من الوسواس الشيطانية تشوش الرؤية عند الإنسان، والقرآن الكريم يُذَكِّرنا بها لكي نتجنبها، ولعل هذه المنظومة هي

(١) الكافي، الشيخ الكليني، ج ٨، ص ٢٨٦ - ٢٨٧.

أصول ضلالة البشر.

بصائر الوحي والتي تستثير العقل وتستحضر الوجدان، إنها تُبدّد وساوس الشيطان التي مصدرها الأهواء والظنون وثقافة التبرير. وهكذا أمر ربنا سبحانه رسوله الأكرم محمد ﷺ، أن يُذكر الإنسان. ولعل القرآن وما فيه من بصائر هي ركائز التذكرة، التي أشار إليها بقوله سبحانه: ﴿بِنِعْمَتِ رَبِّكَ﴾، حين قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ مَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾. وأي نعمة أعظم من نعمة الوحي الذي يوقظ العقل؟ وأما وساس الشيطان فهي:

أولاً: الكهانة، وهي التخرّصات التي كانت مزيجاً من إلقاءات الجن، ومن الذكاء الخارق. ومن التخرّصات - بالرغم من أنها قد تتوافق والواقع - إلا أنها لم تكن ولا تكون في يوم ذات بينة كافية لقناعة البشر؛ لأنها قد تضر صاحبها ضرراً بالغاً أشد وأكبر من أي نفع يصيبه منها.

ثانياً: أما الجنون؛ فإننا نستطيع أن نعرفه، بأنه تجاوز الحدود العقلية إلى الأعمال الارتجالية غير المنضبطة. ولا ريب في أن كثيراً من القرارات التي يتخذها البشر قد تدخل في إطار هذا التعريف، ومنها قرارات الحروب المدمّرة التي تتخذها بعض الدول ضد بعضها، والتي لا تعتمد المعايير العقلية.

ثالثاً: والشاعر يعتمد الخيال، وميراثه الظنون والتصورات العاطفية، التي قد تضخم أو تحجّم الحقائق ليس على أساس معيار واقعي، بل على أساس العواطف والأحاسيس. وعادة ما يستغل الأثرياء أو الأقوياء هذه المقدرة عند الشعراء في سبيل تكريس مواقعهم القيادية، وإجبار الناس على طاعتهم. والشعر ميراث العواطف وهي متغيرة؛ لأنه يأتي نتيجة ظروف تتغير. وهكذا زعم الكفار أن التربص بالنبي ﷺ حين وفاته أفضل وسيلة لمواجهة.

وربنا سبحانه يهديننا إلى مدى ضلالة هذه الوسوس، التي هي قاعدة الثقافات البشرية المخالفة للوحي. يقول الله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٌ﴾، لأن الوحي حق لا ريب فيه، وهو متطابق كلياً مع هدى العقول ونور الوجدان عند الإنسان، وليس كأقوال الكهنة التي لا تعتمد على أصول علمية.

﴿وَلَا مَجْنُونٍ﴾، لأنه ﷺ يتوكل على الله القوي العزيز، والتوكل يورثه الشجاعة والبطولة النادرة، وهو يعتمد الحق وسيلة وهدفاً. وهكذا فإن قوته تتمثل في تأييد الرب، وفي توافقه مع سنن الله في خلقه. وقال الله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّبَّيْنَاهُ بِهِ رَبِّبَ الْمُنُونِ﴾. وأين كلام الوحي الذي لا يشذ ذرة واحدة عن حقائق العقل وركائز الفطرة ومكتسبات التجارب، من الشعر الذي هو دغدغة العواطف وإثارة الاحاسيس؟

أما انتظارهم موته ﷺ فإنه ينقلب عليهم؛ إذ إن إشراقة الوحي تزداد سناءً مع الزمن. قال الله تعالى: ﴿قُلْ تَرَبُّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ﴾.

بصائر وأحكام

قواعد الثقافة البشرية المخالفة للوحي تتمثل في الكهانة، وهي مزيج من إلقاءات الشيطان وومضات الذكاء، وفي الجنون القائم على أساس نزوات العاطفة، وفي الشعر الذي ميراثه الظنون والتصورات العاطفية، وهي جميعاً بعيدة عن الوحي القائم على أساس التذكرة بالحق، والتي تُوقظ العقل وتستحضر الوجدان.



فليأتوا بحديث مثله

﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلُمُهُمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاعُونَ﴾ (٣٣) أَمْ يَقُولُونَ نَقُولُهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٣٤﴾

تفصيل القول

١ - ما هي الأحلام؟. لعلها العقول، مثل قول الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَسْتَعِذَّ نَكْمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَنُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ﴾^(١). فيكون المعنى إذا عليهم أن يرجعوا إلى عقولهم لعلهم يعرفون حقانية الرسالة. وهذا مثل أن يقول أحدنا للمسيء: هل عملت ذلك بكل عقلك، لئذ كره بأن عليه أن يعود إلى عقله.

وهكذا نجد الناس في أمور معاشهم يرجعون إلى عقولهم ويتفكرون في الأمور الموضوعية، ولكنهم إذا دُعوا إلى الدين تركوا

(١) سورة النور، آية ٥٦.

عقولهم جانباً وعملوا بأهوائهم، كما فعلت قريش ولم يكن في العرب أحلم منهم. لماذا؟.

لأنهم قد طغت بهم النعم فلم يُطيعوا عقولهم، ولم يستجيبوا لنداء وجدانهم، بل تبادوا في الغي اعتماداً إلى ما أترفوا فيه.

قال الله تعالى: ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَمُهُمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاعُونَ﴾

٢- وإن من ضلالات الجاهلية كلماتهم التي يُلقونها بلا موازين وبلا حدود، فتراهم يرمون دعاة الصلاح والإصلاح بالكذب. والقرآن الحكيم يردّهم أولاً بأن وراء هذه التُّهمة كفرهم، وعزمهم بعدم الإيمان بالحق أبداً.

﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَمُهُمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاعُونَ﴾

٣- ثم يطالبهم الله سبحانه بأن يأتوا بمثل ما أتى به الرسول، فإنه إن كان مُتَقَوِّلاً - حاشا لله - فإن ذلك يعني أن كل إنسان قادر على أن يتقوّل بمثله، فليأتوا بكتاب مثل كتابه، بل سورة من مثل واحدة من سوره.

ألم يكن العرب قد أتقنوا فن الفصاحة والبلاغة، فهل يتشابه حديث من أحاديثهم مع حديث القرآن، وأين تلك الأحاديث؟

وكان بينهم من تعرّف على أحاديث اليهود والنصارى والفرس واليونان، فهل وجدوا حديثاً متشابهاً لما في القرآن؟ كلا.

﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾.

أي كلمة ذات محتوى ومظهر، وإن كان المهم محتواها. إن كلمات القرآن لا يشبهها أي حديث في ظاهرها ولا محتواها. إن محتوى كلمات

الوحي رشد ونور وضياء وهدى وتذكرة للعقل، وإيقاظ للضمير،
وبيان لحقائق لا يوجد مثلها، لا في أحاديث ذلك الجيل المعاصر
للكتاب، ولا أي جيل آخر، وحتى اليوم وإلى يوم القيامة. فأَي حديث
كان عليهم أن يأتوا به ليكون مثل كتاب ربنا سبحانه؟

بصائر وأحكام

أي عقل هذا الذي يأمر هؤلاء بالكفر؟ إنهم طغوا فقرروا
الكفر، وقالوا: إن حديث القرآن تفوُّل، ولكن هل هم قادرون على
أن يأتوا بحديث مثله؟ كَلَّا؛ لأن محتوى الكتاب نور، وأي كتاب آخر
غيره محتواه ظلام وضلالة.



بل لا يوقنون

﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

من الحديث

قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «وَكُلُّ صَانِعِ شَيْءٍ
فَمِنْ شَيْءٍ صَنَعَ، وَاللَّهُ لَا مِنْ شَيْءٍ صَنَعَ»^(١).

وروي عن الفتح بن يزيد الجرجاني، عن أبي الحسن عليه السلام
أنه قال: «وَأَنَّ كُلَّ صَانِعِ شَيْءٍ فَمِنْ شَيْءٍ صَنَعَ، وَاللَّهُ الْخَالِقُ اللَّطِيفُ
الْجَلِيلُ خَلَقَ وَصَنَعَ لَا مِنْ شَيْءٍ»^(٢).

وقال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «لَا إِيمَانَ لِمَنْ لَا يَقِينُ لَهُ»^(٣).

(١) الكافي، الشيخ الكليني، ج ١، ص ١٣٤.

(٢) الكافي، الشيخ الكليني، ج ١، ص ١٢٠.

(٣) غرر الحكم ودرر الكلم، الشيخ الأمدي، ص ٦٢، حديث رقم ٧٣٤.

تفصيل القول

١ - لقد خلق الله الإنسان أطواراً؛ إنه خلقه من نقطة من مني يُمنى، وكيف طوّره في رحم أمه من حالة لأخرى، حتى كان بشراً سوياً؟ وعندما يتفكر الإنسان في خلقه يجد جلياً تقلبه في يد القدرة الإلهية، وكيف رافقه فضله سبحانه في كل مرحلة بلطفه وحسن تدبيره، وحفظه عن أخطار كبيرة، وأسبغ عليه في كل مرحلة من نعمه التي لا تحصى عدداً.

إذاً إنه لم يكن يُخلق من غير شيء، بل كانت ترافقه رعاية الرب وحسن عنايته. وهل شهد الإنسان خلقه، أو خلق السماوات والأرض من حوله؟

كَلَّا. ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾

ولعل معنى ﴿مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ﴾ تعني من غير خالق.

٢ - والسماوات والأرض وما فيهما من آيات التقدير الحكيم، والتدبير اللطيف، ألا تدلنا على خالقهما العظيم؟ وهل ساهم هؤلاء في خلقهما؟

قال الله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

عقدة البشر الأساسية جهله الناشئ من عدم إيمانه. فما دام الفرد لا يؤمن، تجده تائهاً في ضلال بعيد؛ تجده يرى السماوات والأرض ويعايشها كل حين دون تفكير فيمن خلقهما وقدرهما، ويدبر كل لحظة شؤونهما. وهكذا قال ربنا: ﴿بَلْ لَا يُوقِنُونَ﴾.

فعدم يقينهم، هو الذي جعلهم في جهالة، بل في عماء حتى

غابت عنهم أوضح الحقائق، مثل أنهم لم يُخلقوا من غير شيء، بل الله خلقهم طوراً بعد آخر، وأنهم لم يخلقوا أنفسهم، ولم يشاركوا في خلق السماوات والأرض.



بصائر وأحكام

لو تفكّر الإنسان كيف خُلِق، وكيف تَقَلَّب بفضل الله من طور إلى طور، ثم تفكّر في خلق السماوات والأرض.. لاهتدى بإذن الله إلى الحق، ولكن البشر يفتقر إلى اليقين.



فليأت مستمعهم بسلطان مبين

﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُضَيِّطُونَ﴾ (٣٧) أَمْ لَهُمْ
سُوءُ سَمْعٍ يَسْمَعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ
وَلَكُمْ الْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ .

تفصيل القول

١ - بماذا يغترّ البشر أبشروته، أم بسلطته، أو بثقافته؟

هذه ركائز الغرور، والغرور حالة نفسية قد تُسمّى بالفرح، وهذه الحالة إذا استبدت بالنفس استصعب عليها التفكير بحرية وبموضوعية في أية فكرة جديدة كالرسالات الإلهية. وعلى الإنسان أن يتحرّر من كل ملابسات شخصية، وعلائق حياته من عصبية أو مصلحة أو تأثيرات البيئة، ثم يُفكّر في الحقيقة التي تطرح عليه.

ولعل القرآن ومن أجل تزكية نفوس هؤلاء من هذه العلائق

المعقدة، يُذكّرهم بما يلي:

ألف: أنّ ما يملكون من ثروة لا شيء إذا قيسَتْ بخزائن الله، وهل من الحكمة مواجهة حكم الله سبحانه تعالى اعتماداً على ثرواتهم؟ ﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ﴾؟

وقد قال ربنا سبحانه: ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنْفَضُوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾^(١).

ذلك لأن المنافقين قد اغتروا بما يملكون، ويتجاهلون خزائن السماوات والأرض التي عند الله سبحانه.

باء: كما يُذكّر القرآن الكفار بأن سلطتهم محدودة جداً، إذا قيسَتْ بسلطان الرب، فهل يعتمدون على بعض ما خولهم الله من ملك محدود ليواجهوا ملك الرب، وهو الذي يقول سبحانه: ﴿أَمْ هُمُ الْمُضْطَرُونَ﴾؟

إن مجرد تذكرة البشر بحدود قدراتهم، وقدر ثروتهم، تكفي لتجاوزهم حاجز الغرور، واستعدادهم لتقبل الحقيقة.

على أن القرآن الكريم نزل بصيغة «إياك أعني واسمعي يا جارة»؛ فالخطاب ليس مخصصاً بمن يُوجّه إليه مباشرة، بل ولكل الناس، حيث بإمكاننا وأنا وأنت الاستفادة مما فيه لتزكية النفس المشوبة بالأدران والمحاطة بالغرور.

٢- وفي الآية الثانية يُذكرنا ربنا بالركيزة الثالثة للداء البشري، حيث يقول سبحانه: ﴿أَمْ لَهُمْ سُلْمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ﴾.

جيم: ما يحيط بقلب البشر من أفكار يحسبها حقائق، إنها مشوشة ومختلطة، وإنما الحق الذي لا ريب فيه هو الذي يأمر به الوحي، وهو

(١) سورة المنافقون، آية ٧.

عند الرسل، أما غيره فلا يمكن أن يعتمد. وهكذا لا يمكن أن يكون حجاباً دون الانفتاح على الحقائق التي جاءت بها الرسالة.

وقد عبر القرآن عن عجزهم العلمي بأنهم لا يملكون سُلماً إلى السماء يعرج من خلاله أحدهم ويستمتع إلى الملائكة، وهم يقدرّون ويديرون شؤون الخلق. بلى؛ هناك من يدّعي صلته بالسماء وأخبارها، ولكن هل يكفي مجرد الادّعاء وبلا دليل واضح وبرهان ساطع؟ كلا. ﴿فَلْيَأْتِ مُسْتَعِيهِمْ بَسْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾

٣- وكمثل على ثقافتهم الخاطئة ومزاعمهم فيما يتّصل بأخبار السماء، قولهم المضحك أن الله اختار لنفسه البنات، وهم الملائكة، ولماذا رزقنا البنين، واختار لنفسه البنات؟

قال ربنا سبحانه: ﴿أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمْ الْبَنُونَ﴾، إنها فكرة موهلة في التفاهة، كيف تصوّروا خالقاً محتاجاً إلى خلقه، وكيف يختار الإناث اللواتي زعموا أنهن أقل حظاً يفضلهم على الذكور؟

إن ذلك دليل على فقدانهم لركيزة أخص من ركائز غرورهم الكاذب، وهي ركيزة الغرور بالعلم.

بصائر وأحكام

البشر يغيّر بشروته أو بسلطته أو بمعرفته، وقد يكون هذا الغرور حاجزاً دون التفكير بموضوعية في الدعوة الإلهية، ولكنه إذا تأمل عرف أن كل ركائز غروره تتلاشى إذا قارنها بما لدى ربنا العزيز.



فهم من مغرم مثقلون

﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَّغْرَمٍ مُثْقَلُونَ﴾ (٤٠) أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ
يَكْتُمُونَ ﴿٤١﴾ .

تفصيل القول

لكي يصل الإنسان إلى شاطئ السلام عبر سفينة الإيمان، عليه أن يتحدَّى عواصف الشهوات وأمواج الحميات.. وشرعه التذكرة القرآنية التي نقرأها في هذه المنظومة المباركة.

١ - لأن كثيراً من الدعوات رافقتها طموحات الدعاة، سواء كانت دعوات سياسية أو إصلاحية، أو حتى دينية، فإن الناس انكمشوا دونها وحالت مصالح الدعاة دون استماع الناس لهم بموضوعية.

من هنا فإن دعوات الرسل كانت خالصة من أية مصلحة ذاتية. بلى؛ الرسول يأخذ أجراً وأجراً عظيماً، ولكن من رب العزة، وليس من

الناس. ولذلك قال ربنا سبحانه: ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَّغْرَمٍ مُنْقَلُونَ﴾ ،
وواضح أن النبي ﷺ نادى فيهم بأعلى صوته، أنه لا يريد منهم
أجراً.

٢- نزعة الاتصال بغيب السماوات والأرض والتفاعل مع من
يُدبر أمرهما، نزعة فطرية وعميقة في كل قلب، ولكن يزعم الكثير أنه
يستطيع أن يتواصل مع الغيب بنفسه وبصورة مباشرة، وحتى تراه
يطلب أن ينزل ربه إليه وحياً.

كلاً؛ إن سنة الله قد قضت أن ينزل الوحي على واحد من كل
قوم، ثم يؤمر بأن ينذر الآخرين، خصوصاً وأن وحي الله للناس يجب
أن يكون واضحاً. وهذا لا يتسنى لأحد، إلا الرسول.

بلى؛ قد يتلقى القلب، قلب كل إنسان، وفي حالات معينة
إشارات من الوحي، ولكنه لن يكون خارطة لطريقه في الحياة واضحة
المعالم. وهكذا قال ربنا سبحانه: ﴿أَمْ عِنْدَهُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُمُونَ﴾ ، وما داموا
بحاجة إلى الغيب بشهادة فطرتهم، ولا غيب لديهم بذلك الوضوح حتى
يتحوّل إلى كلمات مكتوبة، فإن عليهم التسليم لأمر الله تعالى.

بصائر وأحكام

لأن طموحات الدعاة كانت تُرافق عادة دعواتهم وتُنفّر الناس
منها، فإن رسل الله ﷺ قد أعلنوا أنهم لا يطالبون بأجر. ولأنّ
التواصل مع الغيب نزعة فطرية، فإن السبيل الوحيد لذلك التواصل
مع الرسل المتصلين بالغيب عبر الوحي.



الذين كفروا هم المكيدون

﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

من الحديث

قال رسول الله ﷺ: «الْمَكْرُ وَالْخَدِيعَةُ وَالْخِيَانَةُ فِي النَّارِ»^(١).
وقال الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «وَإِنْ كَانَ الْعَرَضُ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ حَقًّا فَالْمَكْرُ لِمَاذَا؟»^(٢).
وقال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «فَرَضَ اللَّهُ الْإِيمَانَ تَطْهِيرًا مِنَ الشُّرْكِ»^(٣).

(١) مستدرک الوسائل، الميرزا النوري، ج ٩، ص ٨٠.
(٢) من لا يحضره الفقيه، الشيخ الصدوق، ج ٤، ص ٣٩٣.
(٣) نهج البلاغة، حكمة رقم ٢٥٢.

تفصيل القول

١ - لا مناص لنا إلا التسليم لرسالات ربنا، لماذا؟.

لأن أي ضلالة عنها تُوقنا في أخطار لا تُحصى، إلا أن الشيطان يوسوس في أفئدة الناس بإمكانية تجنب خطر الكفر بالدين ببعض الكيد؛ مثلاً بمواجهة الرسول عبر الإفك عليه وحتى إيذائه، بل وحتى قتله. ولكن هل يعلم هؤلاء أن الله العظيم بكل قدرته ومكره وكيدهِ يدافع عن رسوله؟ وأن الكيد بالرسول يزيد الكافرين عناء لأنهم سوف يصيبهم عقبي كيدهم؟ ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾.

٢ - هنا يوسوس الشيطان لهم بأن بإمكانهم الفرار من حكومة الرب لكيلا يعاقبهم بما أجرموه، ولكن كيف؟.

إنما بالتخاذل إليه آخر. وهل هناك إله آخر للعالمين؟ وأين هو؟ وما هي آياته؟ وكيف ينقذنا من غضب ربنا؟.

كلا؛ إن الله هو الإله الواحد، ولا مفر منه إلا إليه سبحانه.

﴿أَمْ هُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾

بصائر وأحكام

الكيد بالرسول يرد على صاحبه، ولا إله يحميه، لأنه لا شريك لله رب العالمين. فلا مناص من التسليم للرسالة.



فذرهم حتى يلاقوا يومهم

﴿وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ٤٤﴾
 فَذَرَهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ٤٥ يَوْمَ لَا يُغْنِي
 عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ٤٦﴾.

من الحديث

عن عبد الرحمن بن سالم، عن أبيه، عن أبي جعفر عليه السلام قال:
 «قُلْتُ لَهُ: هَلْ يُكْرَهُ الْجَمَاعُ فِي وَقْتٍ مِّنَ الْأَوْقَاتِ، وَإِنْ كَانَ حَالًا لَا؟»

قَالَ: نَعَمْ؛ مَا يَبْنَ طُلُوعُ الْفَجْرِ إِلَى طُلُوعِ الشَّمْسِ... وَلَقَدْ بَاتَ
 رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عِنْدَ بَعْضِ نِسَائِهِ فِي لَيْلَةٍ أَنْكَسَفَ فِيهَا الْقَمَرُ، فَلَمْ
 يَكُنْ مِنْهُ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ مَا كَانَ يَكُونُ مِنْهُ فِي غَيْرِهَا حَتَّى أَصْبَحَ. فَقَالَتْ
 لَهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ أَلْبُغْضِ كَانَ مِنْكَ فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ؟

قَالَ: لَا؛ وَلَكِنْ هَذِهِ الْآيَةُ ظَهَرَتْ فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ، فَكَرِهْتُ أَنْ

أَتَلَذَذُوا وَلَهُوَ فِيهَا، وَقَدْ عَيَّرَ اللَّهُ أَقْوَامًا فِي كِتَابِهِ، فَقَالَ: ﴿وَأَنْ يَرَوْا كِسْفًا
مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ ﴿٤٤﴾ فَذَرَهُمْ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ
يُصْعَقُونَ﴾ ﴿١﴾.

تفصيل القول

١ - عندما يتراكم رين الأعداء على القلب، فيومئذ يكاد القلب
ينغلق دون وعي الظواهر الواضحة؛ فحتى آيات العذاب إذا ظهرت
في الأفق، تراهم يخدعون أنفسهم ويقولون: كلاً؛ إنها مجرد سحب
متراكمة. وهكذا ينغلقون دون معرفة أشد الظواهر وضوحاً بسبب
تعودهم على التبرير.

﴿وَأَنْ يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾
كِسْفًا؛ أي قطعة.

٢ - ما هو الموقف المناسب من هذه الفئة، الذين لا يؤمنون
حتى عندما يرون آثار العذاب؟ هل ينفعهم النصيح، أم هل تراهم
يستفيدون من الإنذار؟.

كلًا؛ الموقف هو تركهم لشأنهم حين ذلك اليوم الموعود الذي
ينتظرهم، يوم العذاب الذي يصعقهم بمفاجئته وبشدته. ﴿فَذَرَهُمْ
حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾.

٣ - ذلك اليوم الرهيب الذي إذا نزل بساحتهم لا يستطيعون
له ردًا، لأنه فوق مستوى كيدهم، ولا تنفعهم محاولات التهرب من
عواقبه. بلى؛ إن المجرم أنى كان يقنع نفسه - عادة - بقدرته على الفرار

(١) المحاسن، الشيخ أحمد بن محمد البرقي، ج ٢، ص ٣١١.

من عاقبة إجرامه بكيد معين، ولولا ذلك لم يقدم على الجريمة. كذلك الكفار تراهم يُمنون أنفسهم بأنهم سوف يحفظون أنفسهم من عاقبة كفرهم، ولكن هيهات.

﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ فلا هم قادرون على منع العذاب عن أنفسهم بالكيد وشتى أنواع الحيل، ولا أحد في العالم قادر على نصرهم.

﴿وَلَا هُمْ يُنصرون﴾.

بصائر وأحكام

على الإنسان أن يتقي ثقافة الأعداء، لأنها إذا استحذت على القلب فالحقائق تخفى عنه؛ فحتى علامات العذاب لا تنفعه. وهكذا يدرك الظالمون مصيرهم الذي لا ينقذهم منه، لا كيدهم ولا نصره غيرهم لهم.



وإن للذين ظلموا عذاباً

﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٤٧)

تفصيل القول

إرهاصات عذاب الآخرة تتوالى في الدنيا، ولكن القلوب المقفلة التي حُجبت عن نور اليقين جرّاء الرين، وحجب الوسائوس والثقافات السلبية.. إنها لا تفقه تلك الإرهاصات. ومثل ذلك خطر الموت، إنه لا يدهم الذي لا يأبه بالتعاليم الصحية، وإنما تتقدمه الآلام وعلامات المرض القاتل، فإن ارعوى فلعله نجا، ولكن من لا يبالي بصحته لغروره، لا يبالي بالآلام المرض ولا يراها مقدمة لخطر الوفاة.

كذلك الظالم الذي يجد آثار ظلمه تترى عليه، فإذا كان حاكماً وجد إرهاصات الثورة عليه، فإن لم يتب أطاحت به الثورة العارمة. ولكن أنى للحاكم الظالم أن يفقه عقبي ظلمه حتى لو شاهد آثاره،

وهو أساساً لم ينتبه إلى حقيقة الظلم وعواقبه الوخيمة.

قال الله تعالى:

﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾

بلى؛ أين عذاب الدنيا على شدة ألمه وصعوبة احتماله من عذاب الآخرة الأشد والأبقى؟.

بصائر وأحكام

الآخرة امتداد للدنيا، وعذاب الدنيا نفحة من عذاب الآخرة؛ ومن لا يردعه عذاب الدنيا لجهله بأسبابه، كيف يفهم عذاب الآخرة؟ وهكذا يجب على الإنسان أن يحذر من حجب الكفر التي تمنعه من معرفة أسباب العذاب.



واصبر لحكم ربك

﴿وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ
﴿٤٨﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَرَ النُّجُومِ﴾ ﴿٤٩﴾.

من الحديث

قال رسول الله ﷺ: «الصَّبْرُ سِتْرٌ مِنَ الْكُرُوبِ، وَعَوْنٌ عَلَى الْخُطُوبِ»^(١).
وقال ﷺ: «مَنْ يَصْبِرْ نَصَرَهُ اللَّهُ، وَمَا أُعْطِيَ عَطَاءً خَيْرَ
وَأَوْسَعُ مِنَ الصَّبْرِ»^(٢).

وقال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «وَاطْرَحْ عَنْكَ
وَارِدَاتِ الْهُمُومِ بَعَزَائِمِ الصَّبْرِ وَحُسْنِ الْيَقِينِ»^(٣).

(١) كنز الفوائد، أبو الفتوح الكراجكي، ص ٥٨.

(٢) مستدرک الوسائل، الميرزا النوري، ج ٢، ص ٤٣٠.

(٣) نهج البلاغة، رسالة رقم ٣١.

وسئل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «مَا تَفْسِيرُ سُبْحَانَ اللَّهِ؟ قَالَ: هُوَ تَعْظِيمُ جَلَالِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَتَنْزِيهُهُ عَمَّا قَالَ فِيهِ كُلُّ مُشْرِكٍ فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ صَلَّى عَلَيْهِ كُلُّ مَلَكٍ»^(١).

وقال الإمام محمد الباقر عليه السلام في قول الله تعالى: ﴿وَادْبَرْ النُّجُومَ﴾ «رَكَعَتَانِ قَبْلَ الصُّبْحِ»^(٢).

وقال الإمام جعفر الصادق عليه السلام في قول الله تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَادْبَرْ النُّجُومَ﴾ «هُوَ الْوِتْرُ فِي آخِرِ اللَّيْلِ»^(٣).

وقال الإمام جعفر الصادق عليه السلام في قول الله عز وجل: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾^(٤) «وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَادْبَرْ النُّجُومَ» «أَمْرُهُ أَنْ يُصَلِّيَ مِنَ اللَّيْلِ»^(٤).

تفصيل القول

١ - ما مسؤولية الرسالي الذي يتبع نهج الرسول ﷺ في قبال هذه النفوس التي احتجبت بسبب وساوس الشيطان عن نور الحقيقة؟
أولاً: الصبر والاستقامة على الطريق الذي أمر به الرب دون موافقة الكفار، خشيةً منهم أو طمعاً في استمالتهم.

كلاً؛ إن دين الله هو الحكم، وعليه الرجوع إليه، وحتى النبي ﷺ مستمسك بهذا الحكم بلا تراجع، وليعلم الرسول ومن يتبعه

(١) التوحيد، الشيخ الصدوق، ص ٣١٢.

(٢) الكافي، الشيخ الكليني، ج ٣، ص ٤٤٤.

(٣) دعائم الإسلام، القاضي النعمان المغربي، ج ١، ص ٢٠٤.

(٤) دعائم الإسلام، القاضي النعمان المغربي، ج ١، ص ٢١٠.

أن عين الله ترعاه ويد الله تؤيده وليس وحيداً في مواجهة المد الجارف الذي يملأ العين وهو غطاء كغشاء السيل؛ ومثل ما يعتمدون عليه مثل شجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار. وهكذا الاستقامة توكلاً على الله وثقة بنصره، هو الموقف السليم.

ثانياً: ذُكر الله و تسبيحه والذي به يطمئن القلب، ويُشحذ به العزم، وتخضع له اعناق الخليقة.. وما أعظم من تسبيح الله عندما يقوم الإنسان من نومه أول النهار، لأنه يقوي جوانح نفسه، وهكذا حين يقوم لأية مهمة رسالية.

قال الله سبحانه: ﴿وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾.

٢- ثالثاً: ويستمر المؤمن في ذكر ربه، كما في النهار الذي فيه له سبح طويل، وكذلك عندما يخيم الظلام على الطبيعة ويأوي كل حي لثواه، فإن قلب المؤمن يبقى في قمة العزم والحيوية، وذلك بستبيح الرب سبحانه.

﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾

رابعاً: ولعل هذا من أول الليل، والذي يستقبله المؤمن بذكر الله، كما إنه يودّعه كذلك.

قال ربنا سبحانه: ﴿وَإِذْبَرْتَ النُّجُومَ﴾

بصائر وأحكام

مسؤولية المؤمن أمام تحديات الكفار تتلخص في الاستقامة بذكر الله صباحاً ومساءً، وعند كل حركة.

بَيِّنَاتٌ مِّنْ فَحْوَةِ الْقُرْآنِ

سُورَةُ النِّجْمِ





والنجم إذا هوى

﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ ﴿١﴾.

من الحديث

عن محمد بن مسلم قال: «قلت لأبي جعفر عليه السلام: قول الله عز وجل: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾^(١)، ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾^(٢)، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ. فَقَالَ: إِنَّ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يُقْسِمَ مِنْ خَلْقِهِ بِمَا شَاءَ، وَلَيْسَ لَخَلْقِهِ أَنْ يُقْسِمُوا إِلَّا بِهِ»^(٣).

تفصيل القول

١ - ﴿وَالنَّجْمِ﴾

قسماً بالنجم في حالة حركته المضبوطة، ولأنها مضبوطة

(١) سورة الليل، آية ١.

(٢) سورة النجم، آية ١.

(٣) الكافي، الشيخ الكليني، ج ٧، ص ٤٤٩.

ومحسوبة، فهي تدل على من يضبطها ومن يدبر لها أمرها؛ وليس غير الله سبحانه وتعالى من يضبط حركة النجم، وهو الذي جعله مسخرًا للإنسان، بل وجعل الإنسان محور الخليقة.

وانطلاقاً من هذا القسم الشريف، فإنه ليس من المعقول أن يترك الله سبحانه الناس سدى، دون أن يجعل لهم ما يضبط حياتهم عقائدياً وسلوكياً، مادام قد كشف عن نفسه بأنه المدبر والضابط لحركة النجم.

وهو سبحانه وتعالى لا يضبط حركة الناس، ولا يحاسبهم من غير أن يبعث إليهم خليفته فيهم، وهو النبي والرسول والإمام، وقد قال سبحانه: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾^(١). وليس تتم بعثة النبي إلا بالوحي المقدس.

ثم النجم - حسب المعروف - هو أحد الشمس في الفضاء الآخذ بالاتساع يوماً بعد آخر، ومعلوم أن لكل شمس أقمارها، ولكل شمس فللكها وحركتها. والنجم شمس من هذه الشمس، ولكثرة عددها، تجد السماء كلها نجومًا كأنها قطعة واحدة، إذا ما أمعنت النظر في بعض الليالي الصافية وفي بقاع معينة.

﴿وَالنَّجْمِ﴾ الواو هنا واو القسم، والقسم يُؤدِّي إلى ربط حقيقتين مع بعضهما، وقد يكون الربط مجهولاً عند المخاطب، معلوماً عند المتحدث، كأن يقسم قائلاً: وعمري - علماً بأن القسم الشرعي لا يتم بهذا التعبير - فهو يربط عمره بأمر ما، ويرى أن قيمة عمره عنده تساوي قيمة ما يقسم عليه. بلى؛ إن القسم في القرآن المجيد يأتي لبيان نوع ومستوى الرابطة بين المقسم به والمقسم عليه. فحينما يقول القرآن

(١) سورة فصلت، آية ٤٦.

الكريم: ﴿وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا﴾ (١) وَالْقَمَرُ إِذَا تَلَّهَا (٢) وَالنَّهَارُ إِذَا جَلَّهَا (٣) وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَاهَا (٤) وَالسَّمَاءُ وَمَا بَنَاهَا (٥) وَالْأَرْضُ وَمَا طَحَّهَا (٦) وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿(١)﴾.

ثم يقول بعد هذا القسم: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ (٢).

فإنما يشير - في أحد معانيه - إلى حقيقة أن الله سبحانه وتعالى قد خلق هذا العالم من أجل الإنسان. فعلينا تركية النفس، لكي نحظى بالفلاح.

تري لماذا يقسم الله سبحانه هنا بالنجم؟

لعل السبب يكمن في التذكرة بأهمية الظواهر الكونية ومدى عظمتها، لكي ندرس ملياً تحولاتها.

إننا قد نتعاش مع الطبيعة من حولنا سبعين عاماً دون أن ندرسها أو نتفاعل معها أو نفكر في دورها في حياتنا. وبذلك يسمو بنا كتاب ربنا إلى الاهتمام بالقضايا الكبرى دون صغائر الأمور وتوافه الأحداث.

٢ - ﴿إِذَا هَوَىٰ﴾

أكثر المفسرين قالوا: إِنَّ ﴿هَوَىٰ﴾ بمعنى نزل وسقط. فيما قال البعض إِنَّ ﴿هَوَىٰ﴾ بمعنى الصعود.

ونحن نقول: بما أن «الْقُرْآنُ حَمَلٌ ذُو وُجُوهِ» (٣) كما قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، فكلمة ﴿هَوَىٰ﴾ قد تكون بكلا

(١) سورة الشمس، آية ١ - ٨.

(٢) سورة الشمس، آية ٩.

(٣) نهج البلاغة، رسالة رقم ٧٧.

المعنيين؛ أي بمعنى الصعود ومعنى النزول. وعلى أية حال، فإن طبيعة النجم تحلو من الصعود أو النزول، وإنما الصاعد والنازل هو الإنسان؛ وسواء صعد النجم أم نزل، فهو آية من آيات الله تعالى.

ولكن السؤال المهم في البين هو: لماذا لا يقسم القرآن بالنجم مجرداً عن وصفه ب﴿هَوَى﴾؟

يبدو الجواب يتطلب تعمقاً في لغة القرآن عموماً، حيث إن لغته لغة صيرورة وحركة، وليست لغة الجمود والسكون، وهي تبعث في الإنسان طاقة كبيرة تبعثه نحو الانطلاق والتحرك.

فحينما يحدثنا القرآن عن الشمس يقول: ﴿وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا﴾^(١). لأنه حينما تكون نظرة الإنسان إلى شيء نظرة جامدة، فإن هذه النظرة لا تكشف له واقع الشمس وفوائد شروقها أو غروبها، ولا تعبر عن التحولات التي تنشأ من هذه الكرة اللاهبة. وكذلك النجم، حيث لا ينظر إليه نظرة متحركة، يتم تجاهل فوائدها.

ثم هناك إشارة أخرى في هذه الكلمة تتلخص في أن بعض العرب كانوا يعبدون بعض النجوم، مثلاً (الشعري)، فذكرنا الله سبحانه بأن النجم يهوي ويأفل، فلا يصلح للعبادة. وهكذا بين ربنا أن النبي إبراهيم عليه السلام رفض عبادة الكواكب بقوله: ﴿هَذَا رَبِّي فَلِمَ أَقْلَ قَالَ لَا أَحِبُّ الْآفَلِينَ﴾^(٢).

وقال: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشَّعْرَى﴾^(٣).

(١) سورة الشمس، آية ١.

(٢) سورة الأنعام، آية ٧٦.

(٣) سورة النجم، آية ٤٩.

بصائر وأحكام

١ - ليس من المعقول أن يترك الله سبحانه الناس سدىً، دون أن يجعل لهم ما يضبط حياتهم عقائدياً وسلوكياً، مادام قد ذكرنا بأنه المدبّر لحركة النجم.

٢ - إن القَسَم في القرآن المجيد بيان لنوع ومستوى الرابطة بين المقسَم به والمقسَم عليه.

٣ - حينما يُوجَّهنا ربنا سبحانه إلى حقائق الوجود، إنما لكي نتعايش معها، وألاً ننطوي على أنفسنا، وبالتالي فالله تعالى يريد لنا السمو عبر الاهتمام بالقضايا الكبرى دون صغائر الأمور وتوافه الأحداث.



ما ضل صاحبكم

﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى﴾ ﴿٢﴾.

من الحديث

قال الإمام محمد الباقر عليه السلام في قول الله عز وجل: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى﴾: «مَا ضَلَّ فِي عَلِيٍّ عليه السلام وَمَا غَوَى، وَمَا يَنْطِقُ فِيهِ عَنِ الْهَوَى، وَمَا كَانَ مَا قَالَ فِيهِ إِلَّا بِالْوَحْيِ الَّذِي أُوحِيَ إِلَيْهِ»^(١).

تفصيل القول

القرآن المجيد يرفع الضلالة وينفي احتمال وقوعها من النبي ﷺ في كافة مراحل حياته. وحيث تنعدم الضلالة لدى الرسول،

(١) تفسير القمي، الشيخ علي بن إبراهيم القمي، ج ٢، ص ٣٣٤.

فإنه لن يُضِلَّ أحداً حاشا لله.

والضلالة هي انحراف الإنسان بغير هدى. لذا نجد الناس ضالين قبل نزول الرسالات عليهم.

١ - ﴿مَا ضَلَّ﴾

نصل هنا إلى عمق كلام القرآن الكريم بالنسبة إلى النبي ﷺ، إذ ما ضلَّ الرسول مطلقاً في كافة مراحل حياته؛ سواء قبل الرسالة أو بعدها.

٢ - ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ﴾

أي: ما ضلَّ في نفسه.

٣ - ﴿وَمَا غَوَى﴾

أي: لم يضلَّ غيره.

فالرسول على هدىً مطلق، ويدعو إلى الهداية، ولا يمكن تصور - مجرد تصور - إضلال الرسول لغيره. فهو طاهر مطهر؛ طاهر من رجس الجهل، ومطهر من رجس الجهالة. فلا هو جاهل أساساً، ولا هو عالم يتجاهل.

وكما أن النجم الذي خلقه الله تعالى لتفعيل نظرة الإنسان، وضبط حركته، فلم يهو إلاَّ لحكمة معينة، كذلك ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ﴾، إذ ضبط سبحانه وتعالى حركة النبي وعصمه، ولم يدع له مجالاً لكي يضل.

ولا ريب في أن هذه الآية من الآيات القرآنية المحكمة التي تشير بكل صراحة ووضوح إلى عصمة الرسول ﷺ.

ضلال الإنسان

الإنسان في ضلال إلا بقدر الهداية الإلهية التي يهبها الرب له، وكل إنسان من دون نور الله وهدايته الربانية يبقى في ضلال. وبمقدار ما يضيء الله من قلب الإنسان، تراه يهتدي.

أما الرسول الأكرم ﷺ الذي عبّر عنه السياق القرآني بكلمة: ﴿صَاحِبُكُمْ﴾ فهو من الناس ويعيش بين الناس ويعرفه الناس، ومع ذلك فإنهم لم يروا فيه ولا نقطة ضعف واحدة، ولم يسجلوا عليه كذبة في قول، أو خيانة في أمانة، حتى اشتهر بينهم بالصادق الأمين. فلا شبهة تبقى في أمر رسالته، ولا مبرر لديهم لاتهامه بالكذب على الله سبحانه وتعالى.

بصائر وأحكام

١- ما ضل رسول الله ﷺ مطلقاً في كافة مراحل حياته؛ سواء قبل الرسالة أو بعدها.

٢- كل إنسان من دون نور الله وهدايته الربانية يبقى في ضلال، وبمقدار ما يضيء الله من قلب الإنسان يهتدي.



ما ينطق عن الهوى

﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ (٤)

من الحديث

قال الإمام محمد الباقر عليه السلام في قول الله عز وجل: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾: «مَا يَتَكَلَّمُ بِفَضْلِ أَهْلِ بَيْتِهِ بِهَوَاهُ، وَهُوَ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾»^(١).

وقال الإمام محمد الباقر عليه السلام: «إِنَّ اللَّهَ بَرَأَ مُحَمَّدًا ﷺ مِنْ ثَلَاثٍ أَنْ يَتَقَوَّلَ عَلَى اللَّهِ، أَوْ يَنْطِقَ عَنْ هَوَاهُ، أَوْ يَتَكَلَّفَ»^(٢).

(١) الكافي، الشيخ الكليني، ج ٨، ص ٣٨٠.

(٢) المحاسن، الشيخ أحمد بن محمد البرقي، ج ١، ص ٢٧٠.

تفصيل القول

هناك وحي وهناك هوى، ويجب أن يُفرز هذا عن ذلك. فالوحي يتَّسم بالشفافية والصدق، بينما وساوس الشيطان - التي تغزو قلب الإنسان - تتسم بالريب والتدليس.

انظروا إلى تعابير القرآن المجيد في هذه السورة المباركة وبهذا الصدد بالذات. فمثلاً؛ قال الله تعالى: ﴿ أَفَتُمِرُّونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴾^(١)، إذ الرسول المصطفى ﷺ كان يرى رؤية العين والقلب، دون أن تعتريه حالة نعاس أو سبات. إنه يرى الحقيقة بكل وضوح، ماثلة أمامه.

وفي آية أخرى: ﴿ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴾^(٢).

وفي أخرى: ﴿ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴾^(٣).

فالحقائق كانت لديه واضحة شفافة، وكان بين القلب والبصر تناغم تام.

شخصية الرسول في سورة النجم

في هذه السورة المباركة يعكس السياق القرآني للعالم جوانب مهمة من حقيقة الرسول المصطفى ﷺ، مما يرفعه إلى مقام لا يدانيه مخلوق؛ بشر أو ملك أو غيرهما.

ولا ريب في أن هذا السياق القرآني المقدس ردُّ على تخرصات

(١) سورة النجم، آية ١٢.

(٢) سورة النجم، آية ١١.

(٣) سورة النجم، آية ١٧.

أعداء الدين من شياطين الإنس والجن الذين أرادوا المساس بشخص الرسول وطبيعة أدائه للأمانة الملقاة على عاتقه، إذ نسبوا إليه زوراً وبهتاناً التباس الأمر عليه وإلقاء الشيطان على لسانه كلمات نسبها إلى الله تعالى.. كما نسبوا إليه من قبل تعرضه للشبهة، وعدم التفريق بين وحي السماء وما يلقيه الشيطان من وساوس.

بل إنهم بالغوا في ذلك حتى نسبوا إليه ما جاء في القرآن من ذم بحق أناس فاسدين، نسبوه إلى شخص الرسول، وهو براء منه. وقد تسرّبت هذه التهم الباطلة إلى بعض المؤلفين الغرباء عن مدرسة أهل البيت عليهم السلام، حتى إنك تراهم ينتقصون من الرسول ﷺ، وهم الذين لا يرتضون أن ينسبوا مثل ذلك إلى أتفه الناس.

وفي الوقت الذي تساهم آيات هذه السورة في بيان شخصية الرسول الطاهرة المطهرة، تُبيّن لنا حقائق عن الوحي ودوره في إنقاذ الإنسان، وهو لا ريب بحاجة إلى تأملات معمقة لمعرفة الوحي وكيفية نزوله بعيداً عن أباطيل المرجفين الذين قالوا بأن الوحي شبيه بحالة الحلم في المنام، بينما القرآن الكريم يصف الوحي بالرؤيا الواضحة التي يُصدّقها العقل.

القلب بين الوحي والهوى

كما سبق وبينّا، إن قلب الإنسان تتصارع فيه قوتان: الهوى والعقل، فإذا انحسر العقل غلب الهوى، وإذا هيمن الهوى ضمّر العقل، ولا يمكن أن يبقى القلب فارغاً من الهوى والعقل معاً.

والقرآن الحكيم يشير هنا إلى أن ما يتحدث عنه النبي ﷺ ليس هوىً، فإذا لم يكن هوىً، فما هو يا ترى؟ أوليس هو الوحي؟.

﴿إِنَّهُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾

لأنه كان من قبل ﴿وَمَا يَطُقُ عَنِ الْهُوَىٰ﴾، والنطق هو ما يتلفظ به الإنسان.

و﴿عَنِ﴾ هنا بمعنى المنشئية، إذ كلامه لا ينشأ من الهوى، وإنما ينشأ من العقل. وأبعاد هذه الحقيقة تتمثل في التالي:

أولاً: إن كلام الرسول الذي ألقاه على مسامع البشرية، كلام وحي منزل من الله تعالى.

ثانياً: إن جزئيات كلام الرسول وتفاصيله تخلق تماماً عن كل ما يمت للهوى بصلة. إذ النبي معصوم، حتى أصبح عقله مسيطراً بالكامل عليه. ولنقل: لا يمكن تصور شخصية الرسول في هذا المسار كما قد تُتصور شخصيات الآخرين.

ثالثاً: إن كلمات الرسول المصطفى ﷺ لا تختلف عن الوحي أبداً. فكما القرآن وسيلة تشريع ورسم عقائد، كذلك كلام الرسول وفعله وتقديره وسيلة تشريع ورسم عقائد. ومن هنا جاء التأييد القرآني المطلق للرسول الأكرم، حيث ورد قوله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾^(١)، والإتيان والنهي النبويان وردا مطلقين، وهما أشمل من مجرد نقل الوحي القرآني للناس.

ثم إن نطق النبي جاء مطلقاً من غير تحديد من قبل الله تعالى في مختلف القضايا العقائدية أو التشريعية، أو ما يتعلق بذريته، أو خلافته، أو إخباره عن المستقبل، أو غير ذلك.

فالنطق النبوي نطق متصل بالسماء في جميع الأمور، لأن هذا

(١) سورة الحشر، آية ٧.

النطق بمعزل تام عن التلوث بالهوى، وقد ورد هنا على سبيل الحصر التام والكامل، حيث جاء التعبير عن أي نطق يكون مصدره الهوى.

بين الوحي والإلهام

ليس الوحي كما ذكر بعض المفسرين هو مجرد إلقاء كلمة في النفس، إنما الوحي هو صلة بين الموحى إليه والغيب، حتى يصبح عنده كالشهود.

أما شروط الوحي فهي ثلاثة:

- ١- إبلاغ الموحى إليه.
- ٢- مصدر الوحي الغيب.
- ٣- الوضوح والشفافية.

وما يؤكد أن الوحي إنما هو مصدر خارجي وليس من قبيل حديث النفس، قول الله سبحانه: ﴿إِنَّهُ هُوَ الْوَحِيُّ يُوحَىٰ﴾، حيث إن كلمة ﴿يُوحَىٰ﴾ إشارة إلى صدوره عن طرف خارجي دون كونه داخليًا. فهو وحي دخل إلى قلب النبي، ونزل عليه من مكان منفصل عنه؛ والشاهد على ذلك أن الكلمة جاءت بعد قول ربنا سبحانه: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾، حيث كان يتبادر إلى الأذهان سؤال مهم يقول: إذا عمّن ينطق هذا النبي؟

فجاء الجواب صادقاً: ﴿إِنَّهُ هُوَ الْوَحِيُّ يُوحَىٰ﴾ باستمرار من قبل من هو أسمى منه وأعلى، وهو: ﴿شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾^(١).

(١) سورة النجم، آية ٥.

الوحي أعلى درجات اليقين

لليقين درجات، منها: العلم والحق والعين.. وإذا ما كانت درجة أعلى من كل هذه الدرجات، فهو الوحي. وعلى هذا الأساس يتضح بطلان ما قيل عن إصابة رسول الله ﷺ بحالة من الذعر عند نزول الوحي عليه، وسؤال خديجة عليها السلام إياه ثم استفسارها من ابن عمها ورقة بن نوفل، وتأكيد هذا الأخير لها بأن ما نزل على زوجها هو الناموس الأكبر، ثم عودة خديجة إلى النبي وتأكيد لها بأنه قد أصبح نبياً، ثم عودة الاطمئنان النفسي إلى النبي.

وعلة ذلك أن هذه القصة لا تنسجم مع الروح القرآنية، إضافة إلى استحالة تسرّب أية درجة من الشك إلى رسول الله ﷺ، وهو الذي كان نبياً يسبح الله تعالى حول العرش قبل أن تُخلق سائر الكائنات بآلاف السنين.

ثم إن من الواضح أن كل ما لدى الإنسان من علم فإنما هو من عند الله تعالى، فكيف بإنسان يُنزل الله عليه علمه مباشرة؟ وإذا رأى الإنسان شيئاً ما، فإن له الحق في ادعاء العلم به، فكيف به إذا أراه الله ذلك الشيء مباشرة؟

إن وحي الله للنبي يعني الاتصال المباشر، وواضح أن الاتصال المباشر يتفاوت مع الاتصال غير المباشر بالحقائق.

إذاً؛ فالوحي لا يعتوره الغموض، ولا تتسرّب إليه الوسائس والشكوك، إنما هو علم يقين منزل من عند الله الحق. وقد كانت لهذا الوحي بداية واضحة ونهاية محددة في نقطة ليست بالمبهمة.

بصائر وأحكام

١ - النطق النبوي نطق متَّصل بالسماء في جميع الأمور، لأن هذا النطق بمعزل تام عن التلوّث بالهوى.

٢ - ليس الوحي مجرد إلقاء كلمة في النفس، وإنما الوحي هو الحق الذي يبلغ الإنسان من موضع الغيب وبصورة واضحة.



علمه شديد القوى

﴿عَلَّمَهُ، شَدِيدُ الْقُوَى﴾ ﴿٥﴾

تفصيل القول

الوحي علمٌ مطلق وحق واضح، ومن يحمل هذا الوحي إلى الرسول ينبغي أن يكون بمستوى هذا العلم، لذلك فهو ﴿شَدِيدُ الْقُوَى﴾. هذا إضافة إلى أن أسباب الجهل كثيرة، منها ما هو داخلي، ومنها ما هو خارجي؛ والداخلي هو الهوى، والخارجي هو الضعف. بينما الأمين جبرائيل عَلَيْهِ السَّلَامُ ما كان ضعيفاً، فيما النبي كان معصوماً من عند الله عن الهوى والضلال.

وعلى ذلك؛ فإن القرآن المجيد ينفي تسرب الخلل -بمختلف أشكاله وحالاته- عن الوحي وعن من ينزل عليه الوحي، وعن الذي يحمل الوحي.

ثم إن القرآن المجيد يحمل الكلام في بعض الأحيان نظراً للفائدة المرجوة من الإجمال، وبالذات في سورة النجم المباركة.

ومفردة ﴿شَدِيدٌ﴾ وردت للإشارة إلى امتلاكه وتحكمه بكل أنواع ودرجات القوة. ومعلومة هي القوة التي يتمتع بها الأمين جبرائيل عليه السلام لدى قولنا بعود الضمير في ﴿عَلَّمَهُ﴾ إليه، إذ لا يمكن تصوّر تعرض الوحي إلى السرقة أو استراق السمع من بين يديه. أما إذا كان الضمير يعود إلى الله عز وجل، فالأمر مفروغ منه وواضح جداً.

بصائر وأحكام

إن القرآن المجيد ينفي تسرّب الخلل -بمختلف أشكاله وحالاته- إلى الوحي وإلى من ينزل عليه الوحي، وإلى الذي يحمل الوحي.



ذو مرة فاستوى

﴿ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى﴾ ٦ .

من الحديث

قال الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَ جَلَّ لَمْ يَبْعَثْ نَبِيًّا قَطُّ إِلَّا صَاحِبَ مِرَّةٍ سَوْدَاءَ صَافِيَةٍ»^(١).

تفصيل القول

﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ هذه الكلمة أبعد من كلمة (ذوقوة)، وحيث ورد التعبير ضمن اصطلاحين، فإننا نكون ملزمين باستيعاب حالتين، فنقول:

(١) الكافي، الشيخ الكليني، ج ٨، ص ١٦٥.

إن جوهر كل شيء وعنصره يسمى مرة. وبما أن الشخص قد يكون ذا قوة ظاهرية من دون قوة حقيقية، فلزم الأمر بيان أن جبرائيل عليه السلام أوتي قوة ظاهرية، ويمتاز بقوة حقيقية. ولذلك جاءت كلمة ﴿فَاسْتَوَى﴾؛ أي فتكامل من حيث تمتعه بشكلي القوة، ووصل إلى تلك المرحلة التي تؤهله لأن يكون أميناً على الوحي.

نعم؛ إن من أسلوب القرآن المجيد في آياته الكريمة، أنه قد يتحدث عن شيئين، وفي النهاية يتحولان إلى شيء واحد.. حيث نجده يتحدث أولاً عن الرسول، ثم يثني الكلام عن الله سبحانه وتعالى، ثم يورد الضمير مفرداً، بينما كان يتوقع له أن يأتي بصيغة الثنية، كقوله تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ١٠١﴾ يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُونُوا إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ١٠٢﴾ وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ١٠٣﴾^(١).

فالحديث ورد في البداية عن الرسول، ثم عن الكتاب، ثم تحول إلى الله سبحانه وتعالى، ثم عن حبل الله.. فكان في البداية بصيغة الثنية، ثم تحول إلى المفرد، واستمر في المفرد.

وبهذا التعبير المبارك يُبَصِّرنا القرآن بحقيقة هامة، وهي أن كتاب الله بلا رسول لا يعني شيئاً. وأن من قال: «حسبنا كتاب الله»، كان يعرف هذه الحقيقة؛ لأنه كان كل هدفه إمامة الوحي وواد الدين منذ مراحل الأولى. بينما استمرارية الدين تقتضي تصور اندماج حقيقي بين القرآن والرسول.

والسؤال المهم هنا هو: هل أن الرسول الأعظم ﷺ تلقى

(١) سورة آل عمران، آية ١٠١-١٠٣.

الوحي من الله أو من جبرائيل؟

نحن نؤمن إيماناً قاطعاً بأن الرسول قد تلقى الوحي من الله تعالى بواسطة جبرائيل عليه السلام؛ أي إن جبرائيل لم يكن إلا واسطة أمينة.

وجبرائيل قد يكون مؤيداً بروح القدس، الذي هو أعظم مَنْ خَلَقَ اللهُ مِنَ الملائكة. ولعل من يقرأ القرآن المجيد مُتَجَرِّداً عن حجب الجهل والهوى يلتقي قلبه بروح القدس.

وتأييد الروح لجبرائيل يُرْسَخُ عصمته، وهي العصمة المكتسبة من الله تعالى.

إن نزول الوحي على رسول الله ﷺ كان ليتم تارة دون واسطة، وأخرى بواسطة، شأنه في ذلك شأن خلقه الله تعالى للبشر، حيث خلق الله أبانا آدم عليه السلام مباشرة، إذ قال له: (كن) فكان، بينما خلق ذريته عبر الأنساب.

وهكذا تجد السياق تارة -في أفق نزول الوحي- مع جبرائيل، بينما تجده في أفق آخر من عند الله تعالى مباشرة. وقوة جبرائيل الشديدة -ظاهراً وباطناً- من الله عز اسمه.

وكذلك نؤمن بالملائكة جميعاً وبجبرائيل خصوصاً، فهو الأمين على وحي الله. وهكذا يطهر القلب من أية وسوسة شيطانية تجاهه، لأنه مَلَكٌ يفعل ما يؤمر، ومؤيد بتأييد الله.

وإن هذا الاستواء الذي تميز به الأمين جبرائيل يتناقض كلياً مع فكرة اليهود المعادية لجبرائيل عليه السلام، التي هي وسوسة شيطانية وقد اقتبست من الفلسفة الإغريقية التي زعمت إن في السماء آلهة متصارعين. وهذه الأفكار كفر بالله جبار السماوات والأرض، وهي

عند اليهود كانت مواجهة - في حقيقة الأمر - إلى الله عز وجل، الذي انتقم من اليهود في بعض الأوقات بعد ما بدا منهم الفساد والكفر والحرب ضد الرسل.

بصائر وأحكام

إن جبرائيل عليه السلام يملك قوة ظاهرية من جانب، ويمتاز بقوة باطنية حقيقية، وبذلك تكامل من حيث تمتعه بشكلي القوة، ووصل إلى تلك المرحلة التي تؤهله لأن يكون أميناً على الوحي، وعلينا الإيمان به كما الإيمان بسائر الملائكة.



وهو بالأفق الأعلى

﴿وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى ۖ﴾ (٧)

من الحديث

قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «وَأَمَّا الرَّدُّ عَلَى مَنْ أَنْكَرَ الْمِعْرَاجَ، فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى﴾ (٧) ثُمَّ دَنَا فَنَدَى (٨) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى (٩) فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى ﴿ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى﴾ (١٠)» (١).

تفصيل القول

البعض فسر مصطلح (الأفق الأعلى) بالمشرق، فقالوا: المشرق

(١) بحار الأنوار، الشيخ محمد باقر المجلسي، ج ١٨، ص ٢٩١.

هو الأفق الأعلى، والمغرب هو الأفق الأدنى، باعتبار شروق الشمس من ناحية المشرق وغروبها من ناحية المغرب. ويمكن القول بصحة هذا القول بالنظر إلى كون غار حراء متجهة فتحته إلى ناحية المشرق دون المغرب، فظهر له جبرائيل عليه السلام حينما طلب منه النبي ﷺ بالتمثل على حقيقته العظمى، فرآه النبي قد ملأ الأفق.

ولكن التفسير الآخر يؤكد أن الأفق الأعلى ليس هو العلو المكاني، إذ المكان لا علاقة له بحقيقة الوحي؛ لأن الوحي من الله تعالى، والله لا يحده مكان، بل إننا نعلم اليوم خطأ تحديد الأعلى والأسفل في الكرات. فالأرض مثلاً تسبح في فضاء تحوط به السماء، فلا أعلى وأسفل لها حقيقة.

وعلى هذا؛ نتساءل ما المقصود بالأفق الأعلى؟.

الجواب: إنه أفق الوحي، وما به التواصل مع رحاب الرب سبحانه، فيستل علوه من علو الله على خلقه، لا سيما وأن التعبير هنا لم يرد بصيغة العالي مقابل الداني، بل جاء بمفردة الأعلى مقابل الأدنى، حيث إن الله أعلى وأكبر من أن يُقاس أو يُقرن بتصور، في مقابل الأدنى الذي لا يصح أن يُقرن بما هو الأعلى.

ونحن نعبّر بالأفق لبيان الجهة الظاهرية العالية كما أفق الشمس التي تشرق من الأعلى، كذلك أفق الوحي حيث تشرق شمس المعرفة على الرسول الأعظم ﷺ، فكان الوحي فوق كل شيء، وفوق كل معرفة، بل إن جبرائيل عليه السلام قد تحقق له الكمال حين أوكل بمهمة إيصال الوحي إلى شخص هو سيد الخلائق أجمعين؛ أي الرسول الأكرم ﷺ، فأصبح بذلك ذا قوة وشدة واستواء.

بصائر وأحكام

إن الوحي قد أشرق من أعلى أفق على النبي ﷺ. ذلك الأفق
الذي سما على كل شيء، وفوق كل معرفة، فلا يدنو منه ريب، ولا
يرقى إليه أي علم.



ثم دنا فتدلى

﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى﴾

من الحديث

قال الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام في قول الله تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى﴾ ^(٨) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ﴿﴾: «قَالَ ذَاكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ دَنَا مِنْ حُجُبِ النُّورِ، فَرَأَى مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ، ثُمَّ تَدَلَّى ﷺ فَنَظَرَ مِنْ تَحْتِهِ إِلَى مَلَكُوتِ الْأَرْضِ حَتَّى ظَنَّ أَنَّهُ فِي الْقُرْبِ مِنَ الْأَرْضِ كَقَابِ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى» ^(١).

(١) الأُمالي، الشيخ الصدوق، ص ٢١٣.

تفصيل القول

من هو الذي دنا؟.

سياق الآيات منذ بدايتها يؤكد أن الفاعل في فعل الدنو هو شخص رسول الله ﷺ.

فالوحي بأرقى صورته، وأكمل رسالته، وأعلى أفضقه قد هبط على النبي الأعظم ﷺ، مما أهله أن يدنو. ولكن الدنو هنا ليس دنوًّا ماديًّا، إذ الله عز وجل لا يختزله مكان، ولا ينحصر في زمان، حتى يكون الدنو منه دنوًّا ماديًّا.

وحيث نريد الاستيحاء من مفاهيم سورة النجم المباركة نجد أنفسنا مضطرين إلى مراجعة بعض النصوص القرآنية الخاصة بالحديث عن سيرة النبي موسى بن عمران عليه السلام.

فنقرأ مثلاً: ﴿وَنَدَيْتُهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيبًا﴾^(١)، إذ قرَّبه الله وجعله مناجيه على وجه الاستمرار، إذ صار النبي موسى عليه السلام -بفضل الله- مؤهلاً للمناجاة الدائمة. وهكذا القرب هنا ليس قرباً ماديًّا، وإنما هو سمو معنوي.

حيث يقول تعالى: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى﴾^(٥) ذُومِرَةً فَاَسْتَوَى^(٦) وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى^(٧) ثُمَّ دَنَا فَدَلَّكَ. فالوحي أشبه ما يكون بحبل متصل متين غير متقطع؛ فارتقى النبي به إلى أعلى درجات الكمال، وارتفع بدنوه الروحي إلى أسمى السمو، بالوحي الإلهي والقرب الرباني الذي لم يحظ به أحد من العالمين. وهذا الدنو المعنوي لم يقطعه عن المخلوقين،

(١) سورة مريم، آية ٥٢.

ولم يباعده منهم، بل إنه تدلى إليهم ليقوم بإبلاغ وحي الله. وهكذا فهو -كما القرآن- الحبل المتين والعروة الوثقى، طرف بيد الرب وطرف عند العبد، إن شاء توسل به وارتقى به في معارج الكمال.

ولكن يُخطئ من يظن حصول الاتحاد بين الرب والرسول، وإنما الدنو هذا دنو المخلوق من الخالق ليس إلّا، لأن من المحال أن يحصل فناء للمخلوق بخالقه. إنه في غاية الخطأ، بل هو الشرك بعينه، حيث إن الله تعالى هو الله، والمخلوق يبقى هو المخلوق أنى اقترب من مقام خالقه.

بصائر وأحكام

الوحي بأرقى صورته، وأكمل معانيه، وأعلى أفاقه قد هبط على النبي الأعظم ﷺ، مما أهله أن يدنو. ولكن الدنو هنا ليس دنواً مادياً، إذ الله عز وجل لا يختزله مكان، ولا ينحصر في زمان، حتى يكون الدنو منه دنواً مادياً. وقد تدلى به الرسول بعد ليكون العروة الوثقى التي يتمسك به عباد الله الصالحون ليعرجوا إلى قرب ربهم.



فكان قاب قوسين أو أدنى

﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾.

من الحديث

عن فاطمة الزهراء عليها السلام قالت: «قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: لَمَّا عُرِجَ بِي إِلَى السَّمَاءِ صِرْتُ إِلَى سِدْرَةِ الْمُنتَهَى، ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾، فَأَبْصَرْتُه بِقَلْبِي، وَلَمْ أَرَهُ بِعَيْنِي»^(١).

هذه الرواية ينقلها المجلسي عن إرشاد القلوب، والنص في المصدر يختلف عما في البحار، وهو أكثر متانة ودقة، فنقلناها من المصدر الأصلي.

وفي إرشاد القلوب، عن موسى بن جعفر، عن آبائه، عن أمير

(١) تفسير فرات الكوفي، الشيخ فرات بن إبراهيم الكوفي، ص ٣٤٢.

المؤمنين عليه السلام، في خبر اليهودي الذي سأل أمير المؤمنين عليه السلام عن فضائل نبينا ﷺ، قال: «ثُمَّ عُرِجَ بِهِ حَتَّى انْتَهَى بِهِ إِلَى سَاقِ الْعَرْشِ، وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَدَلَّى﴾ وَدُلِّيَ لَهُ رَفْرَفٌ أَخْضَرَ غَشِيَ عَلَيْهِ نُورٌ عَظِيمٌ، حَتَّى كَانَ فِي دُئُوهِ كَقَابِ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى، وَهُوَ مِقْدَارُ مَا بَيْنَ الْحَاجِبِ إِلَى الْحَاجِبِ»^(١).

وقال الإمام محمد الباقر عليه السلام في قول الله تعالى ﴿فَكَانَ قَابِ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾: «كَانَ بَيْنَ لَفْظِهِ وَبَيْنَ سَمَاعِ مُحَمَّدٍ كَمَا بَيْنَ وَتَرِ الْقَوْسِ وَغُودِهَا»^(٢).

وقال الإمام جعفر الصادق عليه السلام عن منزلة رسول الله ﷺ: «كَانَ أَقْرَبَ الْخَلْقِ إِلَى اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ﷺ وَكَانَ بِالْمَكَانِ الَّذِي قَالَ لَهُ جَبْرَيْلٌ لَمَّا أُسْرِيَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ: تَقَدَّمَ يَا مُحَمَّدُ، فَقَدْ وَطِئَتْ مَوْطِئًا لَمْ يَطَّاهُ مَلَكٌ مُقَرَّبٌ وَلَا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ. وَلَوْلَا أَنَّ رُوحَهُ وَنَفْسَهُ كَانَتْ مِنْ ذَلِكَ الْمَكَانِ لَمَا قَدَرَ أَنْ يَبْلُغَهُ. فَكَانَ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ كَمَا قَالَ اللَّهُ: ﴿فَكَانَ قَابِ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾؛ أَي بَلْ أَدْنَى»^(٣).

تفصيل القول

كان القوس من مميزات الفارس المقاتل، وكان الفرسان والمقاتلون يحملون قسيهم حين الحرب ونشوب القتال، مما يدفع بهم إلى التباعد ضمن فاصلة معقولة ليحصل الترامي بالنبال. ولكنهم حين يتسالمون ويتصالحون، فيحملون قسيهم، فتصير قريبة إلى بعضها.

(١) ارشاد القلوب إلى الصواب، ج ٢، ص ٤٠٩.

(٢) تفسير القمي، الشيخ علي بن إبراهيم القمي، ج ٢، ص ٣٣٤.

(٣) تفسير القمي، الشيخ علي بن إبراهيم القمي، ج ١، ص ٢٤٦.

ولهذا يضرب المثل للإشارة إلى حالة القرب حين يلتقي القوسان بقايبهما، وهكذا يكونون في تلك الحالة متقاربين، ولا يفصلهم سوى القوس الذي لا بد منه.

وعلى هذا؛ فقد بقي - بهذا التشبيه - الفاصل بين النبي والله، إلا أن دنوه صار أقرب ما يمكن أن يكون.

ولم يرض السياق بأن يصف حالة القرب بما بين فردين، وإنما أضاف بكلمة ﴿أَوْ أَدْنَى﴾، لأن الدنو الظاهري قد لا يعكس دنوًا معنويًا، كما قد يقترب المقاتلان إلى حالة ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ﴾ مع وجود التباين المعنوي لديهما.

لكن اقتراب النبي الأكرم ﷺ كان قاب قوسين أو أدنى، وهذا أقرب وأسمى من مستوى النبي موسى ﷺ، الذي قال عنه رب العزة: ﴿وَنَدِينَهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَفَرِّقْنَاهُ نَحْيًا﴾^(١). فموسى ﷺ - مع سمو درجته وجلالة نبوته - لم يبلغ مستوى الدنو الأدنى المحمدي.

بصائر وأحكام

إن رسول الله ﷺ هو الأوحد من بين جميع الخلائق، من حيث تشرفه بالوصول إلى مقام القرب الإلهي بأبهى وأكمل صورته.

(١) سورة مريم، آية ٥٢.



فأوحى إلى عبده ما أوحى

﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ ﴿١٠﴾

من الحديث

قال الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام في قول الله تعالى:
﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾: «وَحْيٌ مُّشَافَهَةٌ»^(١).

وقال الإمام محمد الباقر عليه السلام في قول الله تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾: «فَسُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ ذَلِكَ الْوَحْيِ، فَقَالَ أَوْحِيَ إِلَيَّ أَنَّ عَلِيًّا سَيِّدُ الْوَصِيِّينَ، وَإِمَامُ الْمُتَّقِينَ، وَقَائِدُ الْغُرِّ الْمُحَجَّلِينَ وَأَوَّلُ خَلِيفَةٍ يَسْتَخْلِفُهُ خَاتَمُ النَّبِيِّينَ»^(٢).

(١) تفسير القمي، الشيخ علي بن إبراهيم القمي، ج ٢، ص ٣٣٤

(٢) تفسير القمي، الشيخ علي بن إبراهيم القمي، ج ٢، ص ٣٣٤.

تفصيل القول

حينما اقترب النبي محمد ﷺ بسبب لطف الخالق سبحانه وتعالى وتأيبه وضيافته له، ووصل إلى مقام القرب؛ ذلك المقام الأسمى، ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾، هنالك جاء الوحي وتشرف النبي ﷺ به. ولكن ماذا كان الوحي وبأي خصوص؟

هنا يُوجز القرآن الكريم كلمة الجواب، فيقول: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾.

فهل إن عبارة ﴿مَا أَوْحَىٰ﴾ للدلالة على أن الوحي غير معروف؟ أو لم يُرد له أن يُعرف؟

هنالك تفسيران لهذه الكلمة:

الأول: أن ﴿مَا﴾ لبيان التفخيم، إذ أوحى الله تعالى لعبده ما تعجز العقول عن إدراك كنهه. فهو -إذاً- وحي خاص بين الله وعبده، فلا يسهل الناس معرفته، لأنه في مقام أسمى وأعلى من مقامهم. وهذا مثل قوله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ﴾^(١)، وقوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ وَمَا بَنَاهَا﴾^(٢).

فهذه الكلمة تأتي للتعظيم والتفخيم، وفيها إشارات إلى الآفاق البعيدة والعميقة.

التفسير الثاني: أن ﴿مَا﴾ للإطلاق، وليس لمجرد التفخيم، باعتبار أن ربنا المتعال قد أوحى إلى نبينا كل ما يمكن أن يوحى، وعلمه كل ما يمكن تعليمه لمخلوقه الأرقى والأفضل والأشرف.

(١) سورة القدر، آية ٢.

(٢) سورة الشمس، آية ٥.

ولعل هذا الوحي هو جوهر القرب الإلهي من عبده المصطفى ﷺ .
ومن هذا الباب قول أمير المؤمنين عليه السلام : «عَلَّمَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَلْفَ بَابٍ مِنَ الْعِلْمِ، فَفَتَحَ لِي مِنْ كُلِّ بَابٍ أَلْفَ بَابٍ»^(١)، وذلك حينما كان اللقاء الأخير في الحياة الدنيا بين الرسول الأعظم وسيد أوصيائه صلوات الله عليهم أجمعين، فنقل إليه في لحظات ذلك اللقاء -والله أعلم كم استغرقت بمقياس الزمن- موسوعات علمية هي أعظم مما يتصور البشر، بل ومما يقدرُونَ على تصوره. والمهم أن نُسلِّم بهذه الحقيقة لثقتنا التامة بصدق أمير المؤمنين عليه السلام، دون أن ندرك أسرار الانتقال ذاك وكيفيته.

بل؛ كان الوحي في البدء عبر جبرائيل عليه السلام، ثم اختار الرب لنبيه ﷺ -كما هو المعهود حين خلقه من نوره واصطفاه من بين خلقه الذين خلقهم فيما بعد- الاقتراب الأسمى، فأوحى إلى عبده ما شاء أن يُوحى .
وكلمة ﴿أَوْحَى﴾ حيث الفاعل مذكور أسمى دلالة مما جاء في قول الله تعالى: ﴿قُلْ أَوْحَى إِلَيَّ﴾^(٢)، إذ الوحي هنا جاء من عند الرب بصورة مباشرة.

بصائر وأحكام

بلطف الله وتأنيده صار رسول الله ﷺ يتلقى الوحي من الله تعالى مباشرة وفي كل ما يمكن أن يُوحى .

(١) الفضائل، شاذان بن جبرئيل القمي، ص ١٠٢ .

(٢) سورة الجن، آية ١ .



ما كذب الفؤاد ما رأى

﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ (١١)

من الحديث

عن صفوان بن يحيى قال: «سألني أبو قرّة المحدث أن أدخله على أبي الحسن الرضا عليه السلام، فاستأذنته في ذلك فأذن لي، فدخل عليه فسأله عن الحلال والحرام والأحكام، حتى بلغ سؤاله إلى التوحيد، فقال أبو قرّة: إننا رؤينا أن الله قسم الرؤية والكلام بين نبيين؛ فقسم الكلام لموسى، ولمحمد الرؤية.

فقال أبو الحسن عليه السلام: فمن المبلغ عن الله إلى الثقلين من الجن والإنس: ﴿لَا تَدْرِكُهُ الْبَصَرُ﴾^(١)، ﴿وَلَا يَحِيطُونَ بِهِ﴾^(٢)،

(١) سورة الأنعام، آية ١٠٣

(٢) سورة طه، آية ١١٠

و﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾^(١)، أَلَيْسَ مُحَمَّدٌ؟ قَالَ: بَلَى، قَالَ: كَيْفَ يَحْيَى رَجُلٌ إِلَى الْخَلْقِ جَمِيعاً فَيُخْبِرُهُمْ أَنَّهُ جَاءَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَ أَنَّهُ يَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ بِأَمْرِ اللَّهِ، فَيَقُولُ: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾، ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً﴾، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا رَأَيْتُهُ بِعَيْنِي وَأَحْطْتُ بِهِ عِلْماً وَهُوَ عَلَى صُورَةِ الْبَشَرِ؟! أَمَا تَسْتَحْشِرُونَ؟ مَا قَدَرْتَ الزَّادِقَةَ أَنْ تَرْمِيَهُ بِهَذَا أَنْ يَكُونَ يَأْتِي مِنْ عِنْدِ اللَّهِ بِشَيْءٍ، ثُمَّ يَأْتِي بِخِلَافِهِ مِنْ وَجْهِ آخَرَ. قَالَ أَبُو قُرَّةَ: فَإِنَّهُ يَقُولُ: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾^(٢).

فَقَالَ أَبُو الْحَسَنِ عليه السلام: إِنْ بَعْدَ هَذِهِ الْآيَةِ مَا يَدُلُّ عَلَى مَا رَأَى حَيْثُ قَالَ: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾^(٣)، يَقُولُ: مَا كَذَبَ فُؤَادُ مُحَمَّدٍ مَا رَأَتْ عَيْنَاهُ. ثُمَّ أَخْبَرَ بِمَا رَأَى، فَقَالَ: ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾^(٤). فَأَيَّاتُ اللَّهِ غَيْرُ اللَّهِ^(٥).

وروي عن محمد بن الفضيل قال: «سألت أبا الحسن عليه السلام: هل رأى رسول الله ﷺ ربه عز وجل؟

فقال: نَعَمْ؛ بَقْلَبِهِ رَأَاهُ. أَمَا سَمِعْتَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾؟ لَمْ يَرَهُ بِالْبَصَرِ، وَلَكِنْ رَأَاهُ بِالْفُؤَادِ»^(٦).

تفصيل القول

نفهم من السياق القرآني المتضمن للمعاني البليغة الدالة على

(١) سورة الشورى، آية ١١.

(٢) سورة النجم، آية ١٣.

(٣) سورة النجم، آية ١١.

(٤) سورة النجم، آية ١٨.

(٥) الكافي، الشيخ الكليني، ج ١، ص ٩٦.

(٦) التوحيد، الشيخ الصدوق، ص ١١٦.

عظمة الوحي الذي أوحاه الله تعالى لرسوله الكريم ﷺ، وهو الوحي الأعظم على الإطلاق، أن الوحي الذي تلقاه كان كمثل الرؤية، وأن رؤية النبي للوحي كانت أعظم من جميع الأنبياء، إذ رؤيته تدل على الشمول دون النبي موسى ﷺ الذي لم ير، وإنما كُلَّم، والكلمة معناها الجزء.

ماذا رأى النبي؟

لقد رأى رؤية حقيقية شاملة، إذ لم يكذب الفؤاد بهذه الرؤية، إشارة إلى تأييد روح النبي وعقله لما رأى، باعتبار أن عقله ﷺ وجوهه المقدس هيمنا عليه بصدق الرؤية، لأن علمه بلغ مستوى عين اليقين.

وعين اليقين يعني وصول الإنسان بكل جوارحه وجوانحه إلى الحقيقة حال كمالاتها.

بل إن القضية - حسب تصوري - أعلى من ذلك وأسمى. فالوحي بالنسبة إلى الأنبياء عموماً، ونبينا المصطفى ﷺ خصوصاً يصل إلى درجة تغيير نوعي في شخصية الموحى إليه. وهكذا فإن الوحي الذي ينتزل على الأنبياء ﷺ قد لا يحتمله أحد.

ومن هنا ورد في الحديث الشريف عن الإمام جعفر الصادق ﷺ أنه قال: «مَا كَلَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْعِبَادَ بِكُنْهِ عَقْلِهِ قَطُّ»^(١).

إذن؛ فمقام العلم المتوفر عند رسول الله ﷺ تحار فيه العقول. وهذا تحوُّل نوعي يستعصي على الطبيعة البشرية العادية، وإلا كيف يتحمل الإنسان ذلك الثقل الرباني المسمّى بالوحي؟

(١) الكافي، الشيخ الكليني، ج ١، ص ٢٣.

ومن هنا نجد في القصة المعروفة أن همّام رضوان الله تعالى عليه، وكان من أصحاب الإمام علي عليه السلام، لم يتحمل كلمة أمير المؤمنين عليه السلام التي وصف بها المتقين حتى شهق وفارق الحياة، بينما أمير المؤمنين عليه السلام نفسه كان يعيش ما يفوق ما بينه لهّام، ولكنه استوعب الحقائق لأنه قد بلغ أعلى درجات الكمال.

رؤية الرسول الأكرم للوحي

إن الجدل الذي مارسه الجاهليون حول الرسالة، ولا يزال يُمارَس من قبل الكثيرين ممن لا يُحيطون علماً بشيء من حقائق الوحي، هذا الجدل هو في الواقع حجاب سميك حال بينهم وبين الحقائق الكبرى، وهكذا حال أيضاً بينهم وبين الإيمان.

وكان يمكنهم القول على أبعد تقدير: إنهم لا يعلمون أن المصطفى ﷺ رسول، نظراً لما يعتورهم من الجهل، ولكن مرأهم كان نابعاً عن الجهل المركب، حيث إنهم جهلوا الحقيقة، وجهلوا أيضاً جهلهم بها.

بصائر وأحكام

الوحي بالنسبة إلى الأنبياء عموماً، ونبينا المصطفى ﷺ خصوصاً، يصل إلى درجة تغيير نوعي فيهم. وهكذا فإن الوحي الذي ينتزل على الأنبياء قد لا يحتمله أحد.



أفتمارونه على ما يرى

﴿أَفْتَمُرُونَهُ، عَلَى مَا يَرَى﴾ ﴿١٢﴾.

تفصيل القول

﴿أَفْتَمُرُونَهُ﴾: أي تُجادلونه ﴿عَلَى مَا يَرَى﴾ وتُنكرون عليه يقينه بسبب أنكم لا ترون مثله، وهو الذي يرى الحقائق بكل وجوده.

وحسب تصورنا، فإن هذه الآية المباركة أكثر شمولاً من الآية السابقة لها، إذ الرؤية هنا تدل على الشيء الحاضر كما تدل على الاستمرار، كدليل على سلامة ما يرى، لأن تكرار الرؤية تنفي كل احتمالات الخطأ فيما يرى.

بصائر وأحكام

النبي ﷺ یرى الحقائق بكل وجوده، أما الذین یُنکرون علیه یقینه، یُجادلونه علی ما یراه باستمرار. (فکیف یتَرک یقینه لشکھم)؟



ولقد رآه نزلة أخرى

﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ ﴿١٣﴾

تفصيل القول

كان من المفروض - حسب الظاهر - أن يأتي القول بعبارة:
صعدةً أخرى، لأنه ﴿وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى﴾^(١)، ولكن وقع الاختيار على
كلمة ﴿نَزْلَةً﴾، لماذا؟

قد يقال: إن النبي ﷺ رأى جبرئيل حينما نزل إلى الأرض مرةً
أخرى، باعتبار أن جبرئيل ينزل من السماوات العلى إلى الأرض لينقل
الوحي للرسول.

وقد يقال: إن النبي ﷺ وصل خلال المعراج في المرحلة

(١) سورة النجم، آية ٧.

..... | ولقد رآه نزلةً أخرى |

الأولى إلى السماء السابعة، وبلغ العرش، ثم نزل إلى السماء الرابعة،
فرأى هناك جبرائيل عليه السلام مرة أخرى.



بصائر وأحكام

إن تكرار الرؤية برهان على صدقها، فكيف يمارونه فيها؟



عندها جنة المأوى

﴿عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى ⑭ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى ⑮﴾ إِذْ يَغْشَى
السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى ⑮ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى ⑮ ﴿

من الحديث

قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «وأما قوله: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَى ⑮﴾ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى ﴿يَعْنِي مُحَمَّدًا صلى الله عليه وآله وسلم﴾ حِينَ كَانَ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى، حَيْثُ لَا يُجَاوِزُهَا خَلْقٌ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ»^(١).

وفي كتاب علل الشرائع، باسناده إلى حبيب السجستاني، قال:
قال أبو جعفر عليه السلام: «يَا حَبِيبُ؛ ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَى ⑮﴾ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى ⑮﴾ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى ﴿يَعْنِي عِنْدَهَا وَافَى بِهِ جَبْرَائِيلُ حِينَ صَعِدَ إِلَى السَّمَاءِ. قَالَ: فَلَمَّا انْتَهَى إِلَى مَحَلِّ السِّدْرَةِ وَقَفَ جَبْرَائِيلُ دُونَهَا وَقَالَ: يَا

(١) التوحيد، الشيخ الصدوق، ص ٢٦٣.

مُحَمَّدٌ؛ إِنَّ هَذَا مَوْقِفِي الَّذِي وَضَعَنِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيهِ، وَلَنْ أَقْدِرَ عَلَى أَنْ أَتَقَدَّمَ، وَلَكِنْ امْضِ أَنْتِ أَمَامَكَ إِلَى السُّدْرَةِ فَوْقَ عِنْدَهَا.

قَالَ: فَتَقَدَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى السُّدْرَةِ وَتَخَلَّفَ جَبْرِئِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ: إِنَّمَا سُمِّيَتْ سِدْرَةُ الْمُنْتَهَى لِأَنَّ أَعْمَالَ أَهْلِ الْأَرْضِ تَصْعَدُ بِهَا الْمَلَائِكَةُ الْحَفَظَةُ إِلَى مَحَلِّ السُّدْرَةِ، وَالْحَفَظَةُ الْكَرَامُ الْبَرَّةُ دُونَ السُّدْرَةِ يَكْتُبُونَ مَا تَرْفَعُ إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ مِنْ أَعْمَالِ الْعِبَادِ فِي الْأَرْضِ.

قَالَ: فَيَتَّهِنُونَ بِهَا إِلَى مَحَلِّ السُّدْرَةِ.

قَالَ: فَنَظَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَرَأَى أَغْصَانَهَا تَحْتَ الْعَرْشِ وَحَوْلَهُ.

قَالَ: فَتَجَلَّى لِمُحَمَّدٍ ﷺ نُورُ الْجَبَّارِ عَزَّ وَجَلَّ، فَلَمَّا غَشِيَ مُحَمَّدًا ﷺ النُّورُ شَخَّصَ بَصَرَهُ وَازْتَعَدَتْ فَرَائِصُهُ.

قَالَ: فَشَدَّ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِمُحَمَّدٍ قَلْبَهُ، وَقَوَّى لَهُ بَصَرَهُ، حَتَّى رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ مَا رَأَى، وَذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ ۚ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ۖ﴾. قَالَ: يَعْنِي الْمَوَافَاةُ^(١).

وقال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عَلَيْهِ السَّلَامُ: «عَلَيْكُمْ بِلِزُومِ الْيَقِينِ وَالتَّقْوَى، فَإِنَّهُمَا يُبَلِّغَانِكُمْ جَنَّةَ الْمَأْوَى»^(٢).

وقال عَلَيْهِ السَّلَامُ: «صَاحِبِ الْحُكَمَاءِ، وَجَالِسِ الْحُلَمَاءِ، وَأَعْرِضْ عَنِ الدُّنْيَا، تَسْكُنْ جَنَّةَ الْمَأْوَى»^(٣).

وقال عَلَيْهِ السَّلَامُ أَيْضًا: «إِنَّ مَنْ بَاعَ جَنَّةَ الْمَأْوَى بِعَاجِلَةِ الدُّنْيَا، تَعَسَّ

(١) علل الشرائع، الشيخ الصدوق، ج ١، ص ٢٧٨.

(٢) غرر الحكم ودرر الكلم، الشيخ الأمدي، ص ٢٧١، حديث رقم ٥٩٣٠.

(٣) غرر الحكم ودرر الكلم، الشيخ الأمدي، ص ٤٣٠، حديث رقم ٩٧٨٩.

جُدُّهُ وَخَسِرَتْ صَفْقَتُهُ»^(١).

وروي عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام في قول الله تعالى: ﴿إِذْ يَعْنَى السِّدْرَةَ مَا يَعْنَى﴾ قال: «النَّبِيُّ ﷺ لَمَّا أُسْرِيَ بِهِ إِلَى رَبِّهِ قَالَ: وَقَفَ بِي جَبْرَائِيلُ عِنْدَ شَجَرَةٍ عَظِيمَةٍ لَمْ أَرِ مِثْلَهَا؛ عَلَى كُلِّ غُصْنٍ مِنْهَا مَلَكٌ، وَعَلَى كُلِّ وَرْقَةٍ مِنْهَا مَلَكٌ، وَعَلَى كُلِّ ثَمَرَةٍ مِنْهَا مَلَكٌ، وَقَدْ تَجَلَّلَهَا نُورٌ مِنْ نُورِ اللَّهِ تَعَالَى. فَقَالَ جَبْرَائِيلُ: هَذِهِ سِدْرَةُ الْمُنْتَهَى، كَانَ يَنْتَهِي الْأَنْبِيَاءُ قَبْلَكَ إِلَيْهَا، ثُمَّ لَا يُجَاوِزُونَهَا، وَأَنْتَ تَجُوزُهَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لِرَبِّكَ مِنْ آيَاتِهِ الْكُبْرَى. فَاطْمَنَ أَيْدِكَ اللَّهُ بِالثَّبَاتِ، حَتَّى تَسْتَكْمَلَ كِرَامَاتِ اللَّهِ»^(٢).

تفصيل القول

١ - ﴿عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى﴾

ذكر المفسرون في شرح هذه الكلمات الشريفة أموراً كثيرة، ومن الصعب التأكد من حقائقها إلا بقدر ما ورد في أحاديث النبي ﷺ وأهل بيته عليهم السلام، والذي سبق الحديث عنه آنفاً، إلا أننا بحاجة إلى بيان بصيرة هامة:

قد يكون عدم بيان القرآن الكريم بالتفصيل عن قضية ما يدعونا إلى السكوت عنها، وعدم الخوض فيما لا نعلم منها، والاكتفاء بما ورد في النص؛ مثلاً نكتفي بأن هناك سدرة المنتهى وجنة المأوى.

أما أقوال بعض المفسرين ففيها ما لا يمكن الاعتماد عليها، لا سيما مع ملاحظة تسرّب العديد من خرافات اليهود إلى وسط المسلمين، ممّا يفرض علينا لزوم التأكد من كل كلمة بهذا الصدد، إذ إن تفسير القرآن

(١) غرر الحكم ودرر الكلم، الشيخ الأمدي، ص ١٣٠، حديث رقم ٢٢١٩.

(٢) بحار الأنوار، الشيخ محمد باقر المجلسي، ج ٣٦، ص ١٦٢.

لا يقل أهمية عن الأحكام الشرعية التي يجب التأكد منها بكل دقة.
ومع ذلك، وبالنظر إلى الروايات المعتبرة الواردة بهذا الخصوص، يمكننا القول: إن ثمة مكاناً يُسمَّى بسدرة المنتهى، ترمز إلى نهاية ما يمكن للإنسان الوصول إليه.

٢- ﴿عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى﴾

ما هذه الجنة التي يأوي إليها من يأوي؟
لا نستطيع التأكد أيضاً من التفاصيل التي جاءت على لسان بعض المفسرين من أنها مأوى أرواح الشهداء، وهي التي كان آوى إليها آدم عليه السلام؛ إنما يكفينا أن نستوعب أبعاد الموقع الرفيع، حيث السدرة المنتهى إليها من البعد المكاني، وجنة المأوى التي يخلد فيها من يخلد من البعد الزماني. والله العالم.

٣- ﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى﴾ (١٦) ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾

وحينما نخبرنا القرآن المجيد قائلاً: ﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى﴾ مع الآية التالية: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾، نكتشف أن هناك شيئاً ما غشي السدرة فسيطر واستولى عليها، فهل هي هيبة الله؟ أم هي نور الله وعلامته؟ أم علمه؟ أم إرادته؟

بصائر وأحكام

إن في كل آية من آيات الله جانباً غيبياً، وعلينا أن نؤمن به دون ممارسة، وجهلنا بالتفاصيل لا يُبرر التشكيك فيه أو أن نفسره بما لا علم لنا به.



لقد رأى من آيات ربه الكبرى

﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ (١٨)

من الحديث

روي عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام في حديث يقول فيه: «وَقَوْلُهُ فِي آخِرِ الْآيَةِ: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ (١٧) لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى»، رأى^(١) جبرئيل عليه السلام في صورته مرتين؛ هذه المرة، ومرة أخرى. وذلك أَنَّ خَلَقَ جَبْرَائِيلَ عَظِيمًا، فَهُوَ مِنَ الرُّوحَانِيِّينَ الَّذِينَ لَا يُدْرِكُ خَلْقَهُمْ وَصِفَتَهُمْ إِلَّا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ»^(٢).

تفصيل القول

لنعرف -بادئ ذي بدء- أن الآية شيء عظيم، وهي ذات أهمية

(١) أي أن رسول الله ﷺ رأى جبرئيل حسب سياق الحديث.

(٢) التوحيد، الشيخ الصدوق، ص ٢٦٣.

بالغة، لماذا؟

لأنها تدلنا على ربنا المتعال.

وفي آفاق الكون، وهكذا في أنفسنا (حياتنا، وموتنا، وكل ما يدور في واقعنا) آيات تهدينا إلى ربنا.

وإذا تعمقنا أكثر، وجدنا أن تلك الآيات تعكس أسماء الله الحسنى، إذ تهدينا الآية إلى علم الله أو قدرته أو رحمته أو غير ذلك.

ولأن أسماء الله تعالى عبارة عن أنوار ربانية، فإن النور في هذا المفهوم يعني ما لا حجم له ولا وزن ولا تشكّل. فعندما نتحدث عن نور العظمة أو نور القدرة أو نور الرحمة.. فإن هذا النور يعني ما هو الأكثر تجرّداً، والأكثر ظهوراً. ولعل هذا هو ما رآه النبي عند سدرة المنتهى، وهو من أعظم وأكبر الآيات - كما أشارت إلى هذا المعنى روايات المعراج - حيث جاء في حديث النبي ﷺ أنه قال: «قَدْ رَأَيْتُ نُوراً»^(١).

وإذا كان النبي إبراهيم عليه السلام رأى كيف يُحيي الله الموتى، فاطمأن قلبه الطاهر، وإذا كان النبي عزير عليه السلام رأى كيف يُحيي الله الموتى، فإنهما رأيا في الحقيقة ما وراء الظاهر، لا كما نرى نحن، حين ننظر إلى ولادة الجنين، أو ننظر إلى موت إنسان.. لأننا ننظر إلى الظواهر ولا نرى ما وراءها من حقائق القدرة الإلهية.

ولعل الآيات التي رآها نبينا الأكرم ﷺ عبارة عمّا وراء الظواهر في عالم الخلق؛ أي عن الأسماء الحسنى التي يخلق بها الله ما يشاء، علماً أن الله أغدق من الكرامة على النبي المصطفى ﷺ إذ أهله لأن يرى ما شاء من آياته.

(١) تفسير نور الثقلين، الشيخ عبد علي العروسي الحويزي، ج ٥، ص ١٥٣.

ولعل تلك الحقائق هي التي غشيت السدرة، فرأى الرسول المصطفى شيئاً منها. ولعلها هي التي جاءت ضمن عبارة: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾^(١).

إذ أعطاه جوامع العلم دفعة واحدة، وليس بكلمة أو كلمتين. أي أعطاه الله معاني ذلك النور الذي يقذفه في قلب من يشاء.

حقاً؛ إن القرآن الكريم، ومنه هذه السورة، يزيدنا قناعة بأن الإنسان عاجز عن استيعاب كلمات الرب استيعاباً تاماً، بل إن كلمات هذه السورة وصياغتها الإعجازية تُثبت ضرورة قراءتها المرة بعد الأخرى، لعله يستفيد منها بعضاً من أسرارها مع تتبع الإشارات الواردة في الروايات الصحيحة عن النبي ﷺ وأهل البيت عليهم السلام، وعلينا المزيد من التدبر ليُكرمنا الله عز وجل بالكشف عن الحقائق الربانية، ولكيلا نذهب مذاهب المعاندين، فنقول الأقاويل بغير علم، لأن في نهايتها غروراً ينتهي إلى التكذيب بآيات الله عز وجل.

بصائر وأحكام

١ - إن الآيات الربانية تعكس لنا أسماء الله الحسنى، إذ تهدينا الآية إلى علم الله أو قدرته أو رحمته أو غير ذلك.

٢ - إن آيات الله الكبرى لا تُحدّد بالمخلوقات المادية فحسب، وإنما المعنى الأسمى لها، كونها الحقائق التي بها يخلق الله خلقه ويُدبره.

(١) سورة النجم، آية ١٠.



زلزلة الضمائر

﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّتَ وَالْعُزَّىٰ (١١) وَمَنُوءَ الثَّالِثَةَ الْآخِرَىٰ (١٢)﴾.

تفصيل القول

من طبيعة بني آدم أنهم بحاجة إلى ما يهز ضمائرهم، لكيلا تستديم غفلتهم. والقرآن الكريم خير كتاب اتَّبَعَ أسلوب مخاطبة الوجدان وصعق الضمير، وهو في ذلك يسوق الأدلة تباعاً، ويرفع البراهين الواضحة، ويستخدم أحسن الأمثلة.

فبعد أن يُبَيِّن القرآن المجيد كيف نزل الوحي على النبي ﷺ، وكيف أن النبي استشف ملكوت الرب كله، حتى إنه قد رأى من آياته الكبرى عند سدرة المنتهى، حيث رمزُ الخير والكمال ونهاية ما يمكن للمخلوق الوصول إليه.

بعدئذٍ عاد القرآن إلى تسفيه الأفكار التي هلك فيها أولئك الجاهلون، وغرقوا في لجج الضلال، دون أن يتبهبوا إلى مدى سخافة

أفكارهم. ثم دعاهم -بعد صعقة الحق التي صعقهم بها- إلى النظر، ثم المقارنة بين الرسالة الصادحة بالحق والنبي، الخاتم للأنبياء، الجامع لكل علومهم وفضائلهم وكراماتهم، وبين كومة الحجارة التي يعبدونها الدجالون ممن لا يعرف ديناً ولا يلتزم بمذهب.. فأين تلك النورانية الإلهية من هذه الظلمة الجاهلية؟ أفلا يجدر بالجاهل أن ينجل من نفسه؟

دعوة الاستبصار

١- ﴿أَفَرَأَيْتُمْ؟﴾

سؤال صادر عن الخالق الحكيم إلى جماعة من المخلوقين الجهلة، يشير فيهم الانتباه واليقظة من سباتهم.

٢- ﴿الَّذِينَ وَالْعُزَّىٰ﴾

لقد كانا صنمين كانت العرب تعبدهما، وقد قيل: إن اللات كانت صنماً لثقيف، والعزى في مكة، ومناة كانت شجرة في الأصل، وقد عُبدت، ثم أُعطيَ شكل إنسان في النحت على الحجارة.

٣- ﴿وَمَنْوَةَ الثَّالِثَةِ الْآخَرَىٰ﴾

انظروا إليها، ثم ارجعوا إلى أنفسكم لعلكم تلتفتون إلى حقيقتها وتعلمون كيف أنها مجردة عن أهلية العبادة، بل هي حجارة من الأحجار. فما هذا الإصرار لعبادتها والانكباب عليها، وهي نماذج لعشرات من الأصنام التي جعلتموها آلهة بزعمكم؟

وهذه دعوة بسياق استفهام تنطق في متنهاها بالمنطق نفسه الذي واجه به النبي إبراهيم عليه السلام قوم نمرود، حينما حطّم الأصنام على حين

غرة منهم، فلما اتهموه بتحطيمها، قال لهم: ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾^(١). فقالوا: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ﴾^(٢). فواجههم بما لا يُبقي لديهم حجة، وقال لضمائرهم: ﴿أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾^(٣).

بلى؛ إن الإنسان يغفل عن الله تعالى، ثم يغفل ويغفل، حتى تصل به غفلته إلى حضيض التسافل والهبوط.. فيجد نفسه يعبد الحيوانات، أو الأحجار الصماء، أو أي خلق آخر، وقد خلقها الله للإنسان وسخرها لمصلحته، فإذا بالجهل يعكس الأمر فيصبح البشر خادماً لها. وهكذا الوحي أداة ارتقاء للإنسان، بحيث يجد حقيقة نفسه ويكتشف آماذ كماله إذا استوعب وجدانه الحقائق. وليس أجلى من ربوبية الله جل جلاله، وليس أجلى من ضرورة التعلق به سبحانه عبر التمسك بحبله المتين.

بصائر وأحكام

الوحي أداة ارتقاء للإنسان، بحيث يجد حقيقة نفسه ويكتشف آماذ كماله إذا استوعب وجدانه الحقائق. وليس أجلى من ربوبية الله جل جلاله، وليس أجلى من ضرورة التعلق به سبحانه عبر التمسك بحبله المتين.

(١) سورة الأنبياء، آية ٦٣.

(٢) سورة الأنبياء، آية ٦٥.

(٣) سورة الأنبياء، آية ٦٦.



ألكم الذكر وله الأنثى؟

﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى﴾

تفصيل القول

يؤاخذ الله عز وجل المشركين في الجزيرة العربية أنهم كانوا يحتقرون الأنثى، حتى إنهم كانوا يتمادون في غيهم وقسوة قلوبهم؛ فيئدون البنات، شعوراً منهم بالخزي والعار، وحذراً من إلحاق العار بهم بمجرد انتساب البنات لهم.

فإذا كانت منزلة الأنثى لديهم بهذا المستوى، فلماذا زعموا أن الملائكة هم بنات الرب، علماً بأنهم كانوا يحتقرون في مجتمعهم من ليس لديه من الذرية إلا البنات، وكانوا ينعتونه بالأبتر.

إن الإنسان قد لا يفقه فساد منهجه الفكري إلا عندما يصل إلى ثمراته النكدة. إن عبادة الأصنام، واحتقار الأنثى، والزعم أن الملائكة

هم بنات الرب، بعض ثمرات منهج أولئك الجاهلين الفاسد. ولا ريب في أن الضمير السوي يرفض تلك الثمرات، فكيف لا يرفض ذلك المنهج الذي أوصله إليها.

بصائر وأحكام

إن الإنسان قد لا يفقه فساد منهجه الفكري إلاَّ عندما يصل إلى ثمراته النكدة. ولا ريب في أن الضمير السوي يرفض تلك الثمرات، فكيف لا يرفض ذلك المنهج الذي أوصله إليها.



تلك إذا قسمة ضيزى

﴿تَلْكَ إِذَا قِسْمَةٌ ضِيزَى﴾ (٢٢)

تفصيل القول

أي: إن هذه القسمة (الفضولية) قسمة غير عادلة.

لقد خلق الله الإنسان في أحسن تقويم، وهكذا فإن وجدانه يحب العدل ويرفض الظلم. فكيف انتكس هذا الجاهل، حتى أصبح يقسم الأمور -بزعمه- قسمة ضيزى، فيزعم أن له الذكور ولربه البنات. أية انتكاسة فضيعة بلغ الجهل به؟

بصائر وأحكام

لقد خلق الله الإنسان في أحسن تقويم، وهكذا فإن وجدانه يحب العدل ويرفض الظلم.



إن يتبعون إلا الظن

﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا
مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ
جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى﴾ (٢٣) ﴿

من الحديث

قال رسول الله ﷺ: «إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ، فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْكَذِبِ»^(١).
وقال ﷺ: «ثَلَاثٌ مُهْلِكَاتٌ: شُحٌّ مُطَاعٌ، وَهَوًى مُتَّبَعٌ،
وَإِعْجَابُ الْمَرْءِ بِنَفْسِهِ»^(٢).
وقال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «يَسِيرُ الظَّنُّ شَكًّا»^(٣).

(١) قرب الإسناد، الشيخ الحميري القمي، ص ٢٩.

(٢) وسائل الشيعة، الشيخ الحر العاملي، ج ١، ص ١٠٢.

(٣) غرر الحكم ودرر الكلم، الشيخ الأمدي، ص ٧٢، حديث رقم ١٠٨١.

وقال ﷺ: «الظنُّ أَرْثَابٌ»^(١).

وقال ﷺ: «إِيَّاكَ أَنْ تَغْلِبَ نَفْسَكَ عَلَى مَا تَظُنُّ وَلَا تَغْلِبُهَا عَلَى مَا تَسْتَيْقِنُ، فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ أَعْظَمِ الشَّرِّ»^(٢).

وقال ﷺ: «فَازَ مَنْ اسْتَصْبَحَ بِنُورِ الْهُدَى، وَخَالَفَ دَوَاعِيَ الْهَوَى، وَجَعَلَ الْإِيمَانَ عِدَّةَ مَعَادِهِ، وَالتَّقْوَى ذُخْرَهُ وَرَادَهُ»^(٣).

وقال ﷺ: «هُدَى اللَّهِ أَحْسَنُ الْهُدَى»^(٤).

تفصيل القول

١ - ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمِيَّتُوهَا﴾

فهي مجرد ثقافة فاسدة، وشعارات فارغة، وكلمات بلا معنى، لا علاقة لها بشأن الرب سبحانه؛ إذ لا دليل لهؤلاء عبّاد الأصنام على أن الله الرب الواحد الأحد قد خوّلهم لاختيار هذا الصنم أو ذلك لغرض العبادة، أو من أجل التقرب إليه سبحانه.

٢ - ﴿أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾

أي: إن من يعبد ربًّا، لا بد له أن تكون الحجة والسلطان متوفرين لديه. أما مجرد التقوّل على الله، فهو الجريرة الكبرى، وهو يتحمّل مسؤوليتها كما أبأوه سواءً بسواء. فلا حجة للولد بالتّباع أبيه في ضلاله.

(١) غرر الحكم ودرر الكلم، الشيخ الأمدي، ص ٢٦٣، حديث رقم ٥٦٦٥.

(٢) غرر الحكم ودرر الكلم، الشيخ الأمدي، ص ٧٢، حديث رقم ١٠٧٦.

(٣) غرر الحكم ودرر الكلم، الشيخ الأمدي، ص ٩٤، حديث رقم ١٦٥٣.

(٤) غرر الحكم ودرر الكلم، الشيخ الأمدي، ص ٩٤، حديث رقم ١٦٦١.

وعبادة غير الله بدعة وضلالة عند الإنسان نفسه، وتقليد للآباء الذين كان الجهل محيطاً بهم.

ونفهم من هذه الآية الكريمة أن هناك ثقافة مشتركة بينهم وبين آبائهم، دعوتهم إلى عبادة الأصنام. وليست القضية مجرد تقليد الآباء للآباء، بل إن الشيطان الذي أضل آباءهم هو الذي أضلهم أيضاً.

والسلطان هنا قد يكون الدليل العلمي، أو الوحي، أو الفطرة الربانية السليمة التي يتمتع بها الإنسان.

ولكن السبب في هذا الانحراف الفكري المقيت يعود إلى حيث حدّده الله تعالى نفسه في هذا السياق، إذ قال سبحانه:

٣- ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ﴾

كلمة الظن والمعاني المختلفة

وللظن معانٍ مختلفة، منها:

١- قد يعني الظن في سياق تحصيل العلم؛ فهو أعلى من مستوى الشك، وأدنى من العلم.

٢- وقد يكون الظن مرحلة مُتقدِّمة من اليقين، حيث استحضار الواقع بعد العلم به، وهو ظن الأنبياء الذي يتحدث عنه القرآن في بعض الحالات، مثل قوله سبحانه وتعالى بشأن النبي يونس عليه السلام: ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾^(١).

أي: رغم ابتلاع الحوت له، فإنه لم يزل عن يقينه بأن الله لن

(١) سورة الأنبياء، آية ٨٧.

يجرمه رزقه أو يقلله عليه.

٣ - وظن آخر، هو ظن الجاهل الذي يتخيل أمراً ما على أساس غير علمي؛ فهو ظن نابع أساساً من الجهل، يتبعه استيلاء هوى النفس، وهو مجرد تخيلات ووساوس شيطانية؛ هذه الوسوس التي تنسجم مع أهواء النفس والشهوات.

ولأن الإنسان يتهرب أبداً عن المسؤولية، فإن هوى النفس يدعو إلى ثقافة التبرير لممارساته الخاطئة، بينما العقل يدعو إلى الحق وتحمل المسؤولية.

ولعل صياغة الجملة والصلة بين الظن وما تهوى الأنفس، تهدينا إلى بصيرة هامة هي أن معبود هذه الفئة - أولاً وبالذات - هي أنفسهم وأهواؤها. فهم ممن قال عنهم ربنا سبحانه: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾^(١).

فشهوة الجنس، وحب الذرية، والحرص على المال، والتنافس على الوجاهات.. هذه هي التي استهوت هؤلاء، كما أغلب أبناء البشر، فعبدوها ولكنهم لكي يرضوا ضمائرهم الرافضة لهذه العبادة، خدعوا أنفسهم وابتدعوا ديناً من وحي ظنونهم وتخيلاتهم، وحتى إنهم افتروا على ربهم بأن الله أمرهم باتباع دينهم الباطل!

وبالتالي فإن ثقافة التبرير هي مجرد تحرّصات جوفاء.

٤ - ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَىٰ﴾

فالرب سبحانه أسبغ عليهم نعمه من كل ناحية، إنه هو الذي يأمر بالحق، لأنه سبحانه كتب على نفسه أن يرشد مربوبيه إلى الهدى

(١) سورة الفرقان، آية ٤٣.

الذي هو يناقض تلك الظنون الباطلة، وأن هذا الهدى وحده الذي يوصل الإنسان إلى معرفة الأهداف المشروعة، ويُرشده إلى الحكمة من خلقه.



بصائر وأحكام

إن هوى النفس يدعو الإنسان إلى ثقافة التبرير لممارساته الخاطئة، بينما العقل يدعوه إلى الحق وتحمل المسؤولية.



أم للإنسان ما تمنى؟

﴿أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى﴾ (٢٤)

تفصيل القول

حينما يعالج القرآن الكريم قضية ما، فإنه يعالجها من جميع جوانبها؛ الظاهر منها والباطن.. إنه يعالجها ليستفيد منها الإنسان بكافة حالاته وأوضاعه. وهذه الصفة القرآنية من جملة الأدلة على عظمة القرآن وأنه نازل من عند الله تعالى.

أما ظاهرة الشرك التي عالجتها الآيات السالفة، فهي تُعتبر من أشد الآفات على البشر، وقلما وجدنا شخصاً أو شعباً قد تخلص منها، حتى إنها ليبقيان يعانيان آلام الشرك ويتعرَّضان لعقوبته، سواء تلك العقوبة الدنيوية أم الآخروية.

ولذلك؛ أضحى لزاماً على الإنسان أن يسعى جاهداً للانعقاد

من أسباب الشرك الظاهري، إضافة إلى ضرورة وعيه لأسبابه الباطنية التي يبدو أن الآيات التاليات تبدأ بمعالجتها.

وحيث إن الإنسان يميل إلى الراحة، فإنه يسقط في فخ التهرب من المسؤولية ومن خلوص الإيمان بالله الواحد. وهذا التهرب يدفع بالإنسان إلى التفتيش عن معاذير يبرر بها واقعه الفاسد، تزيده ضللاً على ضلالة.

ولكنه في خضم قرعه للأبواب الشيطانية، وتمنيه أن يجد لنفسه خلاصاً من مسؤولياته الإيمانية (التوحيدية) يغفل أو يتغافل عن أداء مسؤوليته. في حين كان يفترض به أن يتعرّف إلى الحكمة من وجوده في الحياة الدنيا بكل شجاعة، ثم يعمد إلى التعرف إلى ما يترتب على تلك المعرفة، ومن ثم ينبذ جانباً كل التصورات والظنون والأهواء والوساوس الشيطانية.

وهو - ما لم يعمد إلى ذلك - سيجد نفسه يتوسّل بما لم يُنزل به الله سلطاناً، ويطلب إليه الشفاعة. والطلب هذا وليد التمني الباطل والأجوف. ويظل ضميره يلاحقه بسخافة أفكاره، كما تلاحقه تبعات أعماله شاء أم أبى. أما في الآخرة فمصييره النار وبئس المصير.

إن فلاح الإنسان رهين بتسليمه للحق، ولكل حجة إلهية، وبرهان رباني.

وقد ورد عن النبي الأكرم ﷺ، إنه قال: «لَيْسَ الْإِيمَانُ بِالتَّحَلِّيِّ وَلَا بِالتَّمَنِّيِّ، وَلَكِنَّ الْإِيمَانَ مَا خَلَصَ فِي الْقَلْبِ وَ صَدَقَ الْأَعْمَالُ»^(١).

ولطالما تصدّى القرآن المجيد لهذه الأباطيل، وكشف لابن آدم

(١) معاني الأخبار، الشيخ الصدوق، ص ١٨٧.

خطر الركون إليها وإلى الوسوس الشيطانية والأهواء النفسية، ومنها:
التمني.. مؤكداً أن الدين حقيقة ثابتة، لا يمكن التهرب من مسؤولياته
بهذه الخرافات.

بصائر وأحكام

١ - من اللازم على الإنسان أن يسعى جاهداً للانعتاق من
أسباب الشرك الظاهري.

٢ - على الإنسان أن يتعرّف إلى الحكمة من وجوده في الحياة
الدنيا بكل شجاعة، ثم يعمد إلى التعرف إلى ما يترتب على تلك المعرفة.



فَللَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى

﴿فَللَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى﴾ (٢٥)

تفصيل القول

فكما أن أمر الدنيا خاضع برمته لله تعالى، كذلك أمر الآخرة؛ لأن السُّنن الربانية الجارية في الأولى، هي نفسها الجارية في الآخرة.

﴿فَللَّهِ﴾ أي: فهو ملك السماوات والأرض، وهو المُقَدَّرُ فيها سُنن الحق والقسط، وهو المُدَبِّرُ مباشرة لها في الآخرة بأجلى صورها، وفي الدنيا بنسبة معينة.

وما دامت السُّنن الإلهية وهو مُقَدَّرُها ومُجْرِيها ومُسَبِّبُها، فإنه تعالى جدُّه لا يُجْدَع، ولا تفوته فائتة، لأنه حي قيوم، لا تأخذه سِنَةٌ ولا نوم.

بصائر وأحكام

فكما أن أمر الدنيا خاضع برمته لله تعالى، كذلك أمر الآخرة؛
لأن السُّنن الربانية الجارية في الأولى، هي نفسها الجارية في الآخرة.



لمن الشفاعة؟

﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَعُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ (١٦)

من الحديث

قال الإمام جعفر الصادق عليه السلام في رسالة إلى أصحابه، جاء فيها: «وَأَعْلَمُوا أَنَّهُ لَيْسَ يُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ مِنْ خَلْقِهِ شَيْئًا؛ لَا مَلَكٌ مُقَرَّبٌ، وَلَا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ، وَلَا مَنْ دُونَ ذَلِكَ. فَمَنْ سَرَّهُ أَنْ تَنْفَعَهُ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ عِنْدَ اللَّهِ فَلْيَطْلُبْ إِلَى اللَّهِ أَنْ يَرْضَى عَنْهُ»^(١).

تفصيل القول

رغم أن الملائكة موكلّ إليهم أمر مراقبة أعمال الإنسان، ولهم في

(١) الكافي، الشيخ الكليني، ج ٨، ص ١١.

خضّم هذه المسؤولية مقام سام عند الله تعالى، إلا أنهم عاجزون عن تغيير مصير ابن آدم إلا بعد أن يأذن الله تعالى لهم، ويرضى بأن يشفعوا له عنده، ليُعلم أن الأمر كُلّه بيد الله، وأنه هو الملك الواحد القَهَّار.

فالملائكة قد يشفعون للمؤمنين، ولكن ضمن الحدود المرسومة لهم، وليس كما تقول نظرية الفداء المسيحية، التي تقول: إن شفاععة المسيح أمر محتوم على الله وفرض مفروض.

ولعل التعبير بـ ﴿يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ ﴿يَذُنَّا عَلَى شَرْطَيْنِ فِي الشَّفَاعَةِ:

الأول: إذن الله سبحانه في القيام بالشفاعة.

الثاني: قبول الرب ورضاه بتلك الشفاععة.

ونستوحي من الشرط الأول؛ أن الذين يدعون من دون الله شركاء ويزعمون أنهم شفعاؤهم عند الله، لن تنفع شفاعتهم؛ لأن الله لا يأذن بالشفاعة إلا لمن يشاء.

ونستوحي من الشرط الثاني؛ أن الشفاععة لا تحتّم على الله شيئاً. أَوَلَمْ يَقُلْ رَبُّنَا سُبْحَانَهُ لِلنَّبِيِّ الْأَكْرَمِ ﷺ، وهو سيد الشافعين: ﴿أَسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ (١).

بصائر وأحكام

بالرغم من أن للملائكة منزلة محترمة عند الله سبحانه، إلا

(١) سورة التوبة، آية ٨٠.

أنهم عاجزون عن تغيير مصير ابن آدم إلا بعد أن يأذن الله تعالى لهم، ويرضى بأن يشفعوا له عنده، ليُعلم أن الأمر كله بيد الله، وأنه هو الملك الواحد القهار.





ليسمون الملائكة تسمية الأنثى

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيَسْمُنَ الْمَلَائِكَةَ سَمِيَةَ الْأُنثَى﴾ (٢٧)

تفصيل القول

كان عرب الجاهلية يسمون الملائكة تسمية الأنثى، حتى أن الآلهة التي كانوا يعبدونها، كانت في نظرهم رموزاً للأنوثة، بينما المجتمع إذ ذاك كان مجتمعاً ذكورياً.

وهناك أكثر من تفسير محتمل لهذه الظاهرة العقائدية الاجتماعية؛ تفسير لغوي، وتفسير نفسي.

أما التفسير اللغوي، مأخوذ في ذهابهم إلى تأنيث كل ما من شأنه أن يختفي، كالشمس التي يختفي نورها في الليل، وكالعين التي يختفي ماؤها تحت الأرض ثم يخرج، وذلك تشبيهاً بما يفترض في النساء من الاختفاء عن الأعين. وهكذا شأن الملائكة الخافية عن أعين الناس،

فهي مؤنثة لاحتجاجها عن الأنظار.

أما عدم تأنيثهم لله سبحانه وما يرتبط به من أسماء، فله دافع نفسي؛ نظراً لأن الله مظهر القوة والعزّة والجبروت.. حتى إنهم اعترضوا على تسمية القرآن لله سبحانه باسم الرحمن الرحيم، فقالوا: ﴿وَمَا الرَّحْمَنُ؟﴾^(١).

وقد قيل بهذا الصدد: إن من الأسباب الحقيقية التي دفعت بمعاوية أن يُنفق الملايين من أجل حذف البسملة من أول السور في القرآن، تعود إلى قناعة لدى الجاهليين بأن القوة وحدها تليق بالله. وللأسف فقد نجح معاوية إلى حد كبير في حذف البسملة التي تحتوي على اسمي الرحمن والرحيم.

وقال الجاهليون: إذا كان الله مظهر الإرادة الحازمة، ومصدق الجبروت، فإن الملائكة مظهر للحنان والعاطفة، فهي مؤنثة. ظناً منهم أنهم إذا فُروا من سلطان القوة إلى ينبوع الحنان، استطاعوا أن يتَهَرَّبُوا من المسؤولية. وهكذا زعموا أن الملائكة تخلصهم من عقاب أفعالهم. ويبقى السؤال: لماذا أسست الثقافة الجاهلية هذه الثنائية؟.

الجواب: إن هذه الثنائية نجدّها عند أغلب الثقافات الشريكية والديانات المنحرفة. والسبب - في زعمهم - أنهم يؤسسون لنوع توازن بين القوة والعاطفة؛ فإذا تحصل لهم ذلك، تمكنوا من دعم ثقافتهم التبريرية في مواجهة بصائر التوحيد التي تتصف بروح المسؤولية.

إن جذر الضلالات البشرية واحد، رغم اختلاف الأمم، ورغم التفاوت في مظاهر الضلالة. إنه الهروب من حساب الله سبحانه

(١) سورة الفرقان، آية ٦٠.

وسؤاله، ذلك الحساب الذي هو مصدر المسؤولية.

وهكذا نجد الأقوام التي سبقت العرب الجاهليين والتي أعقبتهم كالآشوريين والكلدانيين والمسيحيين كل ثقافتهم تبدأ وتنتهي عند نقطة واحدة تتمثل في تجميع الأحكام الإلهية والفرار من ضغط المسؤولية.

أما الإسلام؛ فقد جاء ببصائر تهدي البشر إلى منهج الخلاص من عبودية أهواء النفس ووساوس الشيطان وحجب العقل، وهذه هي الطريقة التي ترجّح في النهاية الفرار إلى الله نفسه واللجوء إليه في مواجهة ضعف الإرادة، ومن أجل تحدي الظروف وتحمل المسؤوليات بالتمام والكمال.

﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾

ولم يفهمهم القرآن بكونهم لا يؤمنون بالله سبحانه؛ لأن الإيمان بالله الخالق مغروس في وجدان البشر أساساً، ولكن مشكلة ابن آدم أنه لا يؤمن أو لا يريد أن يؤمن بالآخرة، التي هي مصداق سُنَّة الجزاء؛ لأن هذا الإيمان يتنافى وثقافة التبرير واللامسؤولية. أما المؤمن بالآخرة فإنه يسعى جاهداً من أجل العمل بمسؤولياته، بل وتراه يلتدُّ بالعمل الصالح، كالصلاة والزكاة، وخدمة الناس والإحسان إليهم.

والإيمان بالآخرة ميزان مستوى العقل لدى الإنسان؛ وكلما ازداد وعي المرء بالآخرة ازداد معرفةً بحقيقة الدنيا، وازداد حكمةً فيها؛ لأن الآخرة والدنيا حقيقة واحدة، ولا يمكن الفصل بينهما. وإذا حدث هذا الفصل في وعي المرء، تبعه فشل عارم في معرفته بسائر الحقائق وتقييمه.

بصائر وأحكام

١- إن جذر الضلالات البشرية واحد، رغم اختلاف الأمم،
ورغم التفاوت في مظاهر الضلالة. إنه الهروب من حساب الله سبحانه
وسؤاله، ذلك الحساب الذي هو مصدر الإحساس بالمسؤولية.

٢- الإيمان بالآخرة ميزان العقل لدى الإنسان؛ وكلما ازداد
وعي المرء بالآخرة ازداد معرفةً بحقيقة الدنيا، وازداد حكمةً فيها..
لأن الآخرة والدنيا حقيقة واحدة.



إن الظن لا يغني من الحق شيئاً

﴿وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي
مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ (٢٨).

تفصيل القول

الواو في مطلع الآية هي أداة ربط بما سبق من التقول على الله تعالى، وتسمية الجاهليين الملائكة إناثاً، وهو يدُلُّنا على بصيرة هامة نُفَصِّلُها فيما يلي:

من خصائص القرآن المجيد أن ظاهره حكم، فيما الباطن منه علم، وربما الاقتصار في النظر على ظاهر القرآن، لا يُورث علماً.. إنما إذا تعمَّق القارئ في تدبره للآيات ازداد علماً، وقد يصل إلى أعلى درجات العلم ومراتب اليقين.

وهكذا إذا تدبَّرنا في العلاقة بين هذه الآية والتي سبقت، نعرف

مسألة هامة هي أن من فوائد التأمل في آيات سورة النجم عموماً، الفرز بين منشأ الوسوس وتجليات العقل، ليلبغ المؤمن إلى مستوى الفرقان، فتتوفر لديه فرص الفلاح، ولا يكون عرضة لمصارع الهوى.

والسؤال: كيف يبلغ المرء هذا المستوى؟.

إنما بحذف الظن من قاموسه، فلا يتبع إلّا العلم، بل لا ينسب بنت شفة، ولا يتصرّف أبسط تصرف، ولا يذهب في التفكير أي مذهب إلّا بعلم. وإذا أغلق الإنسان على نفسه منافذ الظنون، انفتحت أمام بصيرته آفاق المعرفة؛ لأنه لا مسافة وسطى بين ما هو علم وما هو ضلال.

ومن لم يكن مصدر تفكيره الحق، فهو في باطل، حتى وإن وضع قدمه على جادة الحق، لأنه لم يبالِ بقدسية الحق منذ البداية، فتجرأ عليه. وهكذا أوقعته جرأته على الحق في الضلال البعيد.

ومن هنا تجد أن المحققين من علمائنا ذهبوا إلى أن كل علم لا يحصل عليه الإنسان عن طريق مصادر الوحي؛ الكتاب وسنة النبي الصحيحة وأحاديث أهل بيته المعتمدة، فإنه لا يعد حجة؛ لأنه بعيد عن طاعة الله وولايته سبحانه.

ولأنه لم تكن مقالة المشركين بأن الملائكة إناث عن علم، لأن الجاهليين لم يروا الملائكة؛ ولم يعرفوا كيف خلقت وكيف كانت إناثاً، فإنهم اتبعوا الظن فلم يُغنهم من الحق شيئاً. ولعل الجاهليين قبل الإسلام قد تسرّبت إلى ثقافتهم مقولات اليونانيين الذين صاغوا أباطيلهم بصياغة أسموها الفلسفة، حتى صارت مصدراً لمختلف المفاسد الفكرية لدى البشرية؛ وقد أرسل الله سبحانه الأنبياء ﷺ لدحض مثل تلك الضلالات.

إن الله تعالى لم يُشْهِدِ الناس خلق أنفسهم، ولا خلق السماوات والأرض، فتراهم أخذوا يخبطون خبط عشواء، فنسبوا إلى الله وبعض خلقه الأباطيل؛ ومنها أنهم قالوا بغير علم بأن الملائكة بنات لله، تعالى الله عما يقولون وتقذّس.

والقرآن المجيد يهدف من خلال عرض بعض ضلالات المشركين إلى تعليمنا العلم الزكي والمنهج السليم أيضاً، فضلاً عن ردّه لتلك الضلالات التي أملتھا الظنون. فهو من جهة يُحرِّضنا على عدم الانسياق وراء الظن، وهو من جهة أخرى يُوجِّهنا إلى العلم ويأمرنا بأن نُولي العلم مزيداً من الاهتمام في كل مشارب الحياة.

هجرة العلم

ولعل الأزمة الكبرى التي أرجعت الأمة المسلمة إلى الوراء، أنها هجرت معين العلم الذي أمر الله الناس بالاغتراف منه، وأعني به القرآن والنبي وعترته الطاهرة، وتوقعت على توافه الأفكار، والظنون.

فهي لم تعتمد منهج الحق الواضح والبعيد عن الجهل وأهواء الذات، فراحت تتخبط في متاهات الوسوس.. وتراها اليوم تعتمد تحرُّصات مصادر الإعلام التي تحمل أفكاراً باطلة ومشاريع شيطانية.. وستبقى الأمة المسلمة وللأسف غارقة في ذات المستنقع الذي سبق وأن غرق فيه أهل الجاهلية، فنسبوا إلى الله والغيب ما نسبوا من مقولات باطلة، ما لم توفر في نفسها عوامل اليقظة والخلاص.. وأهم ذلك، اعتماد العلم الحقيقي ميزاناً لحياتها.

وقد قال الإمام علي عليه السلام: «النَّاسُ ثَلَاثَةٌ: فَعَالِمٌ رَبَّانِيٌّ، وَمُتَعَلِّمٌ

عَلَى سَبِيلِ نَجَاةٍ، وَهَمَجٌ رَعَا أَتْبَاعُ كُلِّ نَاعِقٍ، يَمِيلُونَ مَعَ كُلِّ رِيحٍ، لَمْ
يَسْتَضِيئُوا بِنُورِ الْعِلْمِ، وَلَمْ يَلْجَأُوا إِلَى رُكْنٍ وَثِيقٍ^(١).

وهؤلاء الهمج الرعاع يقولون الباطل ويتبعون الظن، ولن يُغني
الظن من الحق شيئاً. والحق هنا: هو العلم الذي من شأنه أن يتوافق مع
الحقيقة الربانية أبداً.

بصائر وأحكام

١- من خصائص القرآن المجيد أن ظاهره حكم وباطنه علم،
وهكذا فإن الاختصار في النظر على ظاهر القرآن، لا يُورث علماً..
إنما إذا تعمَّق القارئ في تدبره للآيات ازداد علماً، وقد يصل إلى أعلى
درجات العلم.

٢- من لم يكن مصدر تفكيره الحق، فهو في باطل، حتى وإن
وضع قدمه على جادة الحق؛ لأنه لم يبالِ بقدسية الحق منذ البداية،
فتجرأ عليه.

٣- إذا أغلق الإنسان على نفسه منافذ الظنون، انفتحت أمام
بصيرته آفاق المعرفة، لأنه لا مسافة وسطى بين ما هو علم وما هو
ضلال.

(١) نهج البلاغة، حكمة رقم ١٤٧.



فأعرض عمن تولى عن ذكرنا

﴿ فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ ﴿٢٩﴾

من الحديث

قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «أَمَرَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ نُلْقَى أَهْلَ الْمَعَاصِي بِوُجُوهِ مُكْفَهَرَةٍ»^(١).

وقال أمير المؤمنين عليه السلام في وصيته لابنه محمد بن الحنفية: «بَايِنُ أَهْلَ الشَّرِّ وَمَنْ يَصُدُّكَ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَذِكْرِ الْمَوْتِ بِالْأَبَاطِيلِ الْمُزْخَرَفَةِ وَالْأَرَاغِيفِ الْمُلَفَّقَةِ»^(٢).

وقال عليه السلام في وصيته لكميل بن زياد: «يَا كُمْيَلُ؛ قُلِ الْحَقَّ عَلَى كُلِّ حَالٍ، وَوَادِّ الْمُتَّقِينَ، وَاهْجُرِ الْفَاسِقِينَ، وَجَانِبِ الْمُتَافِقِينَ، وَلَا

(١) الكافي، الشيخ الكليني، ج ٥، ص ٥٩

(٢) وسائل الشيعة، الشيخ الحر العاملي، ج ١٦، ص ٢٦٤

تُصَاحِبِ الْخَائِنِينَ.

يَا كُفَيْلُ؛ لَا تَطْرُقْ أَبْوَابَ الظَّالِمِينَ لِلاِخْتِلَاطِ بِهِمْ وَالاِخْتِسَابِ مَعَهُمْ، وَإِيَّاكَ أَنْ تُعْظِمَهُمْ وَأَنْ تُشْهَدَ فِي مَجَالِسِهِمْ بِمَا يُسَخِطُ اللَّهَ عَلَيْكَ»^(١).

وقال النبي عيسى عليه السلام: «يَا مَعْشَرَ الْخَوَارِجِينَ؛ تَحَبَّبُوا إِلَى اللَّهِ يُبْغِضِ أَهْلَ الْمَعَاصِي، وَتَقَرَّبُوا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِالتَّبَاعِدِ مِنْهُمْ، وَالتَّمَسُّوا رِضَاهُ بِسَخَطِهِمْ»^(٢).

تفصيل القول

إذا تسرَّبت الوسواس إلى قلب البشر من منفذ الرغبة في التبرير والنزوع إلى ثقافة اللامسؤولية.. عندها يصبح هذا القلب في حكم الملغى؛ لأنه يتعطل عن الوظيفة الصحيحة التي خُلق لأدائها، وهي معرفة الحق واتباعه. بينما القلب القادر على تحمل المسؤولية، فهو القلب المتوجَّه إلى الله تعالى.

وإن الرسالة المهمة التي نستفيد منها من آيات سورة النجم المباركة، هي ضرورة سد كل المنافذ القلبية دون وسواس الشيطان، ليتمكن الإنسان من تحمُّل مسؤولياته الربانية في الحياة.

والقلب هو أصل وجود الإنسان، والصراع الأساس بين الكفر والإيمان يجري هناك، فلا ينبغي للإنسان أن يسمح باستمرار هذا الصراع، بل عليه أن يحسمه لمصلحة الحق، حتى يتفرَّغ لصراعه

(١) تحف العقول، الشيخ ابن شعبة الحراني، ص ١٧٣.

(٢) مستدرک الوسائل، الميرزا النوري، ج ١٢، ص ١٩٦.

الخارجي مع أجندة الشيطان.

على أن ثقافة التبرير (والتهرب من المسؤولية) من أوسع المنافذ التي يدخل من خلالها الشيطان إلى قلب الإنسان، بل هي من أهم جذور الشرك التي يعتمد عليها الشيطان. ومن مصاديق هذه الثقافة المقيتة؛ أن الجاهليين كانوا يتوقعون من الملائكة أن يكونوا شفعاءهم عند الله في الدنيا قبل الآخرة، بل كانوا لا يؤلون الآخرة اهتماماً بالغاً. وهكذا تراهم كانوا يريدون الشفاعة لكي يتخلصوا من عواقب أعمالهم السيئة في الدنيا.

وهؤلاء الكفار اتَّبَعُوا ظَنًّا، وليس الظن بمغني عن الحق شيئاً. فاختاروا العمى على البصر، ومارسوا من كبائر الذنوب الكثير، فختم الله على قلوبهم وعلى أسماعهم وعلى أبصارهم غشاوة.

ولا بد أن يُعرض المؤمنون عنهم، لأنهم تركوا أعظم وسيلة للنجاة، وهي ذكر الله تعالى. وأصبحت غاية مرادهم العيش في أيام معدودات بأية وسيلة كانت وبأي مستوى كان، ولم يتطلَّعوا إلى الدار الآخرة.

١ - ﴿فَأَعْرَضْ﴾

هكذا أمر الرب تعالى بهجر الكافرين الذين عَرَضَ عليهم الحق، فأبوا التسليم له؛ لأنهم لوَّثُوا أنفسهم بالجهل والغرور، كما أنهم استسلموا لوساوس الشيطان وضغوط النفس الأمَّارة بالسوء، فأصبحوا غير جديرين بأن يتعايش المرء معهم.

٢ - ﴿عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا﴾

وذكر الله تعالى، كما الشمس المضيئة، يطرد ظلام الوسواس؛

فهو الحق، وهو القرآن، وهو الولاية الكبرى لله وللرسول وأهل بيته صلوات الله عليهم أجمعين. بلى؛ إِنَّ مَنْ يَخْتَارُ الهروب من ضياء الشمس والاختباء في كهف الظلمات، ليس حريّاً بأن يقترب منه الإنسان؛ لأنه يُنسيه ذكر الله سبحانه، بما يطرحه من وساوس إبليس.

٣- ﴿وَلَمْ يُزِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾

من الضروري أن يقترب الإنسان بعلاقة أخوة، أو صداقة، أو شراكة عمل، أو علاقة زواج، أو علاقة نصيح وإرشاد بمن هو قادر على اتخاذ القرارات الصائبة القائمة أساساً على قاعدة الحق والعلم. ولما كان مَنْ نسي ذكر الله ولم يؤمن بالآخرة، قد أراد لنفسه ما هو داني، فإنه ليس جديراً بأن يصاحبه المؤمن، لأنه اختار الدنيا على الحياة الحقيقية في الآخرة، وفَضَّلَ الجهل على العلم، والظن على الحق، والنفس الأمّارة بالسوء على العقل والفطرة.. من هنا فإنه لم يعد جديراً إلى التعايش.

إن المشرك أضحى خطراً ما حقاً على نفسه وعلى من يتقرب منه، لأنه أضاع المقياس الذي يُميّز به الحق عن الضلال، وأعني به ذكر الله سبحانه وتعالى، حتى صار المقياس لديه شهوة عارمة، ولذة زائلة، ودنيا فانية.. فيها المعيار الصحيح، ما عند الله العزيز العليم، والذي يستحضره المؤمن بذكر الله سبحانه.

بصائر وأحكام

١- من الضروري سدّ كل المنافذ القلبية دون وساوس الشيطان، ليتمكّن الإنسان من تحمّل مسؤولياته الربانية في الحياة.

٢- من نسي ذكر الله ولم يُؤمن بالآخرة، فقد أراد لنفسه ما هو داني، فلم يعد جديراً بأن يصاحبه المؤمن؛ لأنه اختار الدنيا على الحياة الحقيقية في الآخرة، وفَضّل الجهل على العلم، والظن على الحق، والنفس الأمارّة بالسوء على العقل والفطرة.



ذلك مبلغهم من العلم

﴿ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى﴾ (٣٠).

من الحديث

قال رسول الله ﷺ في دعاء له: «وَلَا تَجْعَلِ الدُّنْيَا أَكْبَرَ هَمِّنَا، وَلَا مَبْلَغَ عِلْمِنَا»^(١).

وكتب الإمام محمد الباقر عليه السلام إلى سعد الخير في رسالة له: «فَاعْرِفْ أَشْبَاهَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ الَّذِينَ سَارُوا بِكِتَابِ الْكِتَابِ وَتَحْرِيفِهِ، ﴿فَمَا رِجَحْتَ تَجَدُّهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾. ثُمَّ اعْرِفْ أَشْبَاهَهُمْ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ الَّذِينَ أَقَامُوا حُرُوفَ الْكِتَابِ وَحَرَّفُوا حُدُودَهُ، فَهُمْ مَعَ السَّادَةِ وَالْكُبَرَى.

(١) إقبال الأعمال، السيد ابن طاووس، ج ٣، ص ٣٢١.

فَإِذَا تَفَرَّقَتْ قَادَةُ الْأَهْوَاءِ كَانُوا مَعَ أَكْثَرِهِمْ دُنْيَا، وَذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ. لَا يَزَالُونَ كَذَلِكَ فِي طَبَعٍ وَطَمَعٍ^(١).

وقال الإمام محمد الباقر عليه السلام: «كَانَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَلَا شَيْءَ غَيْرُهُ، وَلَمْ يَزَلْ عَالِمًا بِمَا يَكُونُ؛ فَعِلْمُهُ بِهِ قَبْلَ كَوْنِهِ كَعِلْمِهِ بِهِ بَعْدَ كَوْنِهِ»^(٢).

تفصيل القول

١ - ﴿ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾

أي: إن غاية ما أوصلهم واقعهم القائم على أساس الجهل والغرور، جعلهم عديمي العلم بالآخرة. فهم يتخبطون في الظلام، لأنهم رفضوا الانصياع لعلم الله، وتركوا ذكر الله ومقاييسه وراء ظهورهم، فأعقبهم رفضاً من الله لهم، وأمرأاً للمؤمنين بالإعراض عنهم.

٢ - ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾

إن الرب الذي خلقك فسوّك وقدّرك وهداك، إنه يعلم ما يحيط بقلبك من فكرة، وبعملك من نية، وبطريقك من أهداف.. فهو أعلم بالضالين عن سبيله، لأنه هو الجاعل لهذا السبيل، وهو الرقيب على من يخرج عن ذلك السبيل. أو ليس السبيل له دون سواه، وهو الذي حدّده ورسمه بكل وضوح، وجعل فيه المعالم والأدلة؟.

وإن من الخطأ القاتل أن يتجرأ المرء، فيزكّي نفسه ويجعل منها قاضياً وحكماً، ويخترع من لدنه مقياساً وسبيلاً يمشي ضمنه. وأنّى له

(١) الكافي، الشيخ الكليني، ج ٨، ص ٥٤.

(٢) الكافي، الشيخ الكليني، ج ١، ص ١٠٧.

ذلك؛ وهو غارق في الضعف والجهل والنقص.. ومن فَرَطَ جهله أن يتكبر ويتكبر حتى يحسب نفسه موازياً لله في ربوبيته، لمجرد أنه نال شيئاً من القدرة والاختيار من قبل ربه الحق.

٣- ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى﴾

وهنا بصائر نستفيدها من الآية الكريمة:

أولاً: القرآن الكريم أكد علم الله سبحانه بالشخص الضال والشخص المهتدي. وإذا فالعلم محيط به من جميع الجهات التي منها جهة ضلالته أو هدايته. ألا يعلم الرب الخالق بمن خلقه لا من شيء وأدرجه عبر أطوار حتى أصبح إنساناً سوياً؟ وهكذا العلم الإلهي يشمل - فيما يشمل - أسباب ضلالته أو هدايته، ومدى ضلالته أو هدايته.

ثانياً: تقديم الضلالة على الهداية قد يدل على أن الظلام يسبق النور، وأن البشر يبقى في ضلال حتى يهديه الرب.

ثالثاً: لأن ربنا سبحانه الأعلم بمن يضل، فهو الأعلم بأسباب ضلاله، وقد قَدَّرَ له علاجاً شافياً؛ من انتفع به اهتدى، ومن لم ينتفع به إذاً لا يهتدي أبداً.

رابعاً: بما أن الله سبحانه قد عاب على من عبد الحجارة، أو النار، أو الشمس، أو الحيوانات، أو الطاغوت، أو الشيطان، أو الملائكة.. لأن هذه مخلوقات لا علم لها، إلا أن يعلمها الله سبحانه شيئاً هو بذاته، فإن العبادة ينبغي أن تتوجه لمن هو عالم بذاته، وليس هو إلا الرب تعالى.

خامساً: ثم ﴿مَنِ اهْتَدَى﴾ قد جعل العلم بأمر الله وسيلة لتنظيم

سلوكه، بحيث يتجنب به المخاطر، حتى عرف بواسطته أن لكل شيءٍ في الحياة دوره المميز والخاص به.. وأول مصداق لذلك أن العلم له دوره، وأن الظن لا يمكن أن يُستعاض به عن العلم.

سادساً: وكما أن من ضلَّ، ضلَّ بإرادته؛ كذلك من اهتدى، اهتدى بإرادته.. مع أن من ضل، قد ساق نفسه باختياره حتى وضعها في موضع التأثير بمحيطه الفاسد. كذلك من اهتدى، هدى نفسه باختياره حتى سماها دون أن تتأثر بموبقات ذلك المحيط، أو لنقل: استفاد مما هو صالح فيه. وهذا يعني أن البيئة الثقافية ليست ذات أثر حتمي، كما زعم البعض.

سابعاً: إن من اهتدى؛ أدرك أن الدنيا والآخرة عبارة عن حقيقتين، إحدهما محكومة بالزوال والفناء، بينما الآخرة هي الحيوان، وأن فيها جوهر الحياة. ولذلك فهو قد اهتدى إلى حكمة الخلق والسر من ورائها، فلم يغلِق قلبه على الدنيا، وإنما انفتح على الآخرة.

بصائر وأحكام

من الخطأ القاتل أن يتجرأ المرء، فيزكي نفسه ويجعل منها قاضياً وحكماً، ويخترع من لدنه مقياساً للحق والباطل، وللهدى والضلال.



ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا
عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ (٣١).

من الحديث

قال رسول الله ﷺ: «يَا عَلِيُّ؛ إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى قَدْ قَضَى
الْفُرْقَةَ وَالْإِخْتِلَافَ عَلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَلَوْ شَاءَ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى حَتَّى
لَا يَخْتَلِفَ اثْنَانِ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَلَا يُنَازِعَ فِي شَيْءٍ مِنْ أَمْرِهِ، وَلَا يَجْحَدَ
الْمَفْضُولُ ذَا الْفَضْلِ فَضْلَهُ. وَلَوْ شَاءَ لَعَجَّلَ النِّقْمَةَ، وَكَانَ مِنْهُ التَّغْيِيرُ
حَتَّى يُكَذِّبَ الظَّالِمُ وَيُعْلَمَ الْحَقُّ أَيْنَ مَصِيرُهُ، وَلَكِنَّهُ جَعَلَ الدُّنْيَا دَارَ
الْأَعْمَالِ، وَجَعَلَ الْآخِرَةَ دَارَ الْقَرَارِ ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ
الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾.

فَقَالَ: عَلِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ: الْحَمْدُ لِلَّهِ شُكْرًا عَلَى نِعَمَائِهِ، وَصَبْرًا عَلَى

بَلَاءِهِ»^(١).

وقال الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام: «ثُمَّ ضَرَبَ لَهُ فِي الْحَيَاةِ أَجَلاً مَوْفُوتاً، وَنَصَبَ لَهُ أَمَداً مَحْدُوداً، يَتَخَطَّى إِلَيْهِ بِأَيَّامِ عُمُرِهِ، وَيَرْهَقُهُ بِأَعْوَامِ دَهْرِهِ، حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَقْصَى أَثَرِهِ، وَاسْتَوْعَبَ حِسَابَ عُمُرِهِ، قَبَضَهُ إِلَى مَا نَدَبَهُ إِلَيْهِ مِنْ مَوْفُورِ ثَوَابِهِ، أَوْ مَحْدُورِ عِقَابِهِ، ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾، عَدَلاً مِنْهُ، تَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ، وَتَظَاهَرَتْ آلَاؤُهُ»^(٢).

تفصيل القول

ليعلم ابن آدم أن السماوات والأرض قائمتان على الحق والعدل والرحمة.. وهذه هي أسماء الله الحسنى.

ومن العدل سُنَّةُ الجزاء، فالجزاء العادل يكون على شاكلة العمل ذاته؛ نوعاً وكمّاً. ومن الخير لابن آدم التسليم لهذه الحقيقة، فلا تذهب به المذاهب، ولا يستجدي الشفاعة إلاّ ممن يأذن له الرب ويرتضيه.

ثم إنّ من عدل الله ورحمته، أنه يجزي السوء بمثله، بينما يُثيب على العمل الصالح بأحسن منه وأكثر منه أضعافاً مضاعفة.

ولأن هذه العدالة، وهذه الرحمة تتجليان في الآخرة أكثر فأكثر؛ فعلى الإنسان التوجه إلى الآخرة، دون الانكباب على الدنيا.

إن المهم جداً أن يتبدل معيار البشر الذاتي إلى آخر إلهي. فلا يُقنّن

(١) كمال الدين وإتمام النعمة، الشيخ الصدوق، ص ٢٦٤.

(٢) الصحيفة السجادية الكاملة، الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام، ص ٢٢.

لنفسه حسب هواه، إنما عليه أن يحتكم للقيم الحق التي تتحقق في سنن ربه، وأن يحتكم إلى الله تعالى وتعاليم النبي ﷺ وأهل بيته عليه السلام، ثم استثمار طاقاته العقلية في اختيار ما يؤهله لاستحقاق الجزاء الأحسن في الدار الآخرة.

وهكذا فإن مصداق الذين أحسنوا، ليس كل مُدَّعٍ لمزاولة العمل الحسن. لماذا؟

لأن العمل الحسن إنما هو ما يُحدِّده الله ويرسم ملامحه.. وأول ملامح العمل الصالح أن تتوافر فيه النية الصالحة، وأن يأخذ مشروعيته من الله تعالى، على أن يكون عامله على علم، وأن يكون العمل ضمن مسار القيم المثلى، لا يعتوره حرام أو باطل.

بصائر وأحكام

من المهم جداً أن يتبدل معيار البشر الذاتي إلى آخر إلهي. فلا يقنن لنفسه حسب هواه، إنما أن يحتكم للقيم الحق التي تتحقق في سنن ربه، ثم استثمار طاقاته العقلية في اختيار ما يؤهله لاستحقاق الجزاء الأحسن في الدار الآخرة.



فلا تزكوا أنفسكم

﴿الَّذِينَ يَحْتَبُونَ كَثِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ
الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجْنَةٌ فِي
بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ (٣٢).

من الحديث

عن إسحاق بن عمار، عن أبي عبد الله عليه السلام، في قول الله عز وجل: ﴿الَّذِينَ يَحْتَبُونَ كَثِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ إِلَّا اللَّمَمَ﴾ قال: «الْفَوَاحِشُ: الزَّنى وَالسَّرِقَةُ، وَاللَّمَمُ: الرَّجُلُ يُلَمُّ بِالذَّنْبِ فَيَسْتَغْفِرُ اللَّهَ مِنْهُ»^(١).

وقال الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «مَا مِنْ مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَهُ ذَنْبٌ يَهْجُرُهُ زَمَانًا ثُمَّ يُلَمُّ، بِهِ وَذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِلَّا اللَّمَمُ﴾»^(٢).

(١) الكافي، الشيخ الكليني، ج ٢، ص ٢٧٨.

(٢) الكافي، الشيخ الكليني، ج ٢، ص ٤٤٢.

وقال الإمام محمد الباقر عليه السلام في حديث: ﴿الَّذِينَ يَحْتَبُونَ كَثِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾ يعني من الأرض الطيبة والأرض المنيئة. ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ يقول: لا يفتخر أحدكم بكثرة صلاته وصيامه وزكاته ونسكه، لأن الله عز وجل أعلم بمن اتقى منكم، فإن ذلك من قبل اللمم وهو المزاج^(١).

وقال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ غَافِرٌ كُلِّ ذَنْبٍ إِلَّا مَنْ أَحْدَثَ دِينًا، أَوْ اغْتَصَبَ أَجِيرًا أَجْرَهُ، أَوْ رَجُلٌ بَاعَ حُرًّا»^(٢).

تفصيل القول

١ - ﴿الَّذِينَ يَحْتَبُونَ﴾

لعل الاجتناب أشد وقعا من الامتناع عن العمل؛ فهو يعني الابتعاد الكلي عما نهي عنه، وليس الاقتراب من دون الممارسة. وهكذا نستوحي أن من صفات المحسنين التنفر من الكبائر، وليس مجرد عدم ارتكابها. وكان المفترض بمن يعمل العمل الحسن ألا يرتكب أي نوع من المعصية، إلا أن السياق هنا اكتفى ببيان صفة الاجتناب عن الكبائر فحسب، لماذا؟

أولاً: لما قلنا آنفاً من أن الآية الكريمة تعطي للمذنبين أملاً لكيلا يتهرّبوا من عبء المسؤولية بسبب اليأس من روح الله فيقعوا في درك الشرك.

(١) علل الشرائع، شيخ الصدوق، ج ٢، ص ٦١٠.

(٢) بحار الأنوار، الشيخ محمد باقر المجلسي، ج ٦٩، ص ٢١٩.

ثانياً: لعدم توافر العصمة فيما عدا الأنبياء والأئمة عليهم السلام، ولأن القرآن المجيد يتحدث عن الإنسان وما فيه من الضعف وما يطرأ عليه من الزلل.

بلى؛ قد يعني الاجتناب هنا الخروج من محيط (حمى) ما منع الله عز وجل. فمثلاً حين يأمرنا الرب باجتنب الطاغوت، لا يعني عدم الانصياع لأوامره، بل العزم على الابتعاد الكلي عنه، حذراً من التلوث به أو الانشداد إليه والتأثر به.

٢- ﴿كَبِيرَ الْإِثْمِ﴾

لدينا هنا تعبيران: الكبائر والإثم. فما هما؟

فالكبائر هي الفواحش التي ذكرها القرآن الكريم في مواقع أخرى، وأشارت إليها الروايات الواردة عن النبي صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام؛ ومنها ما روي عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام، أنه قال: «الْكَبَائِرُ سَبْعٌ: قَتْلُ الْمُؤْمِنِ مُتَعَمِّدًا، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَةِ، وَالْفِرَارُ مِنَ الرَّحْفِ، وَالتَّعَرُّبُ بَعْدَ الْهَجْرَةِ، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ ظُلْمًا، وَأَكْلُ الرَّبَا بَعْدَ الْبَيْتَةِ، وَكُلُّ مَا أَوْجَبَ اللَّهُ عَلَيْهِ النَّارَ»^(١).

وفي روايات أخرى حدد الكبائر بذنوب أخرى، كما روي عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام، إذ قال: «إِنَّ مِنَ الْكَبَائِرِ عُقُوقَ الْوَالِدَيْنِ، وَالْيَأْسَ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ، وَالْأَمْنَ لِمَكْرِ اللَّهِ»^(٢).

ولكن ما يُميّز هذه الكبائر أنها تُرتكب ضمن الأجواء الاجتماعية؛ أي إن المذنب يرتكبها تجاه أشخاص آخرين.

(١) الكافي، الشيخ الكليني، ج ٢، ص ٢٧٧.

(٢) الكافي، الشيخ الكليني، ج ٢، ص ٢٧٨.

أما الإثم فهو تعبير - كما يبدو لي والله العالم - عن الذنب الفردي، كالذنب الذي يرتكبه ابن آدم بينه وبين ربه.

٣- ﴿وَالْفَوَاحِشَ﴾

عظفاً على فرض الاجتناب؛ وكل فاحشة هي كبيرة. إذ القرآن لم يقل: وكبائر الفواحش، وإنما أطلق التعبير فيها لكبرها أساساً.

٤- ﴿إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾

قال البعض: إنها الصغائر من الذنوب، ما خلا الإصرار على ارتكابها، إذ الإصرار هو كبيرة بحد ذاته. وهذا تفسير جيد ومقبول؛ لأن الإنسان - مع كونه متممياً إلى مسيرة الإحسان والصلاح - لا يخلو من الذنب، لعدم توافر العصمة فيه.

واللمم - في أفق آخر - هو ما يطرأ على الإنسان خارج سياق حياته الإيانية، ولو كان ذنباً كبيراً، فهو قد ألم به فجأة، وهو مستعد للرجوع عنه والتوبة منه فوراً.

ومع أن القرآن الكريم قد بيّن في أكثر من آية أن العباد لا يقنطون من رحمة الله، وأن الله يغفر الذنوب جميعاً، وأنهم يذكرون الله إذا مسّهم طائف من الشيطان، فيصرون.. إلا أن القرآن أورد قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾.

تأكيداً للرحمة الإلهية، وتوجهها لمن يجتنب الكبيرة ويجتنب الإثم، ويقع في اللمم في بعض الحالات.

ويمكن أن تكون الحكمة في إيراد هذا التعبير، لتجنيب الإنسان الحالة السلبية والعقد النفسية المتأتية من تعنيف النفس وجلد الذات، لأن

الإنسان ينبغي أن يعيش بين حالتي الرجاء والخوف. أما الخوف لوحده، فهو لا يصلح حال الإنسان، بل قد يورثه القنوط، وهو بحد ذاته ذنب عظيم. والله واسع الرحمة، ومغفرته واسعة، فلا يجوز اليأس من الرحمة الإلهية.

إذا عرف ابن آدم نفسه تعادل خلقه؛ فلا يفرط به غرور، ولا يتطرف نحو القنوط، بل يعرفها بأنها ليست ملاكاً ولا شيطاناً. وقد تكون -في النهاية- أفضل من الملك، أو -لا سامح الله- في درك الشياطين. والله العالم بواقع البشر، يضع له منهاجاً عادلاً، فلا يُكلفه بها لا يستطيع، ولا يُعفيه عما يقدر عليه. وهذا المنهج الواقعي في الدين الحنيف، كفيل بفلاح البشر وتكامله.

يقول ربنا سبحانه: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾

٥- ﴿هُوَ﴾

لا غيره، لأنه هو الخالق.

٦- ﴿أَعْلَمُ بِكُمْ﴾

لأن الله، هو الخالق، فهو الأعلم. فلا يدانيه علم عالم بما يعتور الإنسان من تغيرات ومدى تأثيره بها، أو تأثيره فيها.. بها في ذلك من العوامل الجينية والوراثية.

وهكذا لا يجوز للإنسان أن يُزكي نفسه لمجرد قيامه بعمل صالح واحد، كما لا يجوز أن يسقط الآخرين بمجرد قيامهم بعمل سيئ واحد.. وإنما الواقع الإنساني لكل فرد تتدخل فيه الكثير من المؤثرات.

فالمولود لأم صالحة طيبة لا ريب في تفاوته مع المولود لأم غير صالحة وغير طيبة.. ورُبَّ عمل صالح لا يُقبل من شخص لما فيه من سمعة أو رياء، بينما يُغتفر عمل سيئ من آخر لطبيعة الظروف القاهرة له. ثم الإنسان ليس ابن هذا العالم فحسب، وإنما قد تقلّب من قبل، وسيقلّب فيها من بعد في عوالم شتى. فهو قد قدم من عالم الأشباح والأرواح، إلى عالم الذر، إلى عالم الأصلاب، إلى عالم الأرحام، ويتنقل بعد عالم الدنيا إلى عالم البرزخ، فعالم البعث والقيامة، فعالم الخلود في الجنة أو النار.

وفي كل عالم سبق، تعرّض الإنسان إلى متغيرات، ومنها امتحان تحمّل المسؤولية وأداء الأمانة.. ومن نتائج تلك الامتحانات تمّ الاصطفاء الإلهي لأوليائه، ولعله تحدّدت أيضاً أقدار البعض السيئة في الدنيا. ولعل قوله سبحانه:

٧- ﴿إِذْ أَنْشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ﴾

إشارة إلى ذلك، ومدى تأثير طينة البشر في سلوكه. فالله عز وجل أعلم بنشأة الإنسان وتقلّبه، وبالتالي فإنه لا مبرر للإنسان أن يتناول ويتكبّر ويسلك منهج الأنانية والغرور.

٨- ﴿وَإِذْ أَنْتُمْ أَجْنَةُ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾

إشارة إلى المرحلة المتصلة بمرحلة الدنيا، والله أعلم بها. ولذلك جعل للإنسان قواعد وحدود. ولا ريب في أن البشر يتعرّض في بطن أمه لعوامل مؤثرة؛ إيجابية أو سلبية، كما قال رسول الله ﷺ: «السَّعِيدُ مَنْ سَعِدَ فِي بَطْنِ أُمِّهِ، وَالشَّقِيُّ مَنْ شَقِيَ فِي بَطْنِ أُمِّهِ»^(١).

(١) كتاب الزهد، الشيخ الحسن بن سعيد الكوفي، ص ١٤.

٩ - ﴿فَلَا تُزَكُّوْا أَنْفُسَكُمْ﴾

الفاء هنا، فاء التفریع؛ أي ما دام الله أعلم بحقيقة الإنسان ويعلم من أي خلفية تاريخية وظروف متفاوتة قد قدم إلى الدنيا، وفي أي بطن ترعرع، ويعلم كل تأثيرات الأبوة والأمومة عليه.. فلا مبرر أن يعتمد إلى تزكية نفسه، لأنه لا يعرف بالضبط من هو، وما هي قابلياته، وما تأثيرها إيجاباً أو سلباً في عوالمه السابقة.. ولأنّ تزكية النفس نوع من الغرور الذي قد يحجب الإنسان عن فرص التكامل.

ولعمري؛ إن هذه الرحلة القرآنية تعالج جذور المشكلة الإنسانية من الأعماق، وتلفت انتباهه إلى حقيقته الضعيفة، لولا رحمة الله به وتكريمه له.

بلى؛ إنّ العزّة كل العزّة حين يحقق ابن آدم لنفسه حقيقة القرب من الله عبر ورعه وتقواه واجتنابه الآثام والموبقات والفواحش، ثم يعتمد إلى إتيان الأعمال الصالحة بمواصفاتها المدونة في كتاب الله تعالى.

١٠ - ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾

إن الله تعالى أعلم بكل أسرار الإنسان طيلة وجوده في الحياة الدنيا، وما قبلها وما بعدها. وإنما ينجيهِ من الشقاء التقوى.

والتقوى هي التحصّن من تسرّب الرذائل إلى نفس الإنسان أو تسلّل الموبقات إلى سلوكه.. وأنثذ يكون الإنسان من الصفاء درجة، يتعادل فيه الخوف من عقاب الله، والرجاء لثوابه. ويعيش بين هذا وذاك حركة دائبة، لعلها هي الكدح المستمر الذي قال عنه ربنا سبحانه: ﴿يَتَأْتِيَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدًّا فَلَمْلَمِيهِ﴾^(١).

(١) سورة الانشقاق، آية ٦

إنه يسعى أبداً ليسلم الأمانة الإلهية التي كُلف بها إلى بارئه
وبكل نزاهة وإخلاص، كما قَبِلَ بتحملها من قبل.

ثم الله تعالى هو عالم الغيب والشهادة، فهو لا يخدعه مظهر خلاب،
بل ينظر إلى قلب أوّاب، لأن اجتناب الكبائر عمل ظاهر، بينما التقوى
حقيقة باطنة تظهر في السلوك. فالله تعالى هو خيرٌ بالأسباب التي تدفعه
إلى ارتكاب الموبقات، كما هو خير بالأسباب التي تدعوه إلى اجتنابها.

بصائر وأحكام

١ - لأن الله تعالى شأنه أعلم بحقيقة الإنسان ويعلم من أي
خلفية تاريخية وظروف متفاوتة قد قدم إلى الدنيا وفي أي بطن ترعرع،
ويعلم كل تأثيرات الطينة والأبوة والأمومة عليه.. فلا مبرر أن يعمد
إلى تزكية نفسه، لأنه لا يعرف بالضبط من هو، وما هي قابلياته، وما
تأثيرها إيجاباً أو سلباً في عوالمه السابقة.. ولأن تزكية النفس نوع من
الغرور الذي يجلب الإنسان عن فرص التكامل.

٢ - إن العزة كل العزة حين يحقق ابن آدم لنفسه حقيقة القرب
من الله عبر ورعه وتقواه واجتنابه الآثام والموبقات والفواحش، ثم
يعمد إلى إثبات الأعمال الصالحة بمواصفاتها المذكورة في كتاب الله تعالى.



أفرايت الذي تولى؟

﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى ﴿٣٢﴾ وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى ﴿٣٤﴾﴾.

تفصيل القول

هذه مجموعة آيات كريمة تعكس منهج القرآن في معالجة المشكلة الإنسانية. كيف ذلك؟

حين يُذكرنا القرآن المجيد بما في الحياة الدنيا، يتحدث أيضاً عن الآخرة وما فيها. وإذا تحدث عن الجاهلين أرفق حديثه بحديث عن العلماء؛ وكذلك يتحدث عادة عن المنافقين والمؤمنين في سياق واحد. وهكذا ترى أن السياق يذكرنا بالجانب السلبي من حياة البشر وما قد تكون فيها من صفات رذيلة.

ثم إن السياق القرآني يذكر الصفات بوصفها منظومة مترادفة،

ولا يتم الحديث عنها غالباً أيضاً عبر إيراد صفة واحدة. ولقد قدّمنا القول في مطلع تفسير هذه السورة المباركة: إن التمييز بين الحق والباطل، والتمكن من إيجاد ميزان داخلي في ضمير الإنسان، قضية مهمّة جدّاً للحياة. وهناك مناهج شتى مذكورة في الكتاب تفيد في هذا الحقل، ومنها بيان هذه المفارقات بين منظومات الصفات الحسنة والسيئة، التي عادة ما تكون مجتمعة إلى بعضها. فإذا رأيت صفة واحدة؛ حسنة أو سيئة في إنسان ما، فلا تُصدر حكماً القاطع تجاهه، وإنما الحكم يتأتى حين اجتماع منظومة من الصفات حسنة كانت أو سيئة، ليكون الحكم واضحاً وشفافاً، فيتم التمييز الحق.

والله سبحانه ذكّرنا في آية سابقة عن الذين أحسنوا، وإنما قدّمهم لشرفهم، ويُنّ جملة من صفاتهم، وأوضح طبيعة جزائهم الذي يشاكل عملهم.. وهنا يُبيّن صفات المنافقين.

وإن استعراض مجموعة صفات لكلا الفريقين يُنبّه إلى لزوم عدم الاغترار ببعض ممارسات الطغاة الذين يسفكون الدماء من جانب، ويتقدّمون ببعض الأعمال الخيرية من جانب آخر.

وكذلك العكس، حيث نجد المؤمن يتمتع بجملة صفات إيجابية، ولكنه قد يُلمّ به بعض الممارسات الخاطئة؛ فلا يجوز أن تُسقطه من أعيننا لتلك الصفة.

بلى؛ إن من صفات الذين أساءوا:

- ١- الإعراض والتولي عن الحق، وعن ذكر الله.
- ٢- البخل في العطاء، والامتناع عن التضحية.
- ٣- الجهل بالحقائق، وانعدام البصيرة.
- ٤- الجهل بالعاليم الإلهية النازلة على بني البشر عبر التاريخ.

فالمسيئون فيهم صفة جذرية، ولعلها الأساس والدافع لكل ممارساتهم الفاسدة، وهي أنهم لا يكلّفون أنفسهم عناء الاستماع إلى الوعظ الإلهي والوحي الرباني، وبالتالي فهم يعرضون ويتولون عن الحق والحقائق ومجمل الثوابت التي جعلها الله لحياة بني البشر على الأرض بداعي التكبر والغرور والانكباب على الدنيا.

بصائر وأحكام

إن التمييز بين الحق والباطل، والتمكن من إيجاد ميزان داخلي في ضمير الإنسان، قضية مهمة جدًا للحياة.



أَعْنَدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ؟

﴿أَعْنَدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ بَرِيءٌ﴾



تفصيل القول

كما أن التهرُّب من المسؤولية أم كل فساد عَقَدِي أو سلوكي عند البشر، فإن الإيمان بالله سبحانه وأنه المَلِكُ المهيمن على تدبير ما في السماوات والأرض وحده لا شريك له ولا شفيع عنده إلَّا بإذنه، وأن سُنَّتَهُ قائمة على الجزاء العادل للبشر؛ فمن أساءوا فلهم بقدر إساءتهم، وإن أحسنوا فبما هو خير من عملهم. إن هذا الإيمان يُرَسِّخُ بصيرة المسؤولية عند الإنسان ويُطَهِّرُ قلبه من كل شرك وشك ومن اتِّباع الهوى. أما من تولى عن هذه الحقيقة فهو يتشبث بالظن في أمر دينه وما فيه مصيره الأبدي. فيا له من خاسر، إنه جاهل تماماً بما في الغيب من حقائق، فكيف يقول فيه ما لا يعلمه؟

إن من يتكلّم في أمر الغيب لا بد أن يكون ممن عنده علمه،
بحيث يراه كما رأى رسول الله عند ربه ما رأى من حقائق.

وهكذا نستفيد من الآية الكريمة مدى ضلالة من يعتمد في
أمره المصيرية على الظنون.

كلّا؛ علينا أن نتثبت في أمور الآخرة ونؤمن بما يرفع الشك عنا
ويزيل كل شبهة، ولا يكون ذلك إلّا عند الإيمان بالله وبالوحي، ولا
يجوز لأحد أن يقول في أمور الدين ما ليس له به علم.

بصائر وأحكام

أمّ الفساد عند بني آدم التهرّب من حقيقة المسؤولية، ولا يصلح
إلّا الإيمان بالله سبحانه، وأنه الملك الذي يُجازي الناس بما عملوا، ولا
شفيع إلّا من بعد إذنه.



المسؤولية جوهر الرسائل

﴿أَمْ لَمْ يُنَبِّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ﴿٣٧﴾﴾.

من الحديث

عن أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (في حديث) قال: «يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ فَمَا كَانَتْ صُحُفُ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ؟»

قَالَ: كَانَتْ عِبْرًا كُلُّهَا؛ وَفِيهَا: عَجَبٌ لِمَنْ أَيْقَنَ بِالنَّارِ ثُمَّ يَضْحَكُ، عَجَبٌ لِمَنْ أَيْقَنَ بِالْمَوْتِ كَيْفَ يَفْرَحُ، عَجَبٌ لِمَنْ أَبْصَرَ الدُّنْيَا وَتَقَلَّبَهَا بِأَهْلِهَا حَالًا بَعْدَ حَالٍ ثُمَّ هُوَ يَطْمَئِنُّ إِلَيْهَا، عَجَبٌ لِمَنْ أَيْقَنَ بِالْحِسَابِ ثُمَّ لَمْ يَعْمَلْ»^(١).

وعن أبي حمزة، عن أبي جعفر عَلَيْهِ السَّلَامُ، قال: «قُلْتُ لَهُ: مَا عَنِ يَقُولِهِ: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ﴾؟ قَالَ: كَلِمَاتٍ بَالِغٌ فِيهِنَّ. قُلْتُ: وَمَا هُنَّ؟ قَالَ: كَانَ إِذَا أَصْبَحَ قَالَ: أَصْبَحْتُ وَرَبِّي مُحَمَّدٌ، أَصْبَحْتُ لَا أَشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا،

(١) الأُمَالِي، الشيخ الطوسي، ص ٥٤٠

وَلَا أَدْعُو مَعَهُ إِلَهًا، وَلَا أَخِذُ مِنْ دُونِهِ وَلِيًّا ثَلَاثًا، وَإِذَا أَمْسَى قَالَهَا ثَلَاثًا^(١).

تفصيل القول

كان أهل الكتاب يتبعون صحف موسى عليه السلام، بينما كانت العرب تزعم أنها تستلهم من إبراهيم عليه السلام أفكارها. والسؤال: هل كانت تلك الشريعتان تسمح للإنسان بالتهرب عن مسؤولية أفعاله؟ كلاً؛ لا أحد منهم كان يُمكنه ذلك الزعم، لأنه كان مخالفاً للعقل ولما تناقلوه من أصول الشرائع الإلهية، ومسؤولية الإنسان من أبرزها وأعظمها. وهكذا يُذكر ربنا الناس جميعاً بجوهر الرسالات الإلهية، وبالذات يُذكرهم بالنبي إبراهيم عليه السلام الذي لم يبلغ ما بلغه من الكرامة عند الله إلا بوفائه بما أمره الله به حين ابتلاه بكلمات فأتَمَّهن، فرفعه إلى مقام الإمامة. إنه حطم الأصنام في بابل، وعرض نفسه للحرق، وهاجر من بلاده في الله، وسلَّم لما رآه في المنام أنه يذبح ابنه، وتلَّ ابنه للجبين حتى ناداه ربه أن صدَّقت الرؤيا يا إبراهيم. وكان الأحرى بمن يتبع ملة إبراهيم عليه السلام أن يفِي كما وُفِّي، ويسلَّم نفسه للمسؤولية بسكينة تامَّة.

بصائر وأحكام

تحمل المسؤولية من أبرز وأعظم أصول الشرائع الإلهية.

(١) الكافي، الشيخ الكليني، ج ٢، ص ٥٣٥.



ألا تنزر وازرة وزر أخرى

﴿أَلَا نُنَزِّرُ وَاِزْرَةً وَزَرَ أُخْرٰى﴾ (٣٨)

من الحديث

قال الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام (في حديث):
«وَلَا يَأْخُذُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الْبَرِيءَ بِالسَّقِيمِ، وَلَا يُعَذِّبُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ
الْأَطْفَالَ بِذُنُوبِ الْآبَاءِ، فَإِنَّهُ تَعَالَى قَالَ فِي مُحْكَمِ كِتَابِهِ: ﴿أَلَا نُنَزِّرُ وَاِزْرَةً
وَزَرَ أُخْرٰى﴾»^(١)، وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَأَنْ لِّسَ لِلْإِنْسَنِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ (٣٩) وَأَنَّ
سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى»^(٢). وَلِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَغْفُوَ وَيَتَفَضَّلَ، وَلَيْسَ لَهُ عَزَّ
وَجَلَّ أَنْ يَظْلِمَ»^(٣).

(١) سورة الأنعام، آية ١٦٤.

(٢) سورة النجم، آية ٣٩ - ٤٠.

(٣) الخصال، الشيخ الصدوق، ص ٦٠٨.

تفصيل القول

عمل الإنسان جزء من كيانه. أرأيت كيف أن الماء الذي تُسقى به الشجرة فتخضر كيف أنه تمدد فيها، والحرارة التي تكتسبها الأرض من الشمس كيف أنها جزء منها؟ كذلك عملك، فأنت الذي تصرف فيه طاقاتك الفكرية والمادية.

وهكذا فإنه لك، شئت أم أبيت، خيراً كان أو شراً.

وهكذا نقرأ في كتاب ربنا: ﴿فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾^(١).

وهذا الجزء المنفصل مُحمّل على عاتقه، وهل يحمل الحمل إلا صاحبه؟ ولكن البشر يسعى أبداً للتخلص من الحمل السيئ ويُلقيه على عاتق غيره، فهل يحمله؟ كلا؛ لأن له ما يكفيه من حمل. إن النفس التي تزر وتحمل أثقالاً من عملها، لا تزر ولا تحمل أوزار غيرها.

أرأيت المجرم في المحكمة كيف يتّهم الناس يمينه ويسره، كي يُبرر نفسه؟ ولكن هيهات.

وكل إنسان هذا دأبه؛ أظهر أم أضمر، يريد التهرب من وزر أفعاله، فيلقوها على آبائه، على بيته، على رفاقه، وحتى على بارئه سبحانه. فقط فقط هو الذي يزعم أنه ليس مسؤولاً عنه، وهيهات.

(١) سورة يس، آية ٥٤.

بصائر وأحكام

لأن عمل الإنسان جزء منفصل منه، فإنه يحمله الذي يختص
بكاهله، ولا تحمل كل نفس إلا عملها، لأنها هي الأخرى مثقلة
بالحمل.



ليس للإنسان إلا ما سعى

﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ (٣٩)

تفصيل القول

لقد حَوَّلَ ربنا الإنسان صلاحية التحكم بنفسه وما فيها من طاقات، ومنها عمله وما يكتسبه بسعيه. فهو إذ يملك - بإذن الله - نفسه، يملك سعيه، وأما سعي غيره فلا يجوز له أن يتسلَّط عليه، وإلَّا فهو ظالم ومعتدٍ على حق غيره.

وهذه البصيرة التي يهديننا إليها الشرع والعقل والعرف، إنها أصل لكثير من القواعد الحقوقية التي لو تمسَّك البشر بها إذاً لسعدوا وعاشوا في وئام وفي بحبوحة من الحيوية، إذ لا يستحوذ أحد على سعي غيره فيضطر للممارسة حقه ضمن سعيه، فكلما رغب في المزيد من النعم ازداد سعيًّا.

وهكذا تجد الآية شاملة في بيان حدود ملكية البشر؛ سلباً وإيجاباً، فهو لا يملك إلا نفسه وما يتصل بها من سعيه، الذي يُشترط فيه الحركة والإرادة الحرة. وكل ما يُسمّى سعيّاً يملكه، وكل ما يفقد خصوصية السعي ينحسر عنه ملكه.



بصائر وأحكام

على الإنسان أن يقتصر في الانتفاع بما يُنتجه سعيه ويكسبه بعمله دون أن يتجاوز ذلك إلى سعي الآخرين.



وَأَنْ سَعِيهِ سَوْفَ يَرَى

﴿وَأَنْ سَعِيهِ سَوْفَ يَرَى﴾

تفصيل القول

كل حركة مقصودة سعي، وكل نفس رهينة بسعيها، وأن هذا السعي لا يذهب هدرًا، بل هو باقٍ في ملكوت السماوات والأرض مُقدَّرًا محفوظًا، ومُحدَّدًا بزمانه ومكانه وكل صفاته، وسوف يتراءى لصاحبه في يوم. أليست صفحة الدنيا انبسطت لنا اليوم على امتداد عمرنا؟ أوليست هذه الصفحة بالذات تُطوى ثم تنبسط مع سائر المخلوقات كما قال ربنا سبحانه: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدَّا عَلَيْنا إِنَّا كُنَّا فاعِلِينَ﴾^(١).
لم تكن الأجهزة المصوّرة واللاقطه والفديو وغيرها معروفة

(١) سورة الأنبياء، آية ١٠٤.

يوم نزل الوحي، ولكنها اليوم تُعيد علينا جزءاً من حقائق الماضي. من يقول: إن تقدم البشر العلمي لا يتقدم يوماً لكي يعيد إلينا أكثر من هذه الأبعاد، حتى نبضات القلب ووساوس الصدر وما صرف البدن من طاقة وما انبعث منه من حرارة وغيرها.

أما عند الله فإن كل الأعمال بما عليها من صبغة النية محفوظة، وسوف نراها وبكل وضوح؛ فإن كانت صالحة سرّتنا، وإن كانت سيئة أضرتنا، ويومئذٍ يخسر المبطلون.

بصائر وأحكام

لأن كل سعي يُمارسه البشر سوف يراه، فإن علينا أن نبذل قصارى جهدنا ليكون سعينا مشكوراً.



ثم يجزاه الجزاء الأولي

﴿ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوَّلَى ﴾ (٤١)

من الحديث

قال رسول الله ﷺ: «مَنْ صَلَّى الْخُمْسَ فِي الْجَمَاعَةِ، وَحَافَظَ عَلَى الْجُمُعَةِ، فَقَدْ اكْتَالَ الْأَجْرَ بِأَلْفِ مِائَةِ مِائَةٍ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوَّلَى ﴾»^(١).

تفصيل القول

كما يبدو من آيات كريمة أن هناك نوعين من الجزاء يصيب البشر بسعيه:

الأول: العمل ذاته يعود إليه بعد أن يتجسّد؛ فصلاته تأتيه في

(١) مستدرک الوسائل، الميرزا النوري، ج ٦، ص ٤٤٨.

صورة شاب جميل يؤنسه، بينما يتجسّد عمله السيئ في صورة قبيحة (حية أو عقربة أو نار أو ريح متتنة)، وذلك قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ (١). وقال تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٢).

الثاني: ما أعدّه الله سبحانه للمحسن أو للمسيء من جزاء؛ فمن أطاع الله أعد الله له جنات تجري من تحتها الأنهار فضلاً منه وثواباً، ومن عصى الله سبحانه أعد الله له سعيراً.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ (٣) إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلًا وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا (٤) إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا (٥).

وقال تعالى: ﴿الْيَوْمَ يُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (٦).

والملاحظ هنا الفرق بين قوله سبحانه: ﴿مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في سورة يس، وقوله تعالى هنا: ﴿بِمَا كَسَبَتْ﴾.

ولعل الآية هنا تشمل كلاً النوعين من الجزاء، فإذا به الجزاء الأول في الذي لا يختصر على عودة السعي بكل تفاصيله إليه في صورة مجسّدة؛ حسنة أو قبيحة، وإنما يُجزى على الطاعة أو المعصية ثواباً من عند الله أو عقاباً أليماً.

(١) سورة الزلزلة، آية ٧-٨.

(٢) سورة يس، آية ٥٤.

(٣) سورة الإنسان، آية ٣-٥.

(٤) سورة غافر، آية ١٧.

بصائر وأحكام

لكل سعي نوعان من الجزاء؛ فالسعي يتجسّد له بصورة حسنة أو قبيحة، ويُضاف إليهما ما أعدّه الله للطائعين والعاصين من ثواب أو عقاب. وهكذا فجزاؤه به يكون الأوفى.



إلى ربك المنتهى

﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ﴾ ﴿٤٢﴾.

من الحديث

عن سليمان بن خالد، قال: «قال أبو عبد الله عليه السلام: «يَا سُلَيْمَانُ؛ إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ﴾، فَإِذَا انْتَهَى الْكَلَامُ إِلَى اللَّهِ فَأَمْسِكُوا»^(١).

وقال الإمام محمد الباقر عليه السلام: «تَكَلَّمُوا فِي خَلْقِ اللَّهِ، وَلَا تَتَكَلَّمُوا فِي اللَّهِ، فَإِنَّ الْكَلَامَ فِي اللَّهِ لَا يَزِدَادُ صَاحِبَهُ إِلَّا تَحِيْرًا»^(٢).

وعن زرارة، قال: «قُلْتُ لِأَبِي جَعْفَرٍ عليه السلام: إِنَّ النَّاسَ قَبْلَنَا قَدْ أَكْثَرُوا فِي الصِّفَةِ، فَمَا تَقُولُ؟ قَالَ: مَكْرُوهٌ، أَمَّا تَسْمَعُ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿وَأَنَّ

(١) المحاسن، الشيخ أحمد بن محمد البرقي، ج ١، ص ٢٣٧

(٢) الكافي، الشيخ الكليني، ج ١، ص ٩٢

إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ ﴿١﴾ تَكَلَّمُوا فِيهَا دُونَ ذَٰلِكَ ﴿٢﴾.

تفصيل القول

أين يتقرر مصير ابن آدم؟ وأين يجري تدبير شؤون العالم؟ وهل الخلق قطار بلا قائد أو سفينة بلا ربان، أم أن هناك مشيئة عليا بالغة الحكمة، واسعة القدرة، لطيفة التدبير، عزيزة لا تُضام، محيطة لا تُخترق، ويُمكننا نحن البشر -الذين تحيط بنا أعاصير المؤثرات- أن نطمئن إليها ونسعى في سبيل السلام نحو كل خير دون أن نخاف دركاً أو نخشى؟

بلى؛ تلك هي مشيئة الرب تعالى اسمه، الذي يقول: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾ (٢).

هناك حيث لا يسمو إليه عقل عاقل، ولا يجوز أن يتناولوه أحد بالتفكير، إنه الله سبحانه. ولأننا بحاجة إلى ركن شديد نعتمده في مواجهة وساوس النفس وإلقاءات إبليس التي تقول: كيف الجزاء؟ ومتى؟ ولماذا؟

كلاً؛ عند الله كل شيء، فإليه الرجعى، وإليه المصير، وعنده الجزاء الأوفى.

دعنا إذاً نمسك عن الكلام فيما لا يرقى إلى رحابه فكر، ونحصر الكلام فيما أوتينا علمه ممّا فرض علينا من السعي السليم والعمل الصالح. ودعنا نقرأ مقطوعة رائعة من الأدعية الماثورة التي يخاطب به

(١) وسائل الشيعة، الشيخ الحر العاملي، ج ١٦، ص ٢٠٠.

(٢) سورة طه، آية ٥.

المؤمن ربه: «إِلَهِي طُمُوحُ الْأَمَالِ قَدْ خَابَتْ إِلَّا إِلَيْكَ، وَمَعَاكِفُ الْهَمَمِ قَدْ تَعَطَّلَتْ إِلَّا عَلَيْكَ، وَمَذَاهِبُ الْعُقُولِ قَدْ سَمَتْ إِلَّا إِلَيْكَ، فَأَنْتَ الرَّجَاءُ، وَإِلَيْكَ الْمُرْتَجَى، يَا أَكْرَمَ مَقْصُودٍ وَيَا أَجْوَدَ مَسْئُولٍ، هَرَبْتُ إِلَيْكَ بِنَفْسِي يَا مَلْجَأَ الْهَارِبِينَ بِاثْقَالِ الذُّنُوبِ أَحْمِلُهَا عَلَى ظَهْرِي، لَا أَجِدُ لِي إِلَيْكَ شَافِعاً سِوَى مَعْرِفَتِي بِأَنَّكَ أَقْرَبُ مَنْ رَجَاهُ الطَّالِبُونَ، وَأَمَلُ مَا لَدَيْهِ الرَّاعِبُونَ»^(١).

إذا ضمان تحقق الجزاء الأوفى هو تدبير الرب سبحانه. فلا يجوز لنا أن نُسَوِّلَ لأنفسنا عمل السوء، زعماً أننا قد نتَهَرَّبَ من الجزاء. ولا نستمتع إلى وسوسة الشيطان في أمر السعي الحسن، فتساءل: من يضمن أن يرجع إلينا جزاءه؟

كلّا؛ فما دام تدبير الرب مهيمناً على مجريات الأمور، فلا يُفْلَتُ مجرم ولا يضيع عمل عامل أبداً.

بصائر وأحكام

الإيمان بالله سبحانه، وأنه المهيمن المُدَبِّر، إنه ضمان الجزاء الأوفى. فإليه سبحانه المنتهى؛ منتهى أعمال العباد، ومنتهى عقولهم، فلا يجوز الكلام فيه.

(١) مفاتيح الجنان، الشيخ عباس القمي، ص ٣٤ من أعمال ليلة الجمعة.



هو أضحك وأبكى

﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى﴾ ٤٢ ﴿﴾

تفصيل القول

هنالك سلسلة من الأسباب تنتهي عند البشر إلى الضحك والبكاء؛ فأسباب المسرة البالغة التأثير مثل حصول الفقير على جائزة كبيرة، ومثل أول مولود للزوجين بعد انتظار طويل، ومثل لحظة استلام شهادة التخرج، وما إليها.. إنها لو صادفت قلباً شكوراً، لا خاملاً ولا كفوراً، فإنها تتسبب في الضحك الذي هو التعبير الصارخ عن السرور الكبير.

وهكذا من جهة ثانية، لا تدعو البشر إلى البكاء إلا مصيبة كبيرة ينهار جلدّه بها. وابتداءً من وقوع المصيبة إلى تأثيرها في النفس هناك منظومة من العوامل المتسلسلة، وكل ذلك بيد الله سبحانه، فإنه هو

المضحك المبكي، فييده مقادير الفرد المختلفة. فعلينا التحلي بالسكينة التامة، لأن من بيده المقادير هو الرب الرحيم العزيز الحكيم.

وهكذا يجب ألا نخالف صراط الحق، طلباً لبعض السرور أو هرباً من بعض الضرر.

كلّا؛ علينا الاستقامة على الطريق، ونتوكّل على الحي القيوم، الذي بيده تدبير أمورنا، وتدبير العالم من حولنا سبحانه وتعالى.

بصائر وأحكام

لأنّ ما يسرّنا حتى الضحك ويحزننا حتى البكاء بيد ربنا الرحيم العزيز الحكيم، فعلينا أن نطمئن إليه وإلى جزائه الأوفى.



هو أمات وأحيا

﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾

تفصيل القول

كلما تأملنا فيها حولنا وتفكرنا في حياتنا: كيف بدأت؟ وكيف تنتهي؟، ثم كلما ازدادت معرفتنا بربنا واطمأنت نفوسنا بذكره تعالى، تعمّقت في نفوسنا سُنن الجزاء الحاكمة على العباد.

هذه السُنن التي لو استوعبها الإنسان لاستقامت مسيرته، ولم يتأثر بعواصف الشهوات وأعاصير الضغوط، ولم تضعف بصيرته بوساوس إبليس ولا بالثقافة الشركية التي يُبرّر بها الجاهلون أخطاءهم.

إن كل سرور وكل حزن، وبالتالي كل خير وكل شر، فإنما هو بيد الرب ويجري وفق تدبيره الحكيم. أما بداية حياتنا وكذلك نهايتها فهما بيده، لا بيد غيره سبحانه.



بصائر وأحكام

من أعظم فوائد ذكر الله ومعرفة تدبيره التام لحياتنا، أَنَّهُ يُورث
الإنسان سَكينة يتحدَّى بها الأهواء والوساوس التي تتمثل في الثقافة
الشركية.



خلق الزوجين الذكر والأنثى

﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى﴾ (٤٥)

تفصيل القول

لأن القرآن المجيد يتحدث إلى الوجدان مباشرة، فإن الإنسان لن يفهمه ما لم يفتح عليه بفطرته ويتخلص مما لديه من رواسب وحجب.. فإن كتاب الله المجيد لا يفهم عبر المسبقات الذهنية أو من خلال منهج فكري غريب عنه، وإنما يفهم القرآن بالقرآن ومن خلال إشارات النبي ﷺ وأهل البيت عليهم السلام، باعتبارهم عدلاً له ومفسرين له.

وهنا تُشير هذه المنظومة من الآيات إلى علائم التدبير الذي نراه في خلق الله تعالى، إذا نظرنا إلى ما حولنا نظرة دقيقة ومن دون حجب أو أفكار مسبقة.

فَمَنْ غَيْرُ الرَّبِّ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ خَلَقَ بَيْنَ الذَّكَرِ وَالْأُنْثَى هَذَا
التَّكَامُلَ وَالنَّظْفَةَ وَاحِدَةَ وَالرَّحِمَ وَاحِدًا؟ أَرَأَيْتَ مُصْنَعًا يَنْتِجُ نَوْعَيْنِ
مِنَ السَّيَّارَاتِ مُخْتَلِفَيْنِ وَلَكِنْ مُتَكَامِلَيْنِ؟
إِنَّ هَذِهِ الْقُدْرَةَ الْوَاسِعَةَ هِيَ الَّتِي تُنْشِئُ الْخَلْقَ نَشْأَةً أُخْرَى.

بصائر وأحكام

لَا يُفْهَمُ كِتَابُ اللَّهِ الْمَجِيدِ عَبْرَ الْمُسَبِّقَاتِ الذَّهْنِيَّةِ أَوْ مِنْ خِلَالِ
مَنْهَجٍ غَرِيبٍ عَنْهُ، وَإِنَّمَا يُفْهَمُ الْقُرْآنُ بِالْقُرْآنِ وَمِنْ خِلَالِ إِشَارَاتِ النَّبِيِّ
ﷺ وَأَهْلِ الْبَيْتِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، بِاعْتِبَارِهِمْ عِدْلًا لَهُ وَمُفْسِرِينَ لَهُ.



من نطفة إذا تمنى

﴿مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى﴾ ﴿٤٦﴾ .

تفصيل القول

لقد خلق الله سبحانه الذكر والأنثى من النطفة نفسها، فيخرج ذكراً تارة، وتارة أنثى؛ كما تنبت شجرة الزيتون مثلاً إلى جانب شجرة البرتقال، وهما تشتركان في التربة نفسها، والماء نفسه، والهواء نفسه، والأملاح نفسها.. ولكن الأولى تُثمر زيتوناً، والثانية تُثمر برتقالاً.

سبحان الله في قدرته وحُسن تدبيره.. كذلك يخلق الإنسان بشكليته من مقدار بسيط من الماء.

وتكامل الذكر والأنثى، الذي يغور في أعماق خلقهما عقلاً وعاطفة وجسداً، يهدينا إلى عظيم قدرته سبحانه، والنطفة واحدة، والصلب واحد، والرحم واحد. ثم إن تقارب عدد الذكور والإناث

في العالم يدلنا على عظيم التدبير للخليقة، وإلى الهيمنة التامة للرب
تعالى على خلقه سبحانه.

ولعل معنى كلمة تُمْنَى بمعنى تقدر. ويبدو أنها إشارة إلى تلك
الدقة واللفظ في صنعة الخلق، حيث يختلط ماء الرجل بماء المرأة
ويكون منشأ خلقه البشر.



بصائر وأحكام

إن تكامل الذكر والأنثى الذي يغور في أعماق خلقهما عقلاً
وعاطفة وجسداً، يهدينا إلى عظيم قدرته سبحانه، وحسن تدبيره،
ومدى هيمنته على الكائنات.



وإن عليه النشأة الأخرى

﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْآخِرَىٰ﴾ (٤٧)

تفصيل القول

لا بد لهذا الإنسان المخلوق من رجعة يقف حينها بين يدي الخالق، ليرى جزاء عمله؛ إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.. تلك النشأة الأخرى -الثانية- هي التي ألزم الله بها نفسه، فقال: ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ﴾.

فلا يظنّ جاهل بأن الله قد يشاء غيرها في حين من الأحيان. كلاً؛ ما يلزم الله به نفسه لا بد أن يتحقق، لأنه لا يُخلف وعده سبحانه. والله سبحانه الذي لطف صنعه، حتى خلق البشر من نقطة إذا تُمنى، هو القادر على نشأتهم من جديد من رحم الأرض، كما أنشأهم من رحم الأمهات.

بصائر وأحكام

لا بد للمخلوق من رجعة يقف خلالها بين يدي الخالق، ليرى
جزاء عمله؛ إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.



هو أغنى وأقنى

﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى﴾ (١٨)

من الحديث

قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام في قول الله: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى﴾ «أَغْنَى كُلَّ إِنْسَانٍ بِمَعِيشَتِهِ، وَأَرْضَاهُ بِكَسْبِ يَدِهِ»^(١).

تفصيل القول

لقد أعطى الرب الكريم الحكيم للإنسان ما يُغنيه على الصعيد المادي والمعنوي، ثم أعطاه هو لا غيره فوق حاجته وفوق غناه. والغنى يتحقق بما يتفضل به الرب على عباده من الإمكانيات. أما الإقناء فهو - حسب الظاهر - تحوّل تلك الإمكانيات إلى أدوات بيد

(١) تفسير القمي، الشيخ علي بن إبراهيم القمي، ج ٢، ص ٣٣٩.

الإنسان لاستمرار حياته بما يقتنيه.

وعلى هذا فالآية تشير إلى أن مجرد وجود الإمكانيات لا يكفي، بل لا بد من تحويلها إلى وسائل حياتية ضرورية للمعيشة، وهذه نعمة أخرى. فامتلاك الخشب والحديد والمعادن وسائر المواد الخام نعمة. وقدرة الإنسان على تحويل الخشب إلى أثاث البيت، والحديد إلى أدوات المطبخ، والمعادن إلى سيارات وطائرات وغيرها.. إنها هي الأخرى نعمة كبيرة؛ وكلها من عند الرب، فإنه هو الذي وهب الإنسان قدرة على تسخير ما في الأرض لخدمته.

بصائر وأحكام

إن مجرد وجود الإمكانيات المادية لا يكفي للتنعم بها، بل لا بد من تحويلها إلى وسائل للمعيشة، وهو ما نسميه اليوم بالتقنية، وهما معاً من عند الله سبحانه.



هو رب الشعري

﴿وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشَّعْرَى﴾.

تفصيل القول

لماذا كانت العرب تقُدس الشَّعْرَى، وهي نجمة تطلع في آخر الليل، وموقعها خلف الجوزاء؟.

لعلهم اكتشفوا بعض الآثار منها في حياتهم. وأتى كان فإنَّ رب الشَّعْرَى أولى بالعبادة منها، وهكذا رب الشمس أولى بالعبادة منها.

إن ضلالة البشر عن الرب سبحانه جعلتهم يتشبثون بكل مؤثر في حياتهم فيعبُدونه، غافلين عن المدبِّر المهيمن على كل الخلق.

بصائر وأحكام

إن ضلالة البشر عن الرب سبحانه جعلتهم يتشبثون بكل مؤثر
في حياتهم فيعبدونه، غافلين عن المدبر المهيمن على كل الخلق.



أهلك عاداً الأولى

﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ﴾

تفصيل القول

لقد كانت عاد من الحضارات البشرية البائدة، التي أهلكها الله وأفناها عن آخرها؛ لكي نعلم أن الله الذي هو أرحم الراحمين في موضع العفو والرحمة، هو أيضاً أشد المعاقبين في موضع النكال والنقمة.

إن على الإنسان أن يعرف ربه، ولكن كيف يعرفه؟ إنما بأسمائه الحسنی التي تُذكر بها آيات الذكر عبر الإشارة إلى الأمثال (كقصة الأمم التي بادت)، وعبر آيات الله في خلقه (ودلائل هيمنته).

وهكذا ذكّرنا آيات الذكر الماضية بقدره الرب الواسعة، وتدبيره الحكيم حين أضحك وأبكى، وخلق الزوجين الذكر والأنثى من نطفة. وهنا يُذكرنا بقدرته وتدبيره في إنزال أقصى العقوبات بقوم

عاد حتى أهلكهم، لنعرف أن بيده الأمر من قبل ومن بعد.

بصائر وأحكام

علينا أن نعلم أن الله الذي هو أرحم الراحمين في موضع العفو والرحمة، هو أيضاً أشد المعاقبين في موضع النكال والنقمة، وأن أسماؤه الحسنی تتجلى في خلقه وفي تدبير شؤون عباده الصالحين حين ينصرهم، والطالحين حين يُعاقبهم.



وَنُمُودُ فَمَا أَبْقَى

﴿وَنُمُودَا فَمَا أَبْقَى﴾ (٥١)

تفصيل القول

في كلمات معدودات اختصر البيان القرآني قصة حضارة كبيرة، كيف أفناها الرب حتى لم تبقَ منهم باقية. والقصة مُفَصَّلَةٌ في مواطن أخرى، إلا أن الإشارة إليها هنا للتذكرة بأن الله سبحانه مُنتَقِم جَبَّار، وعلينا أن نمتلئ خشية منه ونفرّ منه إليه سبحانه.

بصائر وأحكام

قصة نُمُود تُذكّرنا بأن الله سبحانه مُنتَقِم جَبَّار، وعلينا أن نمتلئ خشية منه ونفرّ منه إليه سبحانه.



هم أظلم وأطغى

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى﴾ ﴿٥٤﴾.

تفصيل القول

وقوم نوح عليه السلام كانوا ﴿أَظْلَمَ﴾؛ أي أكثر ظلماً لأنفسهم ولغيرهم؛ وأكثر شركاً، باعتبار الشرك ظلماً عظيماً.

وكانوا ﴿أَطْغَى﴾؛ أي أكثر خروجاً على العدل، ولعله كان بسبب تواتر النعمة عليهم وتوافر وسائل القوة بأيديهم فلم يشكروا ربهم ولم يمنعهم الخوف من سلب النعم دون ممارسة أقصى أشكال الظلم تجاه غيرهم.

وبمستوى ظلمهم وكفرهم ومكرهم، مَكَرَ الله تعالى بهم.. ذلك لأنهم وصلوا مرحلة من الفساد والكفر، أنهم ما عادوا يلدون إلا الفاجر الكفار؛ أي إن الفساد تسرَّب إلى نطفهم، فأهلكهم الله كما لم يُهلك غيرهم.

بصائر وأحكام

بمستوى الظلم والكفر ينزل العذاب الإلهي؛ وهكذا فعل الله
بقوم نوح عليه السلام.



والمؤتفكة أهوى

﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى﴾ (٥٣)

من الحديث

قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «يَا أَهْلَ الْبَصْرَةِ، وَيَا أَهْلَ الْمُؤْتَفِكَةِ.. (إلى أن قال:): اتَّفَكْتُ بِأَهْلِهَا مَرَّتَيْنِ، وَعَلَى اللَّهِ تَمَامُ الثَّالِثَةِ، وَتَمَامُ الثَّالِثَةِ فِي الرَّجْعَةِ»^(١).

وقال الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام، في قول الله تعالى: ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى﴾ «هُمْ أَهْلُ الْبَصْرَةِ، هِيَ الْمُؤْتَفِكَةُ»^(٢).

(١) تفسير القمي، الشيخ علي بن إبراهيم القمي، ج ٢، ص ٣٣٩ - ٣٤٠.

(٢) الكافي، الشيخ الكليني، ج ٨، ص ١٨١.

تفصيل القول

المؤتفكة هي قرى قوم النبي لوط عليه السلام، التي قلبها الرب سبحانه، وأهوى بها إلى تخوم الأرض. وقد جرت تلك الواقعة في أهل البصرة وفي كثير من البلاد التي خرجت من بيت الطاعة وتاهت في بلاقع المعصية.

بصائر وأحكام

تجلّت قدرة الرب سبحانه في القرى التي انقلبت بالعذاب، سواءً في قرى لوط عليه السلام أو غيرها.



فَغَشَّاهَا مَا غَشَّاهَا

﴿فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى﴾ ٥٤ ﴿﴾.

تفصيل القول

فإذا بالعذاب يهيم عليها من كل جانب، وحرف ﴿مَا﴾ يدل على خطورة الأمر. ولكن هل العذاب نَزَلَ بهم أو أُنْزِلَ بهم؟ التعبير القرآني بـ﴿غَشَّى﴾ مع تشديد ذات دلالة واضحة على أن العذاب لا ينزل على قوم صدفةً أو عبثاً، وإنما بسوء أعمالهم. ومن خلال التفكير في مثل هذه الظواهر التاريخية، تتجلى لدى المؤمن أسماء الله الحسنى.



بصائر وأحكام

من خلال التفكُّر في حقائق التاريخ، نزداد إيماناً بالله وعرفاناً
بأسماؤه الحسنی.



فباي آلاء ربك تتمارى؟

﴿فَبَايَءَ الْآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى﴾ ٥٥ ﴿

من الحديث

قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «بُنيَ الكُفْرُ عَلَى أَرْبَعِ دَعَائِمٍ: الْفِسْقُ، وَالْغُلُوبُ، وَالشَّكُّ، وَالشُّبْهَةُ. (إلى أن قال:). وَالشَّكُّ عَلَى أَرْبَعِ شُعَبٍ: عَلَى الْمِرْيَةِ، وَالْهَوَى، وَالْتَرَدِّدِ، وَالِاسْتِسْلَامِ، وَهُوَ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَبَايَءَ الْآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى﴾»^(١).

تفصيل القول

قالوا: إن الآلاء هي النعم، ووجهوا تعقيب السياق للعذاب

(١) الكافي، الشيخ الكليني، ج ٢، ص ٣٩١.

بهذه الكلمة، بأن من منتهى النعم وبلوغ الكمال فيها إحقاق الحق^(١). وجاء في تفسير مجمع البيان: «وقيل: لما عَدَّ الله سبحانه ما فعله مما يدل على وحدانيته، قال: فبأي نعم ربك التي تدل على وحدانيته، تشكك؟ وإنما ذكَّره بالنعم بعد تعديد النقم، لأن النقم التي عُدَّت هي نعم علينا، لما لنا فيها من اللطف في الانزجار عن القبح، إذ ناهم تلك النقم لكفرانهم النعم»^(٢).

ويبدو لي أن كلمة الآلاء هي التقديرات للرب سبحانه، التي تدل على قدرته التامة. قال الله سبحانه: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوْاْظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْصِرَانِ ۖ فَيَا أَيُّهَا آلَاءُ رَبِّكُمَا تُكَذَّبَانِ﴾^(٣).

وأصل الكلمة من (آلا) بمعنى البلوغ وظهور القدرة، ومنها دلالة الكلمة على القسم والعهد. والله العالم. والتماري الشك كما قالوا، ولعل الأصح أن المعنى: كيف تُجادل في الحقائق. والله العالم.

بصائر وأحكام

إن كلمة الآلاء هي التقديرات للرب سبحانه، التي تدل على قدرته التامة، وبالتفكر فيها نزداد وعياً بأسماء الله الحسنى.

(١) التحقيق في كلمات القرآن الكريم، حسين المصطفوي، ج ١، ص ١١٢.

(٢) تفسير مجمع البيان، الشيخ الطبرسي، ج ٩، ص ٣٠٥ - ٣٠٦.

(٣) سورة الرحمن، آية ٣٥ - ٣٦.



هذا نذير

﴿هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النَّذْرِ الْأَوَّلِ﴾ ٥٦

من الحديث

عن علي بن معمر، عن أبيه، قال: «سَأَلْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام عَنْ قَوْلِ اللَّهِ: ﴿هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النَّذْرِ الْأَوَّلِ﴾: قَالَ: إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَمَّا ذَرَأَ الْخَلْقَ فِي الذَّرِّ الْأَوَّلِ فَأَقَامَهُمْ صُفُوفًا، وَبَعَثَ اللَّهُ مُحَمَّدًا فَأَمَّنَ بِهِ قَوْمٌ وَأَنْكَرَهُ قَوْمٌ، فَقَالَ اللَّهُ: ﴿هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النَّذْرِ الْأَوَّلِ﴾ يَعْنِي بِهِ مُحَمَّدًا حَيْثُ دَعَاهُمْ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي الذَّرِّ الْأَوَّلِ»^(١).

وعن علي بن معمر، عن أبيه، قال: «سَأَلْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام عَنْ قَوْلِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النَّذْرِ الْأَوَّلِ﴾ (قَالَ:): يَعْنِي بِهِ

(١) تفسير القمي، الشيخ علي بن إبراهيم القمي، ج ٢، ص ٣٤٠

مُحَمَّدًا ﷺ، حَيْثُ دَعَاهُمْ إِلَى الْإِقْرَارِ بِاللَّهِ فِي الذَّرِّ الْأَوَّلِ^(١).

وقال الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «مَا بَعَثَ اللَّهُ نَبِيًّا أَكْرَمَ مِنْ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَلَا خَلَقَ اللَّهُ قَبْلَهُ أَحَدًا، وَلَا أَنْذَرَ اللَّهُ خَلْقَهُ بِأَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ قَبْلَ مُحَمَّدٍ ﷺ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النَّذْرِ الْأَوَّلِيِّ﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾^(٢). فَلَمْ يَكُنْ قَبْلَهُ مُطَاعٌ فِي الْخَلْقِ، وَلَا يَكُونُ بَعْدَهُ إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ فِي كُلِّ قَرْنٍ، إِلَى أَنْ يَرِثَ اللَّهُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا»^(٣).

بصائر وأحكام

وهذا الرسول العظيم، هو نذير من النذر الأولين؛ وكما انتهى مصيرهم إلى الدمار حين تولوا عنه، فإنه سوف ينتهي بكم أيضاً ذات المصير.

(١) بصائر الدرجات، الشيخ محمد بن الحسن الصفار، ص ١٠٥

(٢) سورة الرعد، آية ٧

(٣) الأمالي، الشيخ الطوسي، ص ٦٦٩



أُزِفَتِ الْأَزْفَةُ

﴿أُزِفَتِ الْأَزْفَةُ ٥٧﴾.

تفصيل القول

قالوا: إن الأزفة هنا الساعة، وهي قد اقتربت كما قال ربنا سبحانه في فاتحة السورة التالية: ﴿أَقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾^(١).

ولعل الأزفة - كما تصدق على الساعة - تصدق أيضاً على الهلاك في الدنيا.

بلى؛ بعد الإنذار تقترب العاقبة، فإن استجابوا فهي الحسنی، وإلا فالسوأى؛ لأن ربنا سبحانه رحيم بعباده، فلا يأخذهم إلا بعد الإنذار. قال الله سبحانه: ﴿مَنْ أَهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا

(١) سورة القمر، آية ١.

يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١١﴾

عادةً يحجب الإنسان عن الاتِّعَاضِ بما جرى لغيره التسويف،
وعلاجه إنذاره بقرب وقوع الجزاء عليه، فكل آت قريب، وسرعان
ما يُلاقِي الإنسان جزاءه، وحينئذٍ لا ينفعه الندم.

بصائر وأحكام

بعد الإنذار تقترب العقوبة، فإن استجاب الإنسان فهي الحسنى،
وإلا فالسوأى.



ليس لها من دون الله كاشفة

﴿لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ ٥٨.

تفصيل القول

تلك الآزفة التي اقتربت هي من النوع الذي أمره بيد الله، ولا مهرب منها. وهكذا تتكاثف غيوم الذنوب على الأمم الكافرة لتهطل عليهم مطر السوء، وهي حتمية إلا إذا كشفها الرب بعد استجابة الناس للنذير، كما رفع العذاب عن قوم النبي يونس عليه السلام.

بصائر وأحكام

متى ما استجابات الأمم الكافرة للنذير، عندها يكشف الله عنها العذاب، ومن دونها لا ينفعهم شيء أبداً.



أفمن هذا الحديث تعجبون؟

﴿أَفَمَنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ﴾

من الحديث

روي عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام في قول الله تعالى: ﴿أَفَمَنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ﴾ قال: «يَعْنِي بِالْحَدِيثِ مَا قَدَّمَ مِنَ الْأَخْبَارِ»^(١).

تفصيل القول

ولكن الناس الذين تمادوا في غيهم، وغفلوا عن ربهم، يُعتبر النذير صدمة يعجبون منها؛ لأنهم قد أسكرتهم النعم، وأبطرتهم الغفلة، وأحاطت بقلوبهم حجب الغفلة.. فكيف يُصدّقون بأن كل هذه النعم قد تتلاشى في لحظة، فإذا هم هالكون؟

(١) تفسير مجمع البيان، الشيخ الطبرسي، ج ٩، ص ٣٠٦.

بصائر وأحكام

النذير صدمة يتعجب منها من أسكرته النعم، وأبطرته الغفلة،
وأحاطت بقلبه حجب الغفلة.



وتضحكون ولا تبكون؟

﴿وَضَحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ﴾ ٦٠ .

تفصيل القول

وأنهم غفلوا أن الله سبحانه الذي أضحكهم بالنعيم، قد يُبكيهم بالجزاء لأعمالهم السيئة.

كلّا؛ إنهم في غفلة من كل ذلك.



وأنتم سامدون

﴿وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ﴾ ١١ ﴿﴾.

تفصيل القول

يبدو من السياق أن معنى ﴿سَامِدُونَ﴾ لاهون، فماذا نستلهمه من هذه الكلمة الفريدة في القرآن والتي سبقت آية السجدة الواجبة مما يوحى بالمزيد من الاهتمام بها؟

عندما يتولى ابن آدم عن الحق الذي تُحيط به آياته، ويُحاول جهده أن يتهرَّب من واجبه تجاهه، تراه يُلهي نفسه بكل وسيلة متاحة؛ فقد يختار اللعب، وقد يختار الطرب، وربما الرقص، وحتى الانشغال بأعمال تافهة، أو الإسراف في الملذات كالطعام والشراب، وحتى محاولة الهروب من الواقع بالمسكرات والمخدرات.. كل ذلك من أجل الاسترسال في الغفلة وتناسي الواقع.

ولعل هذا من أبعاد معنى ﴿سَمِدُونَ﴾، وهذا ما نجده في الكثير من المجرمين والفسقة والكفار.

بصائر وأحكام

على الإنسان أن يتقبَّل الحق، ولا يستغفل نفسه باللغو واللعب، وبالتالي التهرُّب من الواقع بصورة أو بأخرى.



فاسجدوا لله

﴿فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا﴾ ﴿١٢﴾

من الحديث

قال رسول الله ﷺ: «إِذَا سَجَدَ الْعَبْدُ، سَجَدَ مَعَهُ سَبْعَةٌ: وَجْهُهُ، وَكَفَاهُ، وَرُكْبَتَاهُ، وَقَدَمَاهُ»^(١).

وقال ﷺ: «اسْجُدُوا عَلَى سَبْعَةٍ: الْيَدَيْنِ، وَالرُّكْبَتَيْنِ، وَأَطْرَافِ أَصَابِعِ الرَّجْلَيْنِ، وَالْجَبْهَةِ»^(٢).

وقال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «نِعْمَ الْعِبَادَةُ، السُّجُودُ وَالرُّكُوعُ»^(٣).

(١) مستدرک الوسائل، الميرزا النوري، ج ٤، ص ٤٥٥.

(٢) مستدرک الوسائل، الميرزا النوري، ج ٤، ص ٤٥٥.

(٣) غرر الحكم ودرر الكلم، الشيخ الأمدي، ص ١٧٥، حديث رقم ٣٣٥٥.

وسأل عيسى بن عبد الله القمي، أبا عبد الله عليه السلام: «مَا الْعِبَادَةُ؟
قَالَ: حُسْنُ النِّيَّةِ بِالطَّاعَةِ مِنَ الْوَجْهِ الَّذِي يُطَاعُ اللَّهُ مِنْهُ. وَفِي حَدِيثٍ
آخَرَ قَالَ: حُسْنُ النِّيَّةِ بِالطَّاعَةِ مِنَ الْوَجْهِ الَّذِي أَمَرَ بِهِ»^(١).

تفصيل القول

كيف نسمو إلى مستوى قبول الحق وعدم التغافل عنه باللهم
مثلاً كان يفعله السادرون (السامدون) الذين كانوا يضحكون ولا
يكونون؟

إنما بالمزيد من التقرب إلى ربنا، والتسلح بالتوكل عليه والتضرع
إليه أن يعيننا على أنفسنا وعلى ما يمتنعنا من طاعته.

والسجود وما فيه من هيئة انقطاع تام إلى الله، فإنه غاية
الاستكانة، بحيث يقع الإنسان بكل أعضائه على الأرض ويضع أعز
مواضعه على التراب، إنه يُتيح له فرصة المناجاة مع الله والاستغاثة إليه.
وبالتالي رفع الحجب بينه وبين خالقه، مثل حجاب الغفلة وحجاب
الخطايا وحجاب الكبر والغرور والعجب وغيرها.. وهناك يستدر
على نفسه رحمة ربه عبر الدعاء.

وهكذا اختتمت سورة النجم وما فيها من بصائر المسؤولية،
ختمت بما يُعين البشر على وعي المسؤولية وتحملها، وهو التوكل على
الحي القيوم سبحانه.

ولعل العبادة التي أمرنا بها من بعد السجود، والتي تعني
الطاعة التامة لله سبحانه وَمَنْ أَمَرَ اللَّهُ بِطَاعَتِهِمْ، إنها تُفسر حكمة

(١) المحاسن، الشيخ أحمد بن محمد البرقي، ج ٢، ص ٨٣.

السجود. فالسجود لله يُعين الفرد على عبادته والقيام بها فرض عليه من واجبات. والله المستعان.

بصائر وأحكام

بما أن تحمّل المسؤولية علماً وعملاً أمر مستصعب، فعلى الإنسان أن يسجد لربه ويستعين به للقيام بها فرض عليه من عبادته وطاعته.

بَيِّنَاتٌ مِنْ فَقْهِ الْقُرْآنِ

دراسة قرآنية تعتمد استنباط السنن الإلهية من آيات الذكر الحكيم

تتراكم الأحداث الخطيرة والدائمة أحياناً من حولنا، ويتساءل الكثير: ماهو حل الإسلام لكل هذه المنظومة الواسعة من الأحداث الكارثية؟. هل الإسلام، وهل الحركات الإسلامية الممتمة إليه جزء من الحل، أم -لا سمح الله- جزء من المشكلة؟.

كلّا؛ إننا نؤكد -المرة بعد الأخرى- أن الإسلام هو الحل، وإذا تجردت الحركات الإسلامية عن حزبياتها وذاتياتها واتبعت نهج الأنبياء ﷺ في أمورها، في تدبيرها، في أخلاقها، في نكرانها للذات.. فإنها -بإذن الله- ستكون جزءاً من الحل. ولكن كيف؟.

إننا كنا نبشر أنفسنا بأن جيلاً قرآنياً سوف يتكوّن ويتنامى ويكافح من أجل ترسيخ بصائر الوحي في المجتمع، حتى يمكّنه الرب سبحانه في أرضه. أو لم يقل عز من قائل: ﴿إِنْ مَكَانَهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَهُمْ عَلَى الْقَوْلِ لَدِ اللَّهِ يُلَاقُونَ﴾. المُنْكَرُ وَلِلَّهِ عَقِبَةُ الْأُمُورِ.

ولكن يبدو أنه لا يزال هناك فاصل ضخم بين أمتنا وبين القرآن المجيد، وأن القراءة التي نجدها عند البعض للإسلام هي القراءة الخاطئة التي توارثها المسلمون من حكامهم الظلمة؛ من بني أمية وبني العباس والحكومة العثمانية الطاغية.. وليست القراءة الصافية التي تعتمد العقل، وتلاحظ متغيرات الواقع وتصفى التاريخ من العصبية الجاهلية، التي ظهرت بعد رحيل النبي الأكرم محمد ﷺ، وسببت الحروب الداخلية الدامية التي شنها بنو أمية أعداء الإسلام؛ قبل الفتح وبعده.

إننا نأمل أن نساهم في إعادة الأمة إلى رشدها من خلال تأملاتنا في آيات الله الكريمة، وتذكير الأمة بضرورة اختراق الحجب التاريخية، والتواصل مباشرة مع القرآن المجيد، واعتماد العقل والواقع في فهم بصائر الوحي؛ أما العقل فلا أنه وعاء الوحي، وأما الواقع فلا أنه مهد تطبيق الوحي.